غادة الخوري

طِفلة الرَّعد

مكتبة 1622

رواية

دار الآداب

طفلة الرعد

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

غادة الخوري

مكتبة|1622

طفلة الرعد

رواية

دار الآداب

طفلة الرعد

غادة الخوري / كاتبة لبنانيَّة

الطبعة الأولى عام 2023

ISBN 978-9953-89-735-6

مكتبة

t.me/soramnqraa

4 1 2024

دار الآداب للنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة

موقعنا www.daraladab.net

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:

info@daraladab.net

rana.adab@gmail.com

Facebook: Dar Al Adab   Instagram: @daraladab   Twitter: @DarAlAdab

«أنا الخنجرُ الذي يراوحُ في غِمدِهِ
والصرخةُ التي تتلعثمُ في حنجرةِ العالم».

كمال خير بك

مكتبة
t.me/soramnqraa

لا تذكر متى التحمت روحها بالرعد. لكنَّها تعلم أنَّه يأتيها كلَّما احتاجت إليه، كصديقٍ يسمع بقلبه نداءها المكتوم. معه فقط تشعر بالقوَّة... بالسلطة... بالجبروت الذي يُرعب الجميع ويحبسهم في بيوتهم. حينها فقط، تخرج وتلعب مع المطر والبروق، فأطفال الرعد يفهمون لغتها، يبيحون لها الساحات والحقول والفضاء المقفر من عيون البشر. جميع البشر، باستثنائها هي، يهابون الأصوات التي لا وجه لها، الأصوات التي تلبس وجه ما تمرّ عليه كما يلبس الهواء وجه الشجر وهيئة الماء ولهيب النار.

لا تذكر متى وُلد كرهها للفصول، لكنَّها تعلم أنَّ الصيف هو الأشدّ قسوةً، برائحة الروث التي يحمل، بأسراب الذباب التي تغزو الحارات... بفحيح الألسن التي تخرج كالأفاعي من جحورها لتسمِّم الكرامات. الصيف موسم النميمة. يفتح أبواب

العار في قريتها، ويفتح العيون على عاهتها. لا أحد في ديرزوفا سواها، يرى ذلك المارد يطلع من خلف الجبال، من الزواريب، من الشجر، من تحت التراب... له عيون الوحوش ومخالبها. يطاردها أينما ذهبت. تتقلَّص... تمسي بحجم حشرة. يدهسها ألف مرَّةٍ ولا تموت... ويعود لينبت من أصغر الثقوب، من كلِّ العيون. ومن حناجر النسوة التي تقرقع كالتنك! لا مفرّ... المارد يحتلُّها... بهيئة وحشٍ أسود يجثم على كتفيْها. وحدها تشعر به، يشلّ أطرافها ولسانها ولا يختفي إلَّا حين يخرج الرعد مجدَّدًا من عرزاله، فتلوذ إليه كما تلوذ الحيوانات إلى فرائها تمويهًا للأعداء.

لا تذكر متى صار لها أعداء، لكنَّها تعلم أنَّهم كُثُر... فالناس في قريتها، مهما اختلفت أسماؤهم وملامحهم، يشلُّون قدرتها على الوقوف مرفوعة العينين.

* * *

عنيفًا جاءها المخاض في شتاءٍ عاصف. الحطب في الموقد يستعر. حماتها ترصد عينَي القابلة كمخبرٍ متمرِّسٍ في اعترافات الوجوه. أمَّا هي، فتتعمشق بحبال الرعد... تُطلق صرخةً أقوى... «يا ربِّي تنجينا» تهتف حماتها... يندفع الجنين... يطلّ برأسه. عيناه ألمع من البرق. تخرج حماتها من الغرفة وهسيس النار يحرق تمتماتها: «بيت البنات فاضي».

في تلك الليلة الممجَّدة بالرعد، كلّ أمطار السماء هطلت على جبينها، على عنقها، على كتفيْها، على صدرها...

كان الرعد يقهقه حين سحب حباله، فأظلمت الغرفة مع دخول زوجها. وسرعان ما ابيضَّ الليل. الثلوج تربض على النافذة، على الأشجار، على أعمدة المصابيح، على قلبها...

بقايا مطر في عينَيْ صالح. يُحدِّق بالطفلة... يبحث عن شَبَه، أو عن ولدٍ سحرته جنِّيَّةٌ إلى بنت. يغادر الغرفة تاركًا لها قرار تسمية مولودهما الأوَّل. يلتهم شوربة العدس في المطبخ. يعود ليشخر قربها حتى الفجر.

ستسمِّي الطفلة هبة... اسمٌ يُلفظ بلا عناء. لكنَّها لن تغامر في حَمْلٍ ثانٍ. ندمت لأنَّها لم تسأل القابلة عن حلٍّ يحميها من الإنجاب. ندمها ينضح خوفًا. ماذا لو أفشت القابلة سرّها وفضحتها في القرية؟ ماذا لو عرف صالح؟ لن يسامحها.

لن تحمل من جديد. ستتذرَّع بأيِّ شيء... سترمي بنفسها عن درج البيت أثناء شطفه. ماذا لو كسرت رقبتها عند سقوطها المفتعل؟ لا تريد أن تموت هكذا. احتمال أن تُنجب ولدًا ليس سببًا مشرِّفًا للاستغناء عن حياتها، كمن يقطع يديْه مخافة أن يسرق!

تأمَّلت عينيْ طفلتها المغمضتيْن بلا قصد. تذكَّرت تلك الرغبة التي تجمح بها ليتحوَّل جميع الناس إلى قرودٍ بـ أفواهٍ وعيونٍ وآذانٍ مغلقة. هبة ستكبر على حكاياتٍ كتبتها في دفترها الصغير... عن حسُّونٍ لا يتنمَّر على ضفدع، عن ضفدعٍ لا يخجل من نقيقه، عن حمارٍ لا يشتهي صوتًا غير نهيقه... علَّها تُنقذها من مصيرٍ لم تبرأ منه هي نفسها على الأرض كلَّما تكلمت.

ستفعل المستحيل كي لا تتحوَّل ابنتها مثلها، إلى دميةٍ بلاستيكيَّةٍ أمام عيون الناس... تتفكَّك من رأسها، من ذراعيْها، من قدميْها... ولا يدٌ تمتدّ لتجمع شتاتها. أطرافها المتناثرة تبقى على الأرض. وكلّ من يمرّ من أمامها يدلّ عليها ساخرًا!

كم تتمنَّى أن يطول الشتاء حتى يطول السكون مع طفلتها وحمويْن لا يستقبلان أحدًا في العواصف. تساءلت ألف مرَّةٍ أيّ أرضٍ في الكون لا صيف فيها كي تهاجر إليها وتستريح! هي وحدها، وقبل كثر سواها، أدركت أنَّ بلدها بمواسمه الأربعة ليس «أجمل بقعةٍ على الأرض».

لم يعد يكفيها هذا الشعور الطفيف بالفخر، لأنَّها استطاعت مكابدة أهوال الصيف طوال السنين. القدرة على التحمُّل لا تلغي الخطر.

في كلِّ صيف، يأتيها صالح بالغلال، فتتسلَّى في توضيبها وتتحمَّس لإعداد مؤونة الشتاء. مربَّيات ومخلَّلات، وكشك وزعتر وزيتون.. أعمالٌ شاقَّة، لكنَّها تتمّ بصمت. تساعد حماتها في إعداد خبز الصاج. عشرات الأرغفة ترقّها حتى تيبس ذراعاها. جلوسها متربِّعةً أمام الموقد لساعاتٍ طويلة سبَّب لها تشنُّجاتٍ حادَّةً في الفخذيْن لكنَّه أعفاها من الكلام. وحين تنفتح الشرفات والأبوابُ لاستقبال الجيران، تستغرق هي في الحياكة أو تختفي في الحديقة حتى يزول الخطر.

في تلك الحديقة المسكونة بشجر الرمَّان والتين تحكي مع

العصافير، وينساب صوتها على أجنحة الفراشات. تنثر فتات الخبز القديم فتركض الدجاجات صوبها. القطط تحوم حول قدميْها، تموء لها كما يناغي الأطفال أمَّهاتهم. الديك يقف على حجر. كئيبٌ كعادته، أو هكذا يبدو لها في استعداده العنيد لمنازلةٍ لن تحدث. تغبطه، ليس فقط لأنْ لا منافس له، بل أيضًا لأنَّه يصيح متى يشاء. هكذا، تمرّ الساعات ولا شيء يعكّر صفوها مع تلك الكائنات التي تُحيطها بأمانٍ لذيذ. من خلف الأسلاك الحديديَّة المحيطة بالحديقة، تلمح أطيافًا من البشر. أهل ديرزوفا يعبرون، في المواعيد نفسها، تعرف كلّ واحدٍ فيهم، من مشيته، من طاقيَّته، من عكَّازه، من حماره، ومن صوته. لم تعد تستغرب أن ترى امرأة تتحدَّث وحدها وهي تمشي، حتى إذا صادفت امرأةً أخرى في الطريق وقفت قبالتها كصنَّارة صوفٍ تستنجد بأختها لتلتقط قطبةً خفيَّة فتتلاقى خيوط النميمة. كم تمنَّت أن ترتفع تلك الحديقة بها كبالونٍ بلا ألوان، تحمله الرياح إلى ما فوق الغيوم، ويترنَّح على الجبال حتى يصل إلى حيث يسكن الرعد. كم تساءلتْ إنْ كانت الأشجار تعاني مثلها من سأم الثبات في أرضٍ لم تخترها. قرأت أساطيرَ كثيرةً عن مشي الشجر والناس نيام. تقتلع جذورها لتمضي في المشي. وتتكلَّم وسط صمتٍ يلفّ الأرض. لكنْ لماذا تعود؟

كم تمنَّت أن تُغيِّر أمّ صالح عادتها، فلا تهتف لها كلَّما انتصف النهار لتذكِّرها بإعداد الطعام. الآن، أصبحت أشدّ حرصًا على إرضاء حماتها، التي كلَّما ابتسمت لها رأت في الضرسيْن المعلَّقيْن في فمها أمنيةً واحدة على شفير الوقوع: إنجابَ ولدٍ

لصالح. وكما ينظر القاتل إلى قتيله قبل الجريمة، هكذا تراوغ هي مع حماتها ولا تشعر بأيِّ ذنب. مصيبتها أخفّ وطأة. فإذا كانت «البنت لأمّها»، كما يُقال، سترضى بنصيبها طالما أنَّ ابنتها لن تحمل اسم صالح إلى الأبد... فهذا الرجل الذي قبِل بها كما هي، لا يستحقّ ابنًا يرث عاهتها.

ما زالت تذكر ذلك اليوم بعد عامٍ من زواجها، يوم وقفت في الزقاق المفضي إلى ساحة القرية. أرادت فقط أن تتفرَّج على ديرزوفا في صباحٍ صيفيّ احتلَّه «الأخوِت». كانت متأكِّدة أنَّ أحدًا لن يخرج من بيته في حضرة هذا الهواء المختلّ الذي لا يترك «ابن مَرَة» واقفًا على قدميْه. يطيح بالشجر والبشر، يشلِّع النوافذ ويطيِّر مدَّات المؤونة عن السطوح حاملًا معه حبيبات القمح والعدس في رحلاته المجنونة بين الأزقَّة. وحده صالح غادر إلى الحقل. «الأخوِت» لن يقوى على زحزحته، هو الصلب كعود الرمَّان... مشت بضع خطوات لتُلقي نظرةً سريعةً تغمرها نشوة انتقامٍ وامتنانٍ للرعد الذي اختار «الأخوِت» مندوبًا له في الصيف ليرهبَ بصفيره وهبَّاته المفاجئة أهل قريتها! أحسَّت بطيفٍ يقترب منها. صبيَّةٌ تسرع إلى معانقتها. شدَّتها كما يشدّ صالح بغلته. شعرت بخدَّيْها يحترقان. لا تريد أن يراها أحد. فخلف النوافذ عيونٌ تترصَّد فريسةً للنميمة. لا تريد لمرورها اليتيم في القرية أن يكون مع تلك الفتاة. مها تشغل الألسن في ديرزوفا: «فاجرة... داشرة... لا تلفي إلى البيت قبل منتصف الليل... تصطاد الرجال من أحضان زوجاتهم... نصف أهالي القرى المجاورة حلفوا يمين الطلاق بسببها... وكانت السبب في بقاء أخواتها بلا زواج».

«لقطتك ومش رح أفلتك، يلّلا نشرب قهوة عنّا»، قالت مها وهي تجرّها صوب بيتهم، و«الأخوِت» يدفع بهما بسرعةٍ تفوق قدرة هيلانة على العصيان. حين وصلتا البيت، دخلت مها تنادي أمّها. هنا وُلد أبوها وكبر مع أخيه الأوحد نجيب الذي ورث البيت بما فيه. في هذا البيت، حكايةٌ لا تقوى هيلانة على استرجاع تفاصيلها الآن... فوالدة مها تطلّ حاملةً ولدًا بين ذراعيْها كأنَّه جرَّة. كان في العاشرة أو الثانية عشرة من عمره، لا يُحمل. أطرافه مترامية. ظهره متراخٍ. عيْناه شبّاكان من زجاجٍ أغبش. فمه مستسلمٌ للعاب. لم تسمع أنَّ في بيت عمِّها نجيبٍ ولدًا معاقًا. أو ربَّما نسيت! كانت المرأة قد هجمت عليها لتقبِّلها.

ـ اقعدي حبيبتي... أهلًا وسهلًا... وجك أو ضوِّ القمر! يا أهلين.

ـ ما صدقتش إنَّها هي. هتفت مها، شوفي ما أجملها... قهوتك مُرّة؟

ـ شكرًا... بـ.. بلا قهوة... كككـ....كك.. كيفك مراة عمِّي؟...

ـ بعدِك بتحكي هيك؟ قالت مها.

ـ يا حسرتي، بتذكَّر أمّك قدّيش انشغل بالها عليكِ، أردفت الأمّ، الحمد لله إنَّك حكيت ... كيفما كان. بس حكيتِ. وتزوَّجتِ كمان... خسارة ما حضرنا عرسك، ولا هنيّناكِ... بتعرفي مصيبتنا!

وقفت هيلانة كشهب نار. «بخاطركن». تمتمت، وهُرعت

لتحتمي بالأخوت فيحملها على أجنحته ويؤويها في بيتها. أرادت الفرار من جسدها، من الوحش الذي ربض فجأةً على كتفيْها، من السهام الحارقة التي اخترقت صدرها مع كلمات مها... كان صفير «الأخوت» ينهزم أمام ترجيعات صوت مها وشلَّةٍ من التلاميذ: «هيلانة التأتوءة... ما في كلمة بتقولا... أأأأأ... ووو... ببببب... هيلانة التأتوءة، ما في كلمة بتقولا...».

ركضت أكثر حتى انهارت ركبتاها في إعياء. تكاد تقع من يأسها... فعاهتها التي وصمت طفولتها ستلحق بها إلى القبر.

منذ ذلك اليوم، لم يرها أحدٌ خارج بيتها في الصيف ولم ترتفع الحديقة أعلى من عرف الديك.

تساءلتْ كثيرًا لماذا تزوَّجها صالح، ولم تسأل أختها لماذا وافقت عليه! لعلَّ فادية قالت في نفسها: «فرصةٌ لن تتكرَّر، فلا أحد يتمنَّى فتاةً مثلها». لكنَّها فهمت أنَّ أختها لم ترتكب جريمةً بتزويجها من رجلٍ يكبرها بعشرين عامًا. فأهل ديرزوفا يأتمنون على بناتهم رجالًا مقتدرين، أبناء المعول والأرض. «فلَّاح مكفي سلطان مخفي» يقولون.

الخيار الوحيد الذي تُرك لها، أن تقرِّر موعد الزواج. في الشتاء، لن يدوروا بها في أزقَّة القرية ككلِّ عروس. الأمطار والثلوج ستكسر القاعدة المتَّبعة في كلِّ أعراس ديرزوفا لتحميها من عيون الناس، من رفاق المدرسة، من أغنية التأتوءة التي قد تلاحقها حتى الكنيسة.

هيلانة كانت سعيدة لأنَّ الناس مشغولون بالبرد، وبفرك أيديهم ولفِّ وجوههم بوشاحات الصوف. منشغلون عن التحديق بها لرصد أيٍّ خطأٍ في مشيتها، في زينتها، في فستانها الذي استعارته فادية من صديقةٍ لها في بيروت مسبِّبةً لخالتها، الخيّاطة إلماز، جرحًا عميقًا. . انتظروها داخل الكنيسة لتعبر الرواق الطويل نحو المذبح، فسمعت ما يجول في خاطرهم من أمنياتٍ بأن ينتهي العرس سريعًا ليعودوا إلى منازلهم ومواقدهم وينشغلوا بالحديث عن الطقس بدل الكلام عليها. كانت تتأبَّط ذراع أخيها فريد، وعظامها تصطكّ من الخوف كلَّما اقتربت خطواتٍ لتصل إلى عريسها. رأت هامته الرفيعة في قاع الكنيسة ولا شيء أكثر من شاربه كان بارزًا. ولمَّا دنت لتتلقَّف ذراعه غمرت قلبها طمأنينةٌ غريبة.

كلّ شيءٍ تمَّ على عجلٍ في ذلك اليوم بفضل الرعد الذي لم يكفّ عن إضاءة الكنيسة ببروقه وعن بثِّ الرعب في القلوب. هيلانة قالت نعم لحياةٍ تجهلها. علَّقت الخميرة فوق عتبة بيتها الجديد، فالتصقت فورًا. لكنَّها لم تنم طوال الليل. حين احتضن صالح رأسها وعلَّقه على صدره كسلَّة فاكهةٍ فوق غصن، راح قلبها يخفق بانتظار اللحظات التالية. لكنْ لا شيء ممَّا قالته لها فادية حصل. صالح غفا وهو يداعب شعرها. «الحياة قدَّامنا. . . ارتاحي»، همس لها.

الحياة مع صالح خفَّفت عنها وطأة يتمها المبكر. وأصبح كلّ شيءٍ خارج هذه الحياة أقسى من أصابعه المتشقِّقة وقوَّة قبضته. كلّ شيءٍ كان أكثر غرابةً من نحوله كغصنٍ يابس، من شاربه المتمدِّد كالشوك فوق توت العلِّيق. لا تعلم حتى اليوم ما إذا كان

يحبّها. من سبتٍ إلى سبت ترصد رغبته في ملامستها. السبت موعد الاستحمام. موعد الجسد مع الغار. مع الهمس بين خاصرتيْن غريبتيْن. صالح يداعبها كما يمسِّد ظهر بغلته عبلة. أنفاسه تعبر خلاياها، ترخي كلّ مفاصلها فتستسلم لروعة الصمت في لغة الأصابع، وتشهق حنجرتها لوعةً تذيب القيود حول صوتها، فتتوهَّم أنَّه سيكون في الغد حرًّا كصياح الديك. لكنْ مع كلّ يوم أحد يطلّ، وفيما تتزيَّن نسوة ديرزوفا لحضور القدَّاس، تعود هيلانة إلى فقَّاعة الصمت خائبةً من سبتٍ لم يحرِّر صوتها، غاضبةً من عجزها عن الارتفاع إلى مصاف أهل ديرزوفا، تربِّي كرهها لقريةٍ تقدِّس الشَبَه.

عاهتها درَّبتها على الخداع، فكسبت ودّ حماتها. «بنت متربّاية منيح، سكوتة ومتل القمر» ردَّدت أمّ صالح مرارًا. . . فتوارت هيلانة «التأتوءة» خلف شعرها الكستنائيّ حتى الكتفيْن، وعينيْها اللوزيَّتيْن، وأنفها العالي كدعسوقةٍ فوق وردة، وشفتيْن قرمزيَّتيْن كشريطٍ مربوطٍ إذا حُلَّت عقدته زال سحر الهديَّة.

«مخاوفك رح تقتلك»، قالت لها فادية. فادية التي نصحتها مرارًا بألَّا تتكلَّم كأهل الضيعة، «قولي ما بدِّي، مش بدِّيش. ما بعرف، مش بعرفش. . . لشو هالشين بآخر كلّ كلمة! هيك بتتميَّزي وبتحسِّي حالك غير عن أهل الضيعة».

«غير عن أهل الضيعة» هو شعورها تمامًا منذ كانت طفلة. والآن بانتقالها إلى حيٍّ جديد، لا تحتاج إلى مزيد من الاختلاف يزيدها خوفًا من أن تكون مثل مريم وأبو الزلف وبهيَّة.

لمريم قامةٌ أطول من عمرها. رأسها شمسيّ الشكل واللون. كلّ صباح، يستيقظ أهل الحيّ على صيحاتها، ومن يمرّ في الزقاق يرشقها بكلامٍ ساخر أو باللامبالاة، فتزمجر أكثر وتتعالى أصواتٌ أخرى من داخل البيت لإسكاتها فيصبح الضجيج مضاعفًا.

هيئة مريم لا تشي بالأنوثة. شعرها مقصوصٌ كالصبيان. لديها سنّان أماميّان كبيرا الحجم يبرزان بشدّة إذا اتّسعت ابتسامتها فيحتلّان مساحة وجهها كلّه. لكنَّ عينيْها الخضراويْن برموشهما الكثيفة تثيران التساؤل لدى كلّ من يراها حول أصل العائلة وأجدادها. فأمّها وأبوها يشبهان أهل ديرزوفا بسمرتهما الحادَّة، ويشكّ البعض أن تكون الأجيال السابقة للعائلة قد اختلطت بشكلٍ أو بآخر بأحد الجنود الفرنسيِّين الذين احتلُّوا لبنان تحت مسمَّى الانتداب، فورثت مريم لون عينيْه.

ليس لمريمَ أيّ عملٍ آخر سوى حراسة الدار وقذف الحصى على الصبية الذين يتنمَّرون عليها. صوتها خلال النهار يُقلق هيلانة. كانت تطلّ من الشرفة لتلوِّح لها بيدها، حتى إذا بادلتها مريم التحيَّة وانخفض صراخها اطمأنَّت أنَّها بخير. لأكثر من عام، تردَّدت هيلانة في دعوة مريم إلى بيتها. كان عليها أن تتأكَّد بنفسها من أنَّ تلك البنت ليست «خوتا» كما يصفونها في القرية، ولا تشكِّل خطرًا على أحد. في إحدى المرَّات، فوجئت بها على درج البيت تطلق صيحات ألمٍ اختلطت ببكاء هبة. خرجت عندما أصبح الصراخ قريبًا جدًّا من بيتها، فرأت مريم واقفةً على الدرج، الخوف في عينيْها ودمعتان عالقتان في أهدابها. نزلت بضع

درجات وعانقتها مصطحبةً إيَّاها إلى البيت كي تتأكَّد بنفسها بأنَّ بكاء هبة عاديٌّ لطفلةٍ تتألَّم من نبات أسنانها. فوجئتْ بطفلتها تتوقَّف عن البكاء عندما انحنت مريم فوقها. تعلَّقت عينا هبة بالوجه القرمزيّ وراحت تتأمَّل السنَّيْن البارزيْن. ومنذ ذلك اليوم، أصبحت مريم تتردَّد إلى بيت صالح لتلاعب هبة ريثما تُنهي هيلانة أعمالها المنزليَّة. كثيرًا ما تناولت طعام الغداء بوجود الحمويْن، لكنَّ أمّ صالح لم تكن راضيةً عن زيارات مريم. «هبة مش رح تتعلَّم الحكي من خرسا»، قالت أكثر من مرَّة حتى اقتنعت هيلانة أنَّها ومريم وجهان لعاهةٍ واحدة.

لا أحد في القرية يعلم لماذا تصرخ مريم ولا تتكلَّم. يُقال إنَّه عندما بدأت تكبر وحان موعد نطقها، لم تطلق إلَّا صيحاتٍ أثارت خوف العائلة من هذا المخلوق الشمسيّ الأحمر. ويُقال إنَّ خرسها تفاقم، لأنَّ أخويْها كانا يضربانها على رأسها كلَّما صاحت وأرعبت الحيّ.

مريم، بالنسبة لأهل ديرزوفا، تجسيدٌ صارخ للَّعنة التي تذكِّرهم بضرورة تلاوة فعل الندامة قبل تناول القربان يوم الأحد، راجين رحمة الربِّ وخلاصهم من عقابٍ على هيئة مريم. ومع ذلك لم تتوقَّف خطاياهم.

في الزقاق نفسه وعلى بعد بيوتٍ قليلة، يسكن جريس بو الزلف. هكذا ينادونه في القرية. فهو لا يمشي من دون أن يغنِّي. بالعتابا والميجانا يقطع المسافة من بيتٍ إلى بيت، حاملًا على ظهره جرَّة الغاز. رأسه يتحرَّك يمنةً ويسرة، فيعرف الناس من أقدامهم. وجهه مبتسمٌ طوال اليوم كأنَّه رُبط من أذنيْه بمطَّاطةٍ تُبقي

ملامحه ضاحكةً كقناع مهرِّج. طيبته تطفو على هيئته كلّها، على الرَّغم من سمرته الحادَّة وشاربه الكثيف كثافة الشعر فوق ذراعيْه وصدره ورأسه.

لا ينقطع جريس عن عمله حتى عندما يشتدّ المطر. برأسه المبلَّل حتى الكتفيْن وجزمته النايلون، يعبر ساحة ديرزوفا حاملًا جرَّة الغاز، لا تثنيه مزاريب المياه السارحة في الطرقات عن القيام بمهامِّه بكلِّ خفَّة. كثيرًا ما صادفته هيلانة في الثلج. هي وهو كدبَّيْن قطبيَّيْن يتجوَّلان في أزقَّة القرية، يتشاركان خفيةً اعتدادهما بقدرتهما الخارقة على تحدِّي الجليد. «أبو الزلف أجرأ منِّي»، ردَّدت في سرِّها. لكنَّها لا تريد أن تكون مثله: يسخر منه الجميع ولا يهابه أحد. يكاد يكون منسيًّا، غير مرئيّ، إلَّا عندما ينقطع الغاز في أحد البيوت. أشعاره كانت حيلته الوحيدة ليعبِّر عن امتنانه لأهل القرية الذين يكرمونه بعطاياهم سواء من البقشيش أو من طبق طعامٍ بائت، أو من كنزات صوفٍ أكَلَ الدهر عليها وشرب. عندما تغيب الشمس، ويطمئنّ بو الزلف أنَّ كلّ بيوت القرية مزوَّدة بالغاز حتى إشعارٍ آخر، يعود ليهتمّ بأمِّه العجوز التي يسكن معها في بيتٍ لا يدخله سوى القطط. يتمدَّد على كنبةٍ عتيقة قرب الموقد أو تحت عريشة الدار في الصيف، ويصدح صوته بالأغاني والأشعار وأبياتٍ من الزجل التي يؤلِّفها أحيانًا، أو يستعيدها من ذاكرته معدِّلًا على قفلاتها معتزًّا بنفسه لأنَّه غلب أمير الشعراء أو المتنبِّي أو زغلول الدامور.

جريس يُدخل الفرح إلى قلب هيلانة. كلَّما أتاها بجرَّة غاز تستبقيه لدقائقَ إضافيَّة، لتكافئه بقطعة حلوى يأكلها واقفًا. كانت

هبة تكركر بالضحك عندما يبدأ بالزغردة وتقليد أصوات العصافير أمامها. وكانت هيلانة تتخيَّل أنَّها لو ملكت نصف موهبته لهانت عيشتها، وبقيت ضاحكةً حتى بعد الموت.

ما زالت تذكر عندما عرف أهل القرية بأنَّ لجريس حبيبةً سرِّيَّة، كيف انسحبت كلّ قضاياهم ليتقدَّمها هذا الخبر ويصبح حديث الساعة. اهتمامهم لا ينمّ عن محبَّةٍ لجريس أو رغبةٍ منهم في أن يكون سعيدًا. أرادوا فقط أن يتسلُّوا. يستدرجونه في الكلام على حبيبته. بالنسبة لهم، هو أعجز من أن يحبّ على طريقتهم، تلك الطريقة التي لا تميِّز أحدًا منهم عن الآخر، هي دليل على أنَّهم «طبيعيُّون» يمارسون فعل الحبّ كما تعلَّموا بالتقليد أو بالسليقة. لا بدَّ أنَّ سليقة جريس مختلفة، لأنَّه ليس «طبيعيًّا» مثلهم. يتناولون قصَّته بالسخرية والتنمُّر، وفي قلوبهم حسدٌ خبيثٌ من قدرته على اختراق السائد والوصول بحبِّه إلى أعلى درجات الجنون.

لم تتقدَّم بهيّة من الهامش إلى المتن في حكايات أهل ديرزوفا إلَّا بعدما انكشف حبّها لجريس. من رأى بهيَّة قال إنَّ الاسم أُطلق عليها من طريق الخطأ، وإنَّ حرف الميم سقط من اسمها بشطحةٍ من قلم المختار، فكتب بهيَّة بدل بهيمة. كائنٌ ضخمٌ لم يكن يومًا بحجم الأطفال. وتحوَّل إلى امرأةٍ تهتزّ الأرض تحت قدميْها. لم يستغرب أحدٌ أن يكون جريس قد وقع في حبِّها. قال بعضهم إنَّها هدَّدته بالقتل إن لم يقل فيها شعرًا، فصار يقارع مجنون ليلى كي ينجو بحياته. قال آخرون إنَّها وعدته بالاعتناء بأمِّه إذا طبع قبلةً على خدِّها، فوجد في زيت الزيتون

حلًّا لترطيب شفتيْه بعد ملامستهما لخدِّها. كان عليه أن يتجرَّح بهذا الخدِّ لينعم هو وأمّه ببيتٍ نظيفٍ مرَّةً في الأسبوع. بسحر ساحرٍ، تشفط بهيَّة الغبار والأوساخ وتلمِّع البلاط، وتغسل الجدران بالصابون، وتقتل كلّ بيوت العنكبوت بأصبعها من دون الحاجة إلى سلالم. هي الوحيدة التي تصادق البوبريص، هذا الحيوان الذي يتَّخذ من جدران البيوت وسقوفها مرتعًا له، والمتَّهم من أهل ديرزوفا وكلّ أهالي المنطقة بجلب النحس. وحدها بهيَّة تجد في هذا المتسلِّق الماهر صديقًا ومساعدًا لها في القضاء على الحشرات والعناكب، ويُقال إنَّها تربِّي أعدادًا كبيرة منه في بيتها الذي لا يطأ عتبته أهل القرية لألف سببٍ آخر.

مريم وبوالزلف وبهيَّة، لا يختلفون عنها. هي مثلهم، على الهامش... الهامش الذي يوثِّق تفاصيلَ غريبةً وعلاماتٍ فارقةً تعطي كلّ ما في المتن حجَّة الاكتمال!

من صيفٍ إلى صيف، كانت نقمة هيلانة على فادية تكبر. لماذا لم تأخذها معها إلى بيروت؟ لماذا لم تشأ أن تنعم مثلها بتلك الغربة الجميلة في مدينةٍ لا أحد يعبأ بأحد؟ لماذا لم تفهم أنَّ تلك الألفة التي يتبجَّح بها أهل ديرزوفا تقصيها عنهم كلّ يوم؟ هي التوَّاقة إلى غربةٍ من نوعٍ آخر، إلى حضورٍ كاملٍ من دون شهرة العاهة، إلى المشي بين الناس مرفوعة الرأس لا كتلك الرؤوس المحمولة على الأكفّ بعد قطعها بمقصلة النميمة.

توْق هيلانة إلى الانعتاق من ديرزوفا كان ينغرس أعمق

وأعمق في قلبها الحزين كلَّما فتحت ذلك الصندوق الخشبيّ الصغير الذي يُسمَّى راديو. منه اكتشفت عالم الصوت، طبقاتِه وإيقاعاتِه الفاتنة. المفتاح العاجيّ في هذا الجهاز الغريب العجيب، كان كافيًا ليُطلق عصافير الأمل من روحها. وحده الراديو سيحميها وابنتها من عار عاهتها، ستتدرَّب معها كلّ يومٍ على الإصغاء إلى أصواتٍ كاملة، مضبوطةٍ كالميزان، يتمرجح الهواء على حبالها طليقًا بلا خوف.

بعد الخَبز وحلب الأبقار مع أمّ صالح، تعود إلى البيت لتبدأ أعمالها المنزليَّة برفقة هذا الصندوق السحريّ. تحمله من غرفةٍ إلى أخرى لتنهي مهمَّات التنظيف والغسل والكيِّ والطهْو مع أصواتٍ تعبر الجبال والهضاب والغيوم لتكلِّمها هي وحدها. كم تمنَّت لو أنَّ كلّ صوتٍ فيهم يُلبَس أو يُشرَب! «مع الصباح» كان برنامجها المفضَّل على إذاعة لبنان. وصوت ناهدة فضلي الدجَّاني سكن وجدانها سنوات. كيف لامرأةٍ أن تفرض بهاءها بصوتها؟ وكيف لحنجرةٍ أن تصير إنسانًا كاملًا يُرى ويُلمَس ويُحبّ؟ كلّ قصيدةٍ من سيِّدة الصوت ناهدة، صارت صلاةً تردِّدها طوال اليوم حرفًا حرفًا بلا تأتأة، كأنَّ صوتها خرج من غمده سيفًا ينتقم لها. لكنَّه سريعًا ما ينكمش ويتقلَّص عند بثِّ برنامج «صفر أو عشرين». فكلّ طُرفةٍ يرويها رياض شرارة يستعصي عليها تردادها أمام أحد. للطرائف أصولها وتغيير أيّ حرفٍ فيها يُفقدها فكاهتها. أمَّا الارتجال، الذي توَّج شرارة على عرش الكلام، فكان إعجازًا كاملًا يصيبها بحمَّى الهذيان في كابوس التأتأة اللامتناهي.

* * *

ذات يومٍ حارٍّ من شهر آب، أخبرها صالح أنَّ الأستاذ نبيل يريد استئجار الطابق الأرضيّ للبيت، وطلب منها تنظيفه وتجهيزه خلال أسبوع، لأنَّ الأستاذ نبيل سيتزوَّج. فرحتْ لأنَّ جزءًا جميلًا من ماضيها الغائب سيعود. عاودتها صورته في الصفِّ يثني على كتاباتها الإنشائيَّة وبراعتها في صياغة كلماتٍ من دون أيِّ خطأ. كان يرفع دفترها أمام كلّ التلاميذ مبديًا إعجابه بخطِّها وترتيبها للصفحات. هو الوحيد بين كلّ المعلِّمين الذي أعفاها من القراءة بصوتٍ عالٍ أمام الجميع، كأنَّه تواطأ معها سرًّا ليحميها من عار التأتأة، ولعلَّ تعاطفه هذا ينمّ عن معرفته بألمها، فهو يتعرَّض للتنمُّر من الصغار والكبار لأنَّه لا يتكلَّم إلَّا الفصحى.

مدرِّس اللغة العربيَّة في المرحلة التكميليَّة تزوَّج بعفاف، التي

ظنَّ أهل ديرزوفا أنَّ عنوستها ستدوم إلى الأبد. وكي لا تحضر عرسهما، تذرَّعت هيلانة بطفلتها التي لم تكفّ عن البكاء، فحضر صالح الزفاف وحده.

كالعادة، تناول أهل ديرزوفا أخبارًا وحكاياتٍ عن العروس عفاف وزينتها وأهلها، لكنَّ النميمة اتَّسعت لتطاول أيضًا الأستاذ نبيل الذي وجد في عرسه مناسبةً لاستعراض قواه اللغويَّة، فاحتجز الناس في الكنيسة لوقتٍ أطول من أجل أن يُلقي خطابًا يمدح فيه المختار لوقوفه إلى جانبه في يومه المبارك كإشبينٍ وأخٍ وصديق و«راعٍ للنسيج الاجتماعيّ في القرية»... يومها، عرفت أنَّ لأستاذها أخًا سافر إلى أستراليا وكان له الفضل في هجرة كثرٍ من أبناء القرية إلى تلك الأرض البعيدة. سمعتْ بوصالح يتحدَّث مرارًا عن والد نبيل، «بونوفل»، الذي باع قطعتيْ أرض ليؤمِّن خميرةً لسفر ابنه البكر تاركًا ابنه الأصغر نبيل يعتاش من راتبه كمدرِّسٍ ويسكن بالإيجار. كان بوصالح سعيدًا بالجار الجديد. وصفه أكثر من مرَّةٍ بالرجل الوفيّ «على قدّ حاله»، محبٌّ للأرض التي لا يملك منها دونمًا واحدًا. وعندما كان يحتدم النقاش مع زوَّاره، يقف بوصالح مدافعًا عن الأستاذ نبيل الذي يحمِّل أخيه مسؤوليَّة إفراغ ديرزوفا من شبابها.

من شرفتها، رأت العروسيْن ينقلان الأثاث إلى الطابق الأرضيّ، وبعض الجيران يتوافدون للتطفُّل بحجَّة المساعدة. لوَّحت بيدها عندما رفع الأستاذ نبيل رأسه محيِّيًا. لم يتغيَّر. لكنَّه يبدو لها مختلفًا. فذاكرتها لم تحفظ سوى شعره الذي يلمع دائمًا ولا يتحرَّك في العواصف، كلّ خصلةٍ منه ملتصقة بالأخرى.

حدَّقت أكثر لترى إنْ كانت جوزة حلقه ذابت. تذكَّرت كم ضحكت فادية وهي تصحِّح لها: «هيدي اسمها تفَّاحة آدم». لم تفهم هيلانة ما علاقة آدم وتفَّاحته بتلك الكتلة البارزة في رقبة الأستاذ. بالنسبة إليها، هنا يكمن السرّ في طلاقة الأستاذ نبيل وقدرته على إخراج الكلمات والجُمَل الطويلة بسلاسة. تلك الجوزة هي شبَّاك الصوت. لوقتٍ طويل، ظنَّت أنَّ تأتأتها ستتوقَّف إذا نبتت لها جوزة في الحلق!

بقيت على الشرفة سارحةً كأنَّها تتصفَّح صورًا قديمة لأوَّل مرَّةٍ، حتى علا صوت عفاف وهي تدعوها لتناول القهوة. اختنق الكلام في حلقها، واستعانت بيدها لتقول: «بعدين...». ارتعش جسمها حين أدركت أنْ لا مفرَّ من زيارتها، ومن اقتحام الجيران الجدد لعزلتها في أيِّ وقتٍ من اليوم. لا قواعد ولا مواعيد ثابتة للزيارات في ديرزوفا. البيوت كلّها مستباحة. يكفي أن يُدير الزائر المفتاح في القفل الخارجيّ ويطرح صوته معلنًا قدومه... وحين يبيت الذباب مع الغروب، تنفتح الأبواب على مصراعيْها ويصبح كلّ الزوَّار من أهل البيت... وماذا عن الحديقة؟ لا خلوة لها فيها بعد اليوم. ستضطرّ إلى رؤية جيرانها كلَّما حاولت التسلُّل إليها.

بعدما استقرَّ العروسان وأنهيا تجهيز البيت، عرفت هيلانة أنْ لا مناصَّ من المواجهة. لا شيء يرعبها أكثر من اللقاءات الأولى. وذات صباح، وبعدما غادر صالح إلى الحقل، سمعت هيلانة خطو عفاف يقترب من الحظيرة وهي تناديها. «ناطرتك على القهوة»، قالت لها الجارة الجديدة... أطلَّت هيلانة حاملةً

سطل حليب. «أأكيد. . . بب. . بتشرَّف». وقد أدركت استحالة تأجيل الزيارة. سيقولون إنَّها «بلا ذوق». الواجب يقتضي أن تزور جيرانها الجدد، أن تبارك لهما بالعرس والبيت. لكنَّها تخاف أن ينعقد لسانها، فتضاف عفاف إلى جمهورها الخفيّ المتهكِّم. قد تتأتئ أكثر إن تكلَّمت مع الأستاذ نبيل بالفصحى. لكنَّها ترغب في رؤيته بعد كلّ هذه السنوات. قد يعطيها وصفةً تلائمها لكلِّ الفصول.

سارعت إلى غلْي الحليب ووضع هبة في السرير. أوصت حماتها الانتباه إليها ريثما تعود. حملت صحن مربَّى الكرز كي لا تدخل خاوية اليديْن. تباطأت في نزول الدرج علَّ قلبها يهدأ، كانت تضع قدمًا قبل الأخرى وتثبِّتها في مكانها كأنَّها تدهس خوفها الذي سيدهمها إذا حاولت فتح فمها!

كان الأستاذ نبيل جالسًا في الدار وأمامه صينيَّة القهوة. وقف ليحيِّيها. وضع كفَّها في يده. . . ذابت يدها كحبَّة سكَّر. «أيادي المثقَّفين ناعمة»، قال لها صوتها. غلى الدم في شرايينها حين حدَّق فيها الأستاذ نبيل، لا بدَّ أنَّ خديْها الآن يشتعلان! وضعت الصحن على الطاولة، وانشغل الأستاذ نبيل بصبِّ القهوة في الفناجين وهو يقول:

ـ كم أنا سعيد برؤيتك بعد كلِّ هذه السنوات.

سعلت قبل أن تردّ: «. . . مبروك. . .».

ـ بالصحَّة والعافية. . . بارك الله فيك. ولكنْ اسمحي لي بملاحظة: كلمة مبروك خطأٌ شائع، وفيه دعاء على الشخص

وليس دعاءً له بالبركة. . . الكلمة الصحيحة هي بارك الله لك، أو باركك الله. . . مربَّى الكرز؟ يا سلام! أنتِ صنعته؟

ـ نعم. . . وين العروس؟

ـ العروس؟! تعالي يا عروس، هتف ضاحكًا.

استرقت النظر إلى البيت فيما استغرق الأستاذ نبيل بتحيَّة أحد العابرين في الزقاق، ودعوته إلى القهوة بحكم العادة لا الرغبة. لمحت في صدر الصالون مكتبةً، وصورة العرس فوق أحد الرفوف. مرور عفاف أغلق المشهد. عبرت العتبة حاملةً صحنًا من البقلاوة.

ـ يا أهلا يا أهلا بجارتنا الحلوة. . .

وقفت هيلانة فيما اقتربت عفاف لتضمّها، كأنَّها صديقةٌ قديمة. شكرتها على مربَّى الكرز وهي تقول: «جيرة الفلَّاح كلّها خير وبركة».

ـ مبروك. . . عفوًا. . . ببب. . باركك الله. . .

ـ أها. . . أحسنتِ. تلميذة نجيبة.

ـ ككيف البيت؟ سألت باختصار بعدما هبَّت نسمةٌ مفاجئة، ولفحتها رائحة الروث كإنذارٍ على اقتراب الفضيحة.

ـ أفضل البيوت يللي شفناها، ردَّت عفاف. منتمنَّى ما نتقِّل عليكم بوجودنا. . . تفضَّلي حلوينة العرس.

ـ لا أبدًا. . . أجابت وهي تسحب قطعة بقلاوة قد تعفيها من الكلام لدقائق.

ـ كيف صالح؟ سألها وهو يصبّ لها القهوة، ما شاء الله على نشاطه وهمَّته!

ـ الحمد لله. . . وغطَّت فمها، فآداب التحدُّث أثناء الأكل تُنقذها دائمًا من فخِّ الكلام.

ـ من واجبنا نزوركم. يمكن المسا أو بكرا، شو رأيك نبيل؟

ـ طبعًا. المهمّ أن يكون صالح موجودًا ومرتاحًا لاستقبالنا.

سعلت وهي تقول: «أهلًا وسهلًا».

ـ بالصحَّة والعافية. اشربي بعض الماء، وناولها الإبريق. قولي لي يا هيلانة، كيف الزواج معك؟. . . بسيطة يا عفاف. إنَّها تلميذتي. . . لا ضير من السؤال. . . إنَّها تلكزني.

ازدردت ريقها، وردَّت: «الحمد لله. . .».

ـ كانت من أفضل تلامذتي. . . ألا تشتاقين إلى المدرسة؟ لم يمرّ عليَّ أفضل منك. خسارة.

عفاف تلكزه من جديد، وتسارع إلى القول:

ـ ما في خسارة، ما شاء الله عليها. . . عندها بيتها وعيلتها هلَّق. . . لكلِّ مرحلة جمالها، مش هيك؟

ـ طبعًا. . . بـ. . . بيتي أهمّ شيء.

ـ ما زلت أذكر حكاية الأرنب والسلحفاة. نصّك هذا بالتحديد لم أنسه. استخلصتِ عبرةً مختلفةً تمامًا عن الحكاية الأصليَّة. أتذكرينها؟

ـ بحكيها لهبة ققق. . . قبل النوم. ردَّت وهي تُحدِّق بتفَّاحة

آدم. كانت تتحرَّك كلَّما بلع ريقه بين جملةٍ وأخرى كجوزةٍ في الماء.

ـ وشو هي العبرة؟ سألت عفاف.

ـ لا أذكر الكلمات حرفيًّا، قال، لكنَّ تحليلها أدهشني... كتبت ما معناه: صحيح أنَّ السلحفاة فازت بالسباق بالعزم والإرادة، والأرنب خسر لأنَّه متهوِّرٌ ومغرور، لكنَّ العبرة الحقيقيَّة هي أنَّ كلًّا منهما ظنَّ بأنَّ هذا السباق هو الوحيد الذي يثبت تفوُّقه على الآخر في حين أنَّ اختلافهما باقٍ إلى الأبد.

ـ الأرنب لن يصير سسسـ... سلحفاة... تمتمت هيلانة نادمة.

ـ ... والسلحفاة لن تصير أرنبًا. أكمل الأستاذ نبيل مثيرًا في قلب هيلانة الغضب نفسه عندما يقاطعها أحدٌ ليكمل جملتها.

ـ ... الاختلاف بينهما ليس سجنًا ولا قيدًا ولا عاهةً بل سمةً تمنح كلًّا منهما دورًا في الحفاظ على توازن الطبيعة، التوازن الضروريّ لاستمراريَّة الحياة.

تسمَّرت عينا هيلانة على فم الأستاذ نبيل، لكنَّ عفاف أيقظتها من شرودها حين صفَّقت يديْها بعدما فرغت من أكل البقلاوة، وراحت توزِّع نظراتها بين الحديقة والزقاق كأنَّها تبحث عن زائرٍ يخلِّصها من دروس الإنشاء. تنحنح الأستاذ نبيل وصبَّ فنجانًا آخر من القهوة، ومن غير أن ينظر إلى هيلانة، قال لها: «أتعلمين أنَّ أعظم الكتَّاب عانوا مثلك... من المشكلة نفسها؟»

قفزت هيلانة عن الكرسيّ وهي تهمس مختنقة: «هبة...

تبكي». . . وركضت على الدرج حاسمةً أمرها: لن تزورهما أبدًا. دخلت البيت وأهلكت نفسها في الغسيل والطبخ، ورفعت صوت الراديو كي يخرس صوت الأستاذ نبيل في رأسها. فجأةً، تركت كلّ ما في يدها وسحبت دفترها الصغير من تحت مرتبة السرير، وكتبت: «ما يعرفه الآخرون عنَّا يلتصق بوجوهنا وجلدنا وأنفاسنا. . . كالدبق. . من يعرفنا يسجننا في قالبٍ نهائيٍّ لا فكاك منه. . . يحجب عنَّا شمس ولادةٍ ثانية. لكلٍّ منَّا موته الخاصّ تمامًا كالولادة. . . لكنَّنا نموت كثيرًا ونحن أحياء! لماذا لا نولد أكثر من مرَّة؟ لو أنَّ الناس لا يعرفوني. . . لو أختفي الى مكانٍ لا يعرف أحدٌ فيه ماضيَّ، لاخترعت لنفسي شخصيَّةً بلا شوائب. . لادَّعيت أنَّني لا أتقن العربيَّة وأحاول تعلُّمها، حتى إذا تأتأت ظنُّوا أنِّي أتلعثم بكلماتٍ غريبةٍ عليَّ. لكنْ لا مفرّ. أنا عالقة هنا في هذه القرية البائسة، ولا مخرج لي سوى الهرب بخفَّة أرنب».

تعليق الأستاذ نبيل أعادها إلى السابعة من عمرها، عندما تحمَّست في إحدى الحصص الدراسيَّة ورفعت يدها لتُجيب على سؤال المعلِّمة. . يومها، أصابها خرسٌ متقطِّع. شيءٌ ما علق في حلقها. راحت تحرِّك فكَّيْها صعودًا ونزولًا. تشنَّجت ملامح وجهها، وتخشَّبت أطرافها. صعدت جمرةٌ حارقة من قلبها إلى خدَّيْها. جحظت عيناها. . فقدت السيطرة على حركة رموشها. يبست كتفاها. تعرَّقت يداها، فراحت بحركةٍ هستيريَّة تفتح غطاء المكتب الخشبيّ وتغلقه بقوَّةٍ علَّ الكلمات تخرج من معتقلها. لكنَّ الحروف كانت تكرج كما تهوي كتل الأحجار من جبل.

وووو. . . أأأأ. . . رررر. . . من قبض على صوتها؟ من أمسك بحباله وقطع عنه الهواء؟ ما هذا السجن المطوِّق بألف سورٍ، حنجرتها؟

لم تجد أمامها سوى الكذب لتنجو من التعبير الشفهيّ. لن تقف أمام كلّ التلاميذ والوحش على كتفيْها لتقرأ فقرة. . . لكنْ من أين تأتي بالأكاذيب، والجميع يعرف الجميع في ديرزوفا؟ كيف تقول إنَّ والدها الدركيّ لم يعد إلى البيت وأمضت الليل ساهرةً مع أختها بانتظاره فلم تستطع مراجعة الدرس؟ كيف تقول إنَّ أخاها ذهب مع رفاقه إلى الصيد ولم يعد؟ لا شيء سوى ادِّعاء المرض يمكن أن يطيل حبل الكذب. . . الحمَّى أرهقتها فلم تدرس. إسهالٌ حادّ أصابها فغفت باكرًا من الإعياء. عيناها أُصيبتا بحساسيَّةٍ غريبة فلم تعد قادرة على القراءة، وتحرص على فركهما طوال الحصَّة كدليلٍ على كذبها. . . لكنَّ الحبل بقي أقصر من أنشوطة الإعدام على خشبة التعبير الشفهيّ. كرهت كلّ المعلِّمات. وهنَّ أيضًا نبذنها كما يُنبذ كلّ كائنٍ يخلخل مسار العادات المألوفة في ديرزوفا. ومع ذلك، كانت تشعر أنَّها تنتقم منهنَّ كلَّما رأت ملامحهنَّ المرتبكة أمام تلميذةٍ تتعثَّر بلسانها، أو لعلَّها كانت تعزِّي نفسها بهذا الشعور لتخفي نقصها. لكنَّ هذا الانتصار الوهميّ كان يتبدَّد مع كلِّ عامٍ دراسيٍّ، فعلاماتها تتراجع، ومقعدها يتراجع إلى الصفوف الخلفيَّة حيث يجلس الكسالى من فئة «الطشّ» التي لا أمل يُرجى منها!

سألت كثيرًا عن سبب عاهتها. قيل لها إنَّ موت أمّها أثَّر عليها، فبدأت تتأتئ. قيل أيضًا إنَّ غياب والدها في مستشفى

ببيروت طوال فترة مرضه وموته المفاجىء سبَّبا لها كوابيسَ ليليَّة، فكانت تصرخ حتى أُصيبت بهذه العاهة. قيل أيضًا إنَّ إحدى المعلِّمات كانت تضربها على يدها اليسرى كلَّما أمسكت القلم وتجبرها على الكتابة باليد اليمنى، ممَّا سبب لها خللًا في الكلام! لم تفهم هيلانة هذا التحليل بالذات وما علاقة يدها بلسانها! وكم سألت عن اسم تلك المعلِّمة ولم يجبها أحد، أو قيل لها إنَّها تزوَّجت وغادرت القرية. لم تفكِّر ماذا ستقول أو ماذا تفعل لتلك المرأة التي كان لها الفضل ربَّما في تفوُّقها على كلِّ تلامذة الصفّ في الكتابة تعويضًا عن عجزها في الكلام. في منتصف الموسم الدراسيّ ـ وكان عمرها ثلاثة عشر عامًا، قرَّرت عدم الذهاب إلى المدرسة. اعتكفت في البيت سنتيْن كاملتيْن، ولم تجد أختها حلًّا إلَّا في تزويجها من أوَّل عريس يدقّ بابهم.

منذ تلك الزيارة اليتيمة لبيت عمِّها نجيب قبل ثلاث سنوات، لم تخرج من بيتها. إنَّها السبعينيَّات. ما همّ إن تغيَّرت ديرزوفا. هي ما تزال تتأتئ. وجدت في حياكة الصوف سبيلًا لها للاستغراق في الصمت أثناء وجود الضيوف.

كثيرًا ما خذلها السعال الذي لجأت إليه كلَّما تهدَّدها حرف. لم ينفعها التظاهر بالشردقة كلّ مرَّةٍ لتُعفى من الجواب. احتاجت إلى حيلةٍ أخرى. أصبحت تعرف أيّ الحروف تعاندها وتعلق في الحنجرة، فتستبدلها بأخرى. قرَّرت أن تُخصِّص لكلِّ حرفٍ يومًا وتتمرَّن على مرادفاته، حتى إذا اضطرَّت أن تقول: «رغيف»، قالت «خبز»، أو «ربيع» قالت «نيسان»، أو «رمّان» قالت «هيدي الشجرة». . . في يوم الألِف، تقول «بعد بكرا» بدل الأربعاء،

و«مرحبًا» بدل «أهلًا»، و«حماتي» بدل أمّ صالح.

حيلة الكلمات هذه تدرَّبت عليها كثيرًا، وتمسَّكت بها أكثر وطوَّرتها من أجل أن تعلِّمها لهبة فيما بعد. كلَّما شعرت أنَّ حرفًا لن يفلح في الإفلات من حبال صوتها لتنطق بالكلمة التي تريد، أردته قتيلًا يصارع أنفاسه الأخيرة، واختارت غيره بخفَّة ساحرٍ يحوِّل وشاحًا إلى حمامة. ما أرحم اللغة العربيَّة! ردَّدت لنفسها. مرادفاتها أغنى من حقول ديرزوفا. ومع ذلك، سيبقى كلامها شحيحًا، فرهاب التأتأة لن يغادرها، وسيقرع جدران قلبها عند كلِّ مواجهةٍ مع أحد. والأهمّ أنَّها لن تقوى أبدًا على قول ما تريد، بل ما يمكنها أن تقوله.

* * *

كلّ يوم أربعاء، تتولَّى هيلانة وحدها حَلْب البقرتيْن وتستريح من الخَبز. لا تعلم إلى اليوم أين تذهب أمّ صالح منتصف كلّ أسبوع. تغادر بعد صالح. لا شيء يختلف في لباسها الأسود سوى ذلك الوشاح الأبيض الذي تلفّ به رأسها. لم تجرؤ يومًا على سؤالها إلى أين تمضي كلّ يوم أربعاء. فعودتها تثير ريبةً أكبر. تلوذ إلى غرفتها لنصف ساعةٍ قبل أن تستعيد نمطها العاديّ. لكنَّها تكون أكثر حدَّةً مع بوصالح، ولا تطبخ سوى المجدَّرة. تخاف هيلانة من الوشاية بحماتها أمام صالح. لعلَّه هو الآخر لا يعلم إلى أين تذهب أمّه! أمَّا بوصالح فيشغل نفسه فوق العادة يوم الأربعاء، سواء في الاعتناء بالحديقة أو زيارة أخيه أو تعليم هبة التمييز بين أصوات العصافير. كثيرًا ما حاولت استدراجه إلى الكلام مستجمعةً قواها وكلّ الحروف التي تدرَّبت عليها لتسأله:

«قولك رح تتأخَّر أمّ صالح؟». . . أو «إن شا الله ترجع قبل الشتي». وكان سهلًا عليه أن يتجاهل أيّ سؤالٍ مستغرقًا فيما يفعل، متظاهرًا بالطرش.

اليوم تحديدًا لا تريد الانشغال بأمّ صالح ومشوارها الأسبوعيّ الغامض. أكثر ما تريد هو أن تشدّ الشمس من أطرافها كي تغيب، فيعود صالح باكرًا ويستعدّ لاستقبال الجيران. هذا المساء تريده أن يكون متحفِّزًا بمعوله وشاربيْه ويديْه ليحرث دروب الكلمات ويضلّ الأستاذ نبيل طريقه إلى ماضيها في المدرسة. كم تحقد على أستاذها الآن، وكم رغبت أن تنتزع جوزة حلقه بعد ملاحظته تلك! حتى لو كانت نيَّته التخفيف من معاناتها، فإنَّ ما قاله بدا أشدّ أذى من ذلك الدواء المرّ الذي كانت تجبرها فادية على تناوله فلا تقوى لا على بصقه ولا ابتلاعه! لا تذكر لماذا ومتى توقَّفت عن تناول هذا الدواء. . . ألأنَّه لم ينفعها؟ أم بسبب كرهها لطعمه؟

سمعت صوت الأستاذ. هرّ قلبها كقرص تين. مشت خلف صالح نحو الشرفة، تقلَّصت خلفه كسلحفاةٍ انسحبت إلى صَدَفتها. . .

كانت رائحة الروث تتصاعد من الحظيرة المتاخمة فيما تتكرَّر عبارات الترحيب المتبادل. تساءلت كيف لم تلحظ عفاف تلك الرائحة القاتلة، وماذا أعجبها في البيت لتقول إنَّه الأفضل في القرية؟ لم تسمح لعينيْها أن تلتفتا إلى جهة الأستاذ نبيل الذي سرعان ما انشغل مع صالح في الحديث عن العنب وطرق الاعتناء به. بدت لها عفاف مشتَّتةً، تسترق النظر إليها حين تدخل المطبخ

متذرِّعةً تارةً بنسيان صحنٍ وتارةً بجلب الماء، أو سكّين لتقطيع التفّاح أو لتفقُّد هبة! وحين قالت لها: «وين بنُّوتك؟ بدِّي شوفها»، سرت كهرباء حارقة في كلِّ جسمها. استعانت بيدها لتشير إليها بدخول البيت. قطعتا الرواق المؤدِّي إلى الغرف الموزَّعة على الجانبيْن. هيلانة تحبس أنفاسها. لم تتوقَّع هذه المواجهة، وحدها مع جارتها، من دون صالح، كمحاربٍ ضاع درعه... وصلتا إلى غرفة المعيشة. وقفت عفاف على الباب تتأمَّل هبة في سريرها، ثم اقتربت لتحملها. داعبت شعرها. أحنت رأسها لتقبِّلها على جبينها.

ـ شو طيِّبة ريحتك! قالت... بتشبهك كتير، مش هيك؟

ـ يمكن، أجابت هيلانة بصوتٍ خفيض، وتعاطفت فجأةً مع عفاف... فات الأوان عليها للإنجاب.

أعادت عفاف الطفلة إلى السرير. التفتت إلى هيلانة:

ـ متعبة الأمومة مش هيْك؟ خاصَّةً لبنت بعمرك!

تظاهرت هيلانة بترتيب الغطاء فوق هبة فيما عفاف تقول لها: «شوب. لشو الغطا؟»... هيلانة... بعرف إنَّك زعلت مبارح من نبيل. بس هو قصده خير. حبِّيت قلِّك هالشي لأنّ بعْتِبْرِك متل أختي الزغيرة.

في تلك الليلة، سهرت هيلانة على الشرفة وحدها. وفكَّرت بعفاف... هل ستكون أوَّل صديقةٍ لها في حياتها؟ صداقة تبنى على الشفقة أخبث من عداءٍ مكشوف. راحت تستعيد تفاصيل الزيارة. صورة الأستاذ نبيل وهو ينزل الدرج استقرَّت في ذهنها.

لماذا لم يشح بنظره عنها وهو يغادر؟ أم أنَّها واهمة؟ هل هذه طريقته في الاعتذار؟ ماذا لو كان الأستاذ نبيل رسولًا للرعد الذي يريد شفاءها من الصيف ومن عاهتها؟ وإلَّا ما تلك الصدفة التي جعلته جارها؟ أيعقل أن يأتي الخلاص على يد أستاذها فتصبح كالأرانب تقفز فوق فخاخ التأتأة وتنجو من العار؟ قد تستفيد من مكتبته، فتلخِّص كلّ كتابٍ في نصٍّ يرمِّم كبرياءها. قد يترك لها ملاحظة لتصحيح كلمةٍ أو فقرة... فتظفر به أستاذًا من جديد، وتسمع منه إطراءً ينسيها وينسيه عاهتها!

مكتبة
t.me/soramnqraa

كانت تتوقَّع من الأستاذ نبيل أن يعطيها كتبًا لأدباء يُقال عنهم في الراديو «مفخرة لبنان». لم تجد في مكتبة أستاذها أيّ كتابٍ يشبه كتب أخيها الذي يزورها مرَّةً كلّ شهر. التهام الكتب كان وحده قادرًا على محو ما يغزو عقلها من حكايات ديرزوفا... فكتب فريد تأخذها إلى عالمٍ قديم، وحضاراتٍ اندثرت، وإنسانٍ أوَّل! عالمٍ من الأساطير الغريبة والعجيبة، ولكنَّها تُفضي إلى معرفةٍ وفهمٍ ووعي... فيما كان كلّ ما يقال على ألسنة أهل ديرزوفا يفضي بها إلى عتمات الجهل، ويغرقها أكثر في دوَّامات الأسئلة.

سرعان ما بدأ أملها يخيب بعد كلِّ كتابٍ من جارها. كلَّما قرأت روايةً ولخَّصتها، أهمل الأستاذ نبيل قراءة نصّها وراح يتكلَّم على الحبِّ. لم تفهم لماذا قال لها: «ديرزوفا المفتوحة على الشمس والسهول الشاسعة، تدور حول نفسها ككرةٍ فالتة في

الفراغ لا تَخترق ولا تُخترق، لا تتقدَّم ولا تتراجع، لا تنمو ولا تتقلَّص.. ومن يعيشون عليها يتحرَّكون بحكم العادة فقط، ينتظرون ما لا يحدث... ينتظرون حبًّا أو حربًا».

خافت أكثر من الكتب. تلك الروايات راحت تسحبها إلى تهويماتٍ عن العشق الفاسد الذي يُفقد الحبّ رمزيَّته، وهدفه الأسمى في إخصاب الحياة. في أحد الأيَّام، قال لها الأستاذ نبيل: «الإنسان لا يحيا إلَّا عندما يبلغ تلك الذروة التي يتَّحد فيها الموت بالحياة. في الحبِّ كما في الحرب يُمتحن جوهر الإنسان».

تاهت في كلامه، ولكنَّها لم تفهم لماذا يقرأ لها أشعار نزار قبَّاني وهي تحبّ المتنبِّي! لماذا يهمل النصوص التي تكتبها بكلِّ جوارحها، وتفوق بحكمتها عبرة الأرنب والسلحفاة؟ كم تمنَّت لو قرأ تعليقها على رواية آنَّا كارينينا: «الطريق إلى الجحيم مفروشٌ بالنوايا الحسنة». كرهت هذه الرواية التي تُبرِّر الخيانة كما يبرِّر هو غزليَّات نزار.

تذرَّعت بانشغالها في المؤونة حين توقَّفت عن استعارة الكتب. شعرت أنَّ خللًا ما أصاب علاقة الأستاذ بتلميذته. بعض النيَّات ليس بريئًا مثل نيَّتها في إخفاء عاهتها. الشعر والأدب غطاءٌ لقلَّة الأدب! خافت على عفاف وعلى نفسها من رجلٍ ينمِّق كلماته سطرًا سطرًا كما يسرِّح شعره من دون خلل.

لن تسمح للروايات أن تجرّها إلى العار، تكفيها عاهة التأتأة. تعلم تمامًا أنَّ سمعة «أمّ البنات» في القرية أهمّ من سمعة

رئيس البلديَّة والمختار. «في نسوان بترفع الراس، مثل أمّك وأمّ عادل»، قال لها صالح مرَّةً عندما شاركته استغرابها من سيرة نساء ديرزوفا. لا بدَّ أن تزور صديقة أمّها الوحيدة، أمّ عادل. ولن تفرِّط بهذه السمعة التي سحبتها لأوَّل مرَّةٍ من زقاق المهمَّشين إلى صفوة النساء. مثل سيرة أمّ عادل، لا أحد من زوَّار حمويْها يأتي على ذكر أمّها سوى بالترحُّم عليها من باب الأدب فقط. لكنَّ اللعنات وحبل النميمة تطول على تلك المرأة الغريبة التي تزوَّجها صاحب الدكَّان الأقدم في القرية. لم تنسَ إلى اليوم القصص التي تناقلها أهل ديرزوفا على مدى سنواتٍ عن نادية الصهباء، التي «لعبت بعقل جورج» وهو على مشارف الخمسين. مطلَّقة ولديْها ابنة في العشرين. يُقال إنَّها تنافس ابنتها على شبابها. سمعت أنَّ فساتينها مزركشة. صدرها نافر. في أذنيْها قرطانٌ ذهبيَّان، لشدَّة ثقلهما ارتخى ثقبا الأذنيْن أكثر. في معصميها أساور كتلك التي ترتديها الراقصات. قيل إنَّها تدخِّن، وسجائرها باهظة الثمن، وتستخدم مبسمًا رفيعًا كالغليون فتبرز السيجارة أطول من حجمها العاديّ.

احتلَّت نادية دكَّان زوجها جورج، وأقصته عن التعامل مع التجَّار، وأخفت عنه دفتر الحسابات. لم يعرف ما له وما عليه. كان يجلس معها حول الطاولة نفسها، ويترك لها حرِّيَّة التفاوض مع التجَّار والزبائن. كان شديد الإعجاب بها، فقد حوَّلت الدكَّان إلى محلٍّ للغرائب، وعبَّأته ببضائعَ لم يرَ مثلها أهل القرية من قبل.

كلّهم قالوا إنَّ بينها وبين التجَّار حكاياتٍ مريبة. كلّهم شكُّوا

أنَّ جورج يعرف سرَّها ولا يبالي. كثرٌ تمنَّوا لو أنَّه بقي عازبًا ولم يجلب لنفسه الخزي بزواجه من تلك «المرأة القويَّة». لم ينسوا قصَّته مع حبُّوبة، جارته المتزوِّجة التي أنجبت ولدًا طبق الأصل عنه.. . لكنَّهم الآن يرتابون من أن يكون سلوكه مع ابنة نادية، كسلوك نادية مع التجَّار!

ما كان يتهامس به أهل القرية في الخفاء، كان يصلها في الماضي فلا تعبأ به لأنَّ مصيبتها أكبر. سمعتهم يعزُّون أنفسهم بالقول إنَّ لكلِّ قريةٍ سمةً لا تشرِّف أهلها. فإحدى القرى لا يُنصح بشرب مائها لأنَّها تصيب شاربها بالعُته، وأخرى يتجنَّب كلّ أهالي المنطقة التعاطي مع سكَّانها لأنَّ «جبلّتهم ثقيلة»، لا يضحكون للرغيف الساخن، وأخرى يتَّصف أهلها بالبخل الشديد فيكرهون «الضيف وزوَّادته معه»! كيف لا يرون أنَّ وصمة ديرزوفا أخطر بكثيرٍ من كلِّ سمات القرى المجاورة؟ نساؤها لا يتورَّعن عن إطلاق الشتائم في العلن. ألفاظهنّ النابية كهيئتهنَّ لم تترك رجلًا على رجولته، وأطفالهنَّ مشكوكٌ بنسبهم.

نساء ديرزوفا لسن أكثر سوءًا من النساء في كتب الأستاذ نبيل. لكنَّ أسلوب الروايات يجمِّل البشاعات. يبرِّرها. ويدرِّب القارئ على التعايش مع العار حتى قبوله بالكامل. أهل قريتها أُمِّيُّون بغالبيَّتهم. لم يقرأوا أنَّا كارنينا! من أين لهم تلك القدرة على استهجان العار والتعايش معه في آن؟ هل حاولت إحدى النساء الفاضلات إصلاح نادية الصهباء وردعها عن الخطأ؟ ماذا عن المختار؟ أليس حكيم الحكماء في القرى، المسؤول عن إرشاد الناس إلى الصواب وحمايتهم من أيِّ اعتداءٍ على كراماتهم؟

عندما قرَّرت هيلانة زيارة خالتها الوحيدة إلماز، أرادت أن تفكّ لغز ديرزوفا مع العار. صحيحٌ أنَّ زوج خالتها المختار مات بلا وريثٍ لمنصبه، وانتقلت «المخترة» إلى بيتٍ آخر، لكنْ لا بدَّ أنَّ إلماز تعرف كلّ شاردةٍ وواردة عن نساء ديرزوفا ورجالها وأطفالها من قبل الاستقلال! على بعد خطوات من بيت صالح، تعيش إلماز من ماكينة الخياطة. الشلل في ساقها اليسرى لم يمنعها من مزاولة هذه المهنة التي تُبقي بيتها مفتوحًا لكلِّ الناس، وتُبقي ذكرى المختار حيَّةً على الألسن إن لم تكن في القلوب.

عندما اقتربت هيلانة من بيت إلماز، تذكَّرت كم أحبَّت هذا البيت في صغرها! رائحة النظافة تفوح من كلِّ أرجائه. كنبات على جانبَي الدار مغطَّاةٌ بشراشفَ بيضاء مطرَّزةٍ بالدانتيلة. كلّ أواني الزينة على الطاولات موزَّعةٌ بشكلٍ أنيق ولا يعلوها غبار.

من خلف ماكينة الخياطة، لاح وجه إلماز الأبيض. عيناها السوداوان اتَّسعتا عند رؤية ابنة أختها. حاولت أن تسرع في الوقوف لاستقبالها. أثنتها هيلانة وسارعت إلى معانقتها. لم تعرف إلى الآن لماذا تفوح من خالتها رائحة اليانسون، ولماذا لم تنجب! استوت إلماز في كرسيِّها، وتركت قطعة القماش من يدها.

ـ يا حبيبتي يا تقبريني... زمان كثير ما شفت وجك الحلو. كيف أحوالك؟ شو عدا ما بدا؟

ـ اشتقتلك يا خالتي... ببتعرفي... هموم البيت والعععيلة.

ـ بعرف حبيبتي، ما بعتب بس بشتاق. الدرج مشكلة بالنسبة إلي وإلّا كنت زرتك كلّ يوم.

ـ تتعيشي يا خالتي... إن شاء الله مش ععمم تتعبي؟

ـ الحمد لله، طالما النسوان بدها تلبس وتتغندر أنا بخير. الشغل بيجوهر.

ـ ععندك طلبيّات كثير؟

ـ جايي عيد السيِّدة وبتعرفي... كلّ واحدة بدها تلبس أحلى من التانية.

أرادت أن تسأل خالتها عن سبب استمرارها في العمل طالما أنَّ راتب المختار مستمرٌّ بعد موته. ألا يكفيها؟ وإلى ماذا تحتاج إذا كانت لا تعيل أحدًا؟.. أم أنَّ تلك الماكينة الأعتق من عمرها تغرز عين الزمن وتطرِّز أطراف السنين بخيوط الألفة؟

لكنْ ما سردته لها إلماز جعلها تشرد لساعاتٍ في أخبارٍ عجيبةٍ عن نساء ديرزوفا، وكانت رائحة الروث تطفح مع كلِّ حكاية فتشمئزّ أكثر. تلك التي تضرب لعشيقها مواعيدَ قرب النبع عند الغروب، رآها الناس شبه عارية. وتلك التي يزورها رجالٌ من الجبل المتاخم للقرية كلَّما خرج زوجها سائق البوسطة في رحلاته اليوميَّة إلى بيروت. وتلك التي ضبطتها ابنتها في السرير مع زوجها، فاختفت من القرية. وتلك التي هربت مع بائع أقمشةٍ يصغرها بعشرة أعوام، وشوهدت آخر مرَّةٍ في إحدى بلدات المنطقة تبيع الخضار على الرصيف. وتلك التي اتَّهمها زوجها بوضع سمِّ الفئران في شوربة العدس لتتخلَّص منه...

لم تجد هيلانة عند خالتها أجوبةً على أسئلتها. هل الملل دفع تلك النسوة إلى ارتكاب المعاصي؟ ما الذي يرضي غرورهنَّ أكثر من السمعة الطيِّبة؟ ما الذي يجعل المرأة لا تخشى نظرات الناس وأصابعهم المصوَّبة إليها كرماحٍ قاتلة؟ ولماذا نساء ديرزوفا دون كلّ النساء في القرى الأخرى موصوماتٍ بالعار؟

حاولت أن تفكّر بكلٍّ قصَّةٍ على حدة. هل الزواج من دون حبٍّ مقدِّمة للخيانة؟ تصاعدت خفقات قلبها على وقع هذا السؤال. رأت نفسها على طريق أولئك النسوة... بماذا تختلف عنهنَّ سوى أنَّها لم تسقط بعد في المعصية؟ أليس مجرَّد التفكير بالخيانة، خيانة؟ هي حتمًا خائنة بمجرَّد أنَّها تركت الأستاذ نبيل يسترسل في كلامه الشاعريّ. ماذا لو أمسك بيدها مرَّةً؟ ماذا لو حاول تقبيلها؟ هي الآن متلبِّسة بالخيانة حتى النخاع... قد لا تفكِّر في تلك اللحظة لا في صالح ولا في ابنتها ولا في عفاف. لكنْ لماذا؟ ألأنَّها لم تختبر الحبّ من قبل؟ ألأنَّها ناقصة؟ ولماذا لا يظهر الحبّ إلَّا غدرًا؟ وما الذي يجعل الإنسان مستعدًّا للتخلِّي عن حياته كلّها ليظفر بلحظة عناقٍ ممنوع؟ لو كان لحياته معنى حقيقيّ لما جازف بها. فكَّرت بحياتها مع صالح. مرَّت أكثر من خمس سنوات وهي معه. هل حاولت ما يكفي لتكون معه بكلِّيَّتها أم أنَّها تعاملت مع نفسها كأنَّها قطعة أرضٍ بيعت له؟ كأنَّها حقيبةٌ نُقلت من بيتٍ إلى بيت؟ هل التأتأة التي أبقتها لسنواتٍ بعيدةً عن العيون، حمتها حتى الآن من عدوى نساء ديرزوفا؟

عندما حلَّ المساء، كانت هيلانة شبه مريضةٍ لشدَّة ما فكَّرت وبحثت عبثًا عن أجوبة. ليتها بقيت في حالها ولم تعبث بالجمر

تحت رماد ديرزوفا. فات الأوان الآن، ولا عودة إلى ما قبل زيارتها لإلماز. مع دخول صالح، قفزت عيناها إليه كأنَّها تراه لأوَّل مرَّة. هُرعت لتُحضر الطشت وتغسل له قدميْه. قرفصت أمامه. غمست يديها في الماء المغلي. حرَّكته لتذوِّب الملح الخشن. كانت الأفكار تدور في رأسها مع دوران الملح في الماء. هذا الطقس اليوميّ المستمرّ منذ سنوات يجب أن يتغيَّر. سمعت صوتها يقول لها: «نشكو من الرتابة فيما نركن إلى عاداتنا، فتقتلنا بدل أن نقتلها». فكَّرت أن تبتكر لهذا الطقس إيقاعًا مختلفًا.

ـ كيف كان نهارك؟ سألته مقلِّدةً نبرة المذيعات، ورفعت قدمه لتضعها في الماء.

لم يسمعها. كرَّرت السؤال وهي تلامس أصابعه... تمتم: متل العادة...

ـ رح قصِّلك ضفيرك بعد الغسيل... شو رأيك؟

ـ تتعذبيش...

جلست على الأرض لتحكم فرك قدميْه. كانت قد سمعت على الراديو أنَّ تدليك القدميْن يساعد الجسم على الاسترخاء. تريده مسترخيًا على غير عادته. تريده أن يعترف لها بكلِّ شيء. لماذا تزوَّجها؟ وكيف يتعايش مع عاهتها؟ وهل يزعجه حين تناديه «بوهبة»؟ ما سبب هذا الأسى في عينيْه؟ أهو انتظاره المكتوم ليكون أبا رؤوف، كما يصرُّ الجميع على مناداته حتى بعد ولادة هبة؟ أم عبء الحقول والفلاحة وتصريف الغلال التي يتولَّاها

وحده منذ كان في العشرين من عمره؟

رفعت الماء إلى ساقيْه في حركةٍ منتظمة، وشردت في الصوت الكارج إلى الطشت، المتغيِّر مع إيقاع يدها. تمنَّت لو تنساب كلماتها بهذا الدفق. مسَّدت ساقيْه صعودًا ونزولًا. حطبتان. أحسَّت بعضلات ربلتيْه تحت أصابعها... مشوار يديْها ذكَّرها بذهابه وعودته من وإلى الحقل. صوتها من جديد: «أن نقصد الطريق نفسه كلّ يومٍ لا يعني أنَّنا لا نتغيَّر». رفعت نظرها إليه فرأته شاردًا، مستسلمًا ليديْها. في عينيْه حقولٌ بعيدة! أهكذا كان يشرد كلّ مرَّة؟ لم تنظر إليه قبل اليوم لتعرف الجواب. كان غسيل القدميْن من الواجبات التي تقوم بها بشكلٍ آليٍّ، وتستعجل لتنهي المهمَّة بأقلِّ احتكاكٍ ممكن.

ـ افركي بعد... تمتم.

ـ صالح... عندي سؤال.

ـ ها، قولي.

ـ ما تستغربش. بعرفش... بس خطر لي إسألك.

ـ اسألي بلا لفّ ودوران.

ـ ليش تزوَّجتني؟ شفتني قبل؟

ـ كنت شوفك وأنا راجع من البستان... بتتذكَّريش؟

ـ طيِّب. شو عجبك فيّ؟

ـ شو خطرْلِكْ هلَّق؟

ـ بعرفش... وولا مرَّة قلتلِّي. التأتأة تطلّ برأسها...

عادت لتتقمَّص صوت المذيعات. وبدلعٍ سألته: ليش تزوَّجتني أنا، مش أيّ بنت تانية بالضيعة؟

ـ أيّ بنت تانية... كرَّر مرخيًا رأسه على الكنبة.

اقتربت منه، ورقَّت أهدابها كما صوتها...

ـ يعني حبَّيتني؟ قلّي... حبَّيتني؟

ـ إيه...

ـ كككيف؟ احكيلي.

ـ مثل هالمرجوحة... مرجحتني الأرض لمَّا شفتك.

ـ وهلَّق؟ بتحبّني؟

ـ أكيد، شو هي نزلة برد؟

ـ ليش مممما بتقلّلي؟

ـ لازم تعرفي وحدك.

ـ إإإذا بتقلّلي أحلى... طيِّب. ليش بتسألنيش إذا أنا ببحبّك؟

ـ بتعرفيش هيداك المتل؟ قال: «حبني بعطيك جحش. قللو: المحبَّة بتصرش دحش»...

ـ معقول يا صالح؟ هيك بتجاوبني؟

ـ المحبَّة بتصرش دحش.

ـ مممما بيهمك إنُّو مرتك تحبّك؟... بيقولوا المرا مثل الأرض ببتعطيك قد ما بتعطيها.

ـ المرا مثل الأرض والسماء والنهر والمطر... وكمان

الرجَّال. جبل وصخر وبرق ورعد وسيف ورمح. وشو ما بدِّك...

كما في كلِّ مرَّةٍ، ندمت على ما لم تقله. أرادت أن تسأله إن بقي يحبّها بعدما عرف أنَّها تتأتئ، أن تجرّه ليتحدَّث عن أحلامه، عن طفلٍ يحمل اسم أبيه... وأكثر ما أرادته هو أن تخبره كم هي نادمة على اللجوء إلى كتب الأستاذ نبيل، وكم توهَّمت أنَّ جارها سيخلِّصها من عاهة التأتأة لتصبح زوجةً «ترفع الراس» بلسانها الطليق والمثقَّف. وعندها فقط تستحقّ أن تنجب له رؤوف... كلّ تلك الأفكار التي راودتها قبل قليل لتشاركها مع صالحٍ تبدَّدت مع عتمة الليل، ولا شيء سوى عواء الكلاب الضالَّة يرافق حزنها. «الرجل جبل وصخر وبرق ورعد»... «مرجحتني الأرض لمَّا شفتك»... أغمضت عينيْها وهي أكثر قناعةً من أيِّ وقتٍ مضى أنَّها لن تستحقّ يومًا حبّ فلَّاحٍ شاعر.

«ليش عم بتصرِّخي عالبنت؟»، قال لها بو صالح قبل أن يحمل هبة ويخرج بها من المطبخ. هيلانة تقف كصفصافة! كيف تُفهمه أنَّها لم تنم مساء أمس، وأنَّ صراخها على هبة ليس إلَّا بسبب كابوسٍ فظيعٍ دهم غفوتها على الأرجوحة، فصحت متجمِّدة من الخوف.. لا تتذكَّر كيف وصلت إلى سريرها وانسلَّت فيه بالقرب من صالح.. لكنَّ الكابوس عاد ليرتسم من جديد حالما أغمضت عينيْها.

رأت هبة مرسومةً على لوحٍ حجريّ في نسختيْن متطابقتيْن، كأنَّ لها توأمًا. رأسها فوق قدم الأخرى. ذراعها على صدر الأخرى. عينها فوق أذن الأخرى. هبة ونسختها... توزَّعت أعضاؤهما على اللوح الحجريّ. الدم يسيل من عيونهما. قهقهات تتعالى. الضوء ساطعٌ فوق اللوح. حوله ترفل أفاعٍ، تمدّ ألسنتها وتلعق الحجر.. تستيقظ هيلانة مذعورةً عندما تطال الألسن وجه

هبة ووجه توأمها. تصرخ: «لن تنجوَ من عاري»... صالح يهزّها لتصحو. تفتح عينيْها وتتعمشق به. عرقها يبلِّله. يناولها إبريق الماء. فمها أقسى من الحجر. تنهض لتتفقَّد هبة في سريرها. إنَّها كاملة. على الأقلِّ وهي نائمة.. ما معنى هذا الكابوس؟ هل ستنجب فتاةً أخرى؟ أم أنَّ في نسخة هبة على اللوح الحجريّ صورةً طبق الأصل عن هيلانة التأتوءة؟!

بسبب هذا الكابوس، لم تحتمل رؤية طفلتها وهي تراقص دميتها في الصباح. سحبت الدمية من يدها ورمتها في سلَّة القمامة وصرخت: «اللِّعَب ممنوعة بهالبيت»!

وكانت هيلانة نبَّهت فادية ألف مرَّةٍ ألَّا ترسل الدمى. وكلَّما وصلها صندوق من بيروت وجدت في داخله دمًى بأحجام وأشكالٍ مختلفة. في المرَّة الأخيرة التي خرجت لملاقاة البوسطة واستلام صندوقٍ من عند فادية، فتحته قبل أن تصل البيت. أخرجت منه دميتيْن، وأعطتهما لمريم.

هبة تبكي الآن. وبوصالح إلى جانبها يدمدم ويدعو لهيلانة بالهداية وراحة البال. حاولت أمّ صالح أن تتدخَّل: «اتركها تربِّي بنتها متل ما بدَّها». فأجابها غاضبًا: «الكلّ يحكي ما عداكِ».

حالة التوتُّر التي سادت البيت دفعت بهيلانة إلى المغادرة لمهمَّةٍ أوصاها بها صالح. كان قد أبلغها بالأمس أنَّ فريد مريض، ولم يعطها تفاصيل أكثر سوى أنَّه صادفه في طريقه إلى الحقل عائدًا من عيادة طبيب الضيعة. نزلت بهبة إلى بيت عفاف. فوجئت بجارتها في الدار تتأمَّل فنجان قهوتها. «فنجاني مش منيح

اليوم. . . في خبر عاطل بعد إشارتيْن».

تركت هبة في عهدة عفاف، ومشت باتِّجاه بيت أهلها. تساءلت إنْ كانت جارتها تقرأ أيضًا في فنجان الأستاذ نبيل أمْ أنَّها تستغلّ غيابه لتمارس هذه العادة التي تشاركها فيها نصف نساء ديرزوفا. لا بدَّ أنَّ الأستاذ حاضَر فيها أكثر من مرَّة، ولعلَّه اتَّهمها بالجهل والتخلُّف لإيمانها بأنَّ الخطوط التي يرسمها تفل القهوة ترسم معالم المستقبل! ماذا تتوقَّع عفاف من المستقبل إن كانت لن تنجب؟

استأنست لتلك الأفكار، لأنَّها شغلتها للحظاتٍ عن قلقها من مصادفة أحدٍ في الطريق، واضطرارها للتحدُّث معه. لكنَّها تنبَّهت أنَّها لم تأخذ القادوميَّة التي كانت تحميها في صغرها من هاجس أغنية التأتأة. فالأزقَّة التي لا تتَّسع إلَّا لشخصٍ واحد كانت سبيلها لاستكشاف بيوت ديرزوفا وعائلاتها. . . من تلك القادوميَّة التي كانت تسلكها خاصَّةً أيَّام الثلج والعواصف، تعرَّفت على ديرزوفا الفوقا حيث يسكن «أولاد الحكومة» كما يسمِّيهم بوصالح. بيوتٌ مفتوحة على المدى، مكسوَّةٌ بالحجر الأصفر أو الأبيض. لا روث ولا ذباب حولها! لكنَّ الوصول إليها يتطلَّب بذل جهودٍ مضنية لسلوك طرقٍ عموديَّةٍ تقطع الأنفاس عند صعودها، وتعرِّض من يؤوبون منها لخطر الانزلاق. أهل ديرزوفا لا يتوانون عن سلوك تلك الطرق، لأنَّ في زيارة «أولاد الحكومة» مكسبًا دائمًا. من دخل تلك البيوت عاد ليُخبر عن غرفها التي تتَّسع كلّ واحدةٍ منها لسبع عائلات، وعن التحف التي تزداد من صيفٍ إلى صيف لتملأ الجدران والزوايا والشرفات. . . الحارة الفوقا مهجورةٌ

بالكامل أيَّام الشتاء. يعتني بحدائقها بعض المزارعين من سكَّان الحارة التحتا. «فأولاد الحكومة» لا يأتون إلَّا في الصيف أو لقضاء واجب التعزية في الشتاء إذا لم تنقطع الطرقات بين القرية وبيروت بسبب تراكم الثلوج. أمَّا الحارة التحتا فلم تكن غريبةً على هيلانة حين عبرت أزقَّتها. هنا يسكن «أولاد الأرض»، الفلَّاحون، إلى جانب أصحاب الدكاكين الصغيرة، قانعين بكفاف يومهم، يحرسهم ديرٌ عتيقٌ سُمِّيت القرية باسمه. فحدائقه ملآى بزهور الزوفا، تلك العشبة السحريَّة التي ذُكرت في الكتاب المقدَّس، وتُشفي من كلِّ الأمراض. الهيكل الخارجيّ لكلِّ البيوت في الحارة التحتا متشابه، عارٍ من الحجر الذي يزيِّن بيوت «أولاد الحكومة»، ونادرًا ما يتمّ تلوينه بطبقةٍ واحدةٍ من الدّهان لا تخفي لون الباطون ولا تجمِّل منظر البيت. هنا تتلاصق البيوت وتتباعد القلوب بين أهل الحارة الواحدة، بل بين أهل العائلة الواحدة. لكلِّ عائلةٍ مجموعةٌ من البيوت التي عمَّرها الأجداد، متراصَّة ولا يفصل بينها سوى جدارٍ أو دكَّان... كم سمعت عن أولاد عمٍّ تخاصموا على قطعة أرضٍ وانقطعت الزيارات بينهم في الأفراح والأتراح! وكم من إخوةٍ رفعت زوجاتهم أسوار الحسد بينهم، ولم تفلح جهود المختار في تطعيم شجرة العائلة ببراعم المودَّة.

فكَّرت هيلانة أن تغيِّر مسارها، وتختصر الطريق إلى بيت أهلها، عندما لمحت أطياف بشرٍ تقترب منها. لم تجد أيّ زقاقٍ يفضي إلى القادوميَّة. ستستلّ حيلة الكلمات... ماذا لو صادفت أحد الشبَّان ممَّن كان يغنُّون لها أغنية التأتأة؟ اقتربت من مطعم

بودقَّة الذي يتجمَّع فيه فتيان ديرزوفا على مدار اليوم.

المطعم مقفل. لا بدَّ أنَّ بودقَّة يرتاح في بيته استعدادًا للمساء عندما يعجّ المطعم بالشباب طلبًا للفلافل وعرائس المرتديلّا. كم سمعت عن مهارة بودقَّة في صنع أطيب عروس مرتديلّا في المنطقة! هذا الرجل الذي قُطعت يده أثناء إعداده مؤونة الحطب للشتاء، تمرَّس في لفِّ أرغفة الخبز بيدٍ واحدة مستعينًا بذراع يده المقطوعة، مقدِّمًا كلّ مرَّةٍ مشهدًا ساحرًا لروَّاد المطعم! قالت لنفسها مرارًا إنَّ فقدان يدٍ يقوِّي اليد الأخرى، وشلل قدمٍ يعوِّضه عكَّاز، كحال خالتها إلماز... أمَّا اللسان!! فأيّ عضوٍ يحلّ محلَّه إذا تضرَّر!؟ اللسان كالقلب، إذا توقَّف أو أصبح عليلًا فقد الإنسان حضوره، كيانه وحياته.

ألحَّت عليها تلك الأفكار وهي تسير بمحاذاة البيوت في ساحة القرية. كلّ مَن في الدكاكين، والملحمة، مشغولٌ بشؤونه ولا يلتفت إلى الطريق. سمعتْ قهقهاتٍ أمام دكَّان جورج، نظرت بطرف عينها فلمحت نادية الصهباء واقفةً مع أحد التجَّار وهو يُنزل من شاحنته بعض البضائع. تمسَّكت بالأكياس ورفعتها قليلًا لتخفي وجهها، وتسرع في المشي قبل أن يلحظها أحدٌ منهم. كانت إحدى الفتيات تقف أمام دكَّان بوالياس الذي يشتري منه بوصالح كلّ لوازم البيت، وكلَّما عاد من عنده كفر ولعن الساعة التي أرزق الله فيها أولادًا لمن لا يستحقُّون! بوالياس أخرج كلّ بناته وأولاده من المدرسة لقناعته أنَّ المادَّة الوحيدة التي يحتاجونها للمستقبل هي الحساب، ولا أحد أفضل منه في تعليمهم أصول الضرب والطرح والجمع، فبالبخل وحده يكون

الدخل. لعلَّ تلك البنت الواقفة أمام الدكَّان إحدى بناته. تبدو أكبر من الشجرة التي تستند إليها.

لفحتها نسائمُ خفيفةٌ حرَّكت الأشجار على تخوم الزقاق. عرفتْ أنَّها مرَّت من أمام بيت أمّ عادل. لو كان هذا البيت أقرب إلى ساحة القرية لصادفت صديقة أمّها على عتبته، واضطرَّت إلى السلام والكلام! بدأت الطريق نحو التلَّة تظهر أمامها. تساءلت أين رآها صالح، في أيِّ مكانٍ تحديدًا تمرجحت به الأرض؟ هل كانت في مريول المدرسة؟ هل كانت تمطر؟ لعلَّه استند إلى تلك الزيزفونة على مفترق التلَّة عندما رآها، أو أنَّه استعان ببغلته ليشدّ همَّته بعدما مرجحته الأرض. لا تذكر أين قرأت أنَّ لكلِّ حبٍّ مكانًا محدَّدًا، رائحةً خاصَّة، لحظةً يتجمَّد فيها كلّ شيءٍ ولا يُسمع إلَّا خفق أجنحةٍ ورعشة خوفٍ كمن يدنو من الموت. سمعتْ صوتها يردِّد أفكارها: «لكلِّ حبٍّ نقطة بداية نصغر أمامها، ويصبح المعشوق كوكبًا كاملًا ندور حوله حتى الهذيان. لكنْ، لماذا يعود كلّ شيءٍ إلى مكانه بعد تلك النقطة؟... كيف نتوازن بعدما مادت بنا الأرض؟» صالح قال إنَّه ما زال يحبُّها. لكنَّها سمعتْ بقيَّة عبارته في رأسها: «حتى لمَّا عرفت إنَّك بتأتئي». قد تعيش العمر كلّه معه من غير أن تجرؤ على سؤاله. إذا كانت لم تجرؤ حتى الآن على التحدُّث عن عاهتها مع من هم من لحمها ودمها، فسيبقى سؤالها معلَّقًا كتلك الراية التي تلوح أمام بيت أهلها. رايةٌ سوداء منصوبةٌ على البوَّابة الخضراء للبيت يتوسَّطها شيءٌ أحمر... شيءٌ دائريٌّ بأربع زوايا حادَّة. استغربت وجود هذا العلم، كما استغربت غياب ملامحَ كثيرةٍ في الطريق إلى البيت.

وقفت أكثر من مرَّةٍ لتضع الأكياس على الأرض وتستريح من صعود التلَّة. تأمَّلت بيت أهلهاالرابض على طرف القرية. والدها رئيف مالك، ابن حكومة أيضًا لكنَّه من سلالة الفلّاحين. وحين قرَّر الانضمام إلى سلك الدرك، توسَّط أبوه لرئيس البلديَّة الذي توسَّط بدوره لوجهاء ديرزوفا في الحارة الفوقا ليتوسَّطوا بدورهم لأصحاب المناصب العليا في الدوائر الرسميَّة ببيروت... ومع ذلك، اختار بناء بيتٍ في «تلَّة الواوي» التي يتفادى الجميع المرور بها. لم يسكن بالقرب من أخيه نجيب، ولا في الحارة الفوقا.

تذكَّرتْ يوم أخبرها صالح عن إعجابه الشديد بأبيها الذي سامح والده على حرمانه من الإرث بعدما قرَّر الزواج من أمِّها. استغربت كيف يعرف صالح كلّ تاريخ عائلتها، وكيف غابت عنها تفاصيل الخلافات التي وسمت علاقة أبيها بأخيه الوحيد نجيب.

كانت خطاها تتباطأ وهي تحاول استعادة كلام صالح، كما تستعاد عبارات من كتابٍ ممتع... ذنب أبيها أنَّه أحبَّ فاتن ابنة الأرملة السوريَّة التي التجأت مع ابنتيْها إلى ديرزوفا، بعدما قُتل زوجها في معارك في سوريا ولبنان ضدَّ الاحتلاليْن البريطانيّ والفرنسيّ. من الخياطة وحياكة الكروشيه، استطاعت الأمّ الأرملة ثريَّا أن تتدبَّر أمورها وتوفِّر لفاتن وإلماز حياةً كريمةً تليق بابنتَيْ مناضل. رفضت كلّ من تقدَّم للزواج بها. وآخرهم كان والد رئيف، أي جدّ هيلانة. ولمَّا دارت الأيَّام وتقدَّم رئيف للزواج من ابنة ثريَّا، فاتن، «كاسرًا كلمة أبيه»، حرمه الأخير من حقِّه في الأراضي القليلة التي يملكها، فانتقلت جميعها إلى ابنه الأصغر نجيب الذي تضامن بطبيعة الحال مع والده، وقاطع أخاه.

عندما وصلت أخيرًا، وتخفَّفت من أحمالها، كان باب البيت مغلقًا على عكس بيوت ديرزوفا، بلا مفتاحٍ في القفل الخارجيّ. قرعت وحدَّقت عبر الزجاج المتحجِّر لشبَّاك الباب، فلمحت أطيافًا تتحرَّك. سمعت صرير باب. قرعت مجدَّدًا ولم تسمع صوت فريد، ولم ترَ طيفه يقترب... بعد كلام إلماز، ساورها شكٌّ بأنَّ سبب بقاء أخيها في البيت وإحجامه عن التواصل مع أهل القرية، وبقائه عازبًا وقد تجاوز الثلاثين، هو ازدراؤه للنساء. كم تتمنَّى أن يفتح لها قلبه اليوم ويشاركها سرّه!

جلست على كرسيٍّ في الشرفة، تنتظر أن يُفتح الباب. نظرت إلى السهل. كم تغيَّر وزادت مساحاته الزراعيَّة! تذكَّرت أنَّ بئرًا كانت تتَّكئ على جدار الشرفة، ونسيت متى هدمها والدها. قطع فريد شرودها حين فتح الباب.

ـ ختيرتِ يا أختي؟... عم تلهثي من الطريق؟

ـ ... مع أنَّها أكلت شقفة من إجري!

ـ خير... مش بالعادة تزورينا! شو هيدول؟

ـ سسسسمعت إنَّك مممريض... شويَّة ففواكه من السهل...

لمحت طيف شخصٍ يركض على الطريق فوق البيت.. هل كان هنا وخرج من باب المطبخ؟ من هو؟ ولماذا لم يخرج من الباب الرئيسيّ؟ سرقتها الطريق من تساؤلاتها حين استقرَّ نظرها على صخرةٍ وحيدةٍ تطلّ على واد. هناك، وقبل سنواتٍ كثيرة، عرفت أنَّ في الأرض بحرًا لونه أزرق. ما تزال تذكر الفستان

الذي كانت تلبسه حين شاهدت فتًى يقفز من شجرة الجوز قرب الصخرة. تقدَّمت منه، وسحبت منديلها من جيبها ومدَّته له. كانت عيناه بلون قشر الجوز. حدَّق بها طويلًا قبل أن يتناول المنديل ويمسح الدم النازف من ركبتيْه. كان سرواله القصير مضحكًا. أدركت أنَّه ليس من القرية. لم تلمحه في المدرسة. وفتية ديرزوفا يرتدون سراويلَ طويلةً عند التسكُّع في الأحراش. في اليوم التالي، كان الوقت غروبًا حين رأته في المكان نفسه. عيناه بلون العسل. لم يتحدَّثا. وفي المرَّة الأخيرة التي زارت فيها المكان، وجدت ورقةً مطويَّةً تحت حجرٍ صغير. فتحتها. مساحة ملوَّنة بالأزرق أسفل الصفحة. ليست سماءً، بل ماء على أرض، ونتوءاتٌ باللون الأبيض تشبه الأجنحة وتعلوها دوائرُ رماديَّة مثل الغيوم، وفي المنتصف شعاع نورٍ متكسِّرٍ كالبرق... جلست ساعاتٍ لا تعلم إذا كانت تحاول فكَّ رموز الرسم، أو تنتظر رؤية الفتى صاحب العينيْن الغامضتيْن! وقبل أن ينزل الليل، خبَّأت الورقة في جيبها وركضت إلى البيت. كانت فادية بانتظارها. وكعادتها عند التحقيق معها عن سبب غيابها الطويل، لم تتأخَّر فادية في اكتشاف سرِّها. يومها قالت لها: «هيدا أكيد كريم. بيقضِّيها كلِّ الصيفيَّة يبكي بدُّو يرجع ع بيروت ويروح عالبحر».

لم يعد كريم إلى التلَّة. وبقي البحر على الورقة يحرِّك في قلب هيلانة أمواج الحنين إلى ذلك الحوار الصامت مع عينيْن أكثر منها اغترابًا.

حين اقترب منها فريد وحجب عنها رؤية الصخرة، اختفى فتى البحر، وابتعد الأزرق والأخضر والعسل. ابتعد الشخص

الوحيد الذي كان في مثل سنِّها وهفَّت له روحها. «سلِّم إيديكِ... لمين كلّ هالفواكه؟»، قال فريد وهو يفتح الأكياس مشوِّشًا على هيلانة شرودها. سألها عن هبة، وبرَّر انقطاعه عن زياراته لها بسبب المغص الذي أصابه. لم تقتنع بحجَّته، فالمغص حلّه بسيطٌ ولا يستوجب زيارة طبيب، ثم إنَّ فريد بيطريّ و«يفهم أكتر من الحكيم»، كما يقولون في الضيعة.

وقبل أن يبدأ فريد بالتململ، وحين وقف وراح يتمشَّى في باحة الشرفة مشعلًا سيجارةً تلو الأخرى، سألته:

ـ دخلك شو هيدا العَلَم ع طريق البيت؟

ـ هيدا علم الحزب... الحزب القوميّ.

ـ إنت قومي؟

ـ كلّنا قوميُّون... بشكلٍ أو بآخر... جايبتيلي بطاطا يا أختي؟ شو بدِّي بالبطاطا!

ـ فكَّرتك بتحبّ الفلسطينيّي؟

دوَّت ضحكة فريد في السهل وهو يحمل تفَّاحةً، ويكاد يقضمها... ضحك من جديدٍ قبل أن يقول: «كلّ قوميّ مع الفلسطينيِّين... أختي... بتشربي قهوة؟ عصير؟»

ـ بدِّيش شي... أنا زعلانة كثير عليهم. مش قليل يصيروا ببلا وطن بلا ببيت وبلا أأأهل... ومنبوذين كككمان برَّات وطنهم...

ـ لو بيحكوا فرنساوي ما كانوا منبوذين!

ـ من كككم أسبوع سمعت ناهدة عم تحكي عن غسَّان

كنفاني... ذكرى استشهاده... بتعرفه؟ قهرني كتير كيف اغتالوه... وبنت أخته شو ذنبها؟

ـ ذنبها إنَّها بنت أخته.

ـ الكلمة متل الرصاصة كان يقول... معقول حدا يبيقتل كاتب؟ متل يللي بيقوص ععععصافير...

ـ غسَّان نسر مش عصفور... ورمى فريد هيكل التفَّاحة صوب السهل، وسُمع ارتطامه الخفيف بغصن شجرة.

ـ عندك كككتبه؟

ـ بدِّك؟

ـ أكيد... كككلّ كتبك بببحبّها...

ـ عم تستوعبيها يعني؟

ـ ...

ـ شو بكِ؟ زعلتِ؟ ما قصدي شي... بس ولا مرَّة خبَّرتيني إذا عم تستوعبيها أو لأ... كتبي صعبة شوي... أنا أصلًا بقراها أكثر من مرَّة لأستوعبها!

ـ وأنا كمان... لهيك بطوِّل فيهم... أصلًا كككتبك أحسن مممن كتب الأستاذ نبيل.

ـ منيح... طمنتيني...

ـ شو قصدك؟

وقف وأخرج من جيبه علبة سجائر وقدَّاحة. أشعل سيجارةً وجلس، وسحب كمِّيَّةً من الدخان زفرها بعد ثوانٍ وهو يرمقها.

تلك المقدِّمة باتت مألوفةً لهيلانة. وتلك النظرة تعرفها جيِّدًا عندما يستعدّ فريد لقول أمرٍ هامّ.

ـ كتير مهمّ شو بتقرأي... المخّ ملعون، وفي كلام مسموم... بنصّ دين الأدب.

لم تستطع إلَّا أن توافقه. لكنَّها الآن، لا تريد أن تتحدَّث عن الكتب ولا عن أستاذها.... ستستغلّ الفرصة لتقول ما في بالها بلا ورع:

ـ خيِّي... أنا ما عدت زغيرة... وأنت خخخ... خيِّي الوحيد..

ـ على مهلك... خدي نَفَس واحكي بهدوء.

كان ينظر إليها كأنَّه أمام سيَّارةٍ معطَّلة لا أمل في إصلاحها:

ـ احكي بهدوء، كرَّر.

رفعت ذراعها محاولةً إسكاته، واعتدلت في كرسيِّها. تنفَّست عميقًا قبل أن تقول:

ـ طيِّب... اسمعني... أنا بعرف إنو ضضضض... ضيعتنا مش مثاليَّة... بس بدِّي إفهم... كككك... ككيف بتقدر تعيش وحدك هون؟

ـ أهلًا بهيلانة! شو أختي؟ عليكِ حرارة؟

ـ ليش ما بتطلع من البيت؟ دايمًا وحدك...

ـ أنا مرتاح.

ـ من حقِّي خخخخاف عليك... أأأ.. أقلق على

مستقبلك... إنت مش مو.. مو... مو... مووووجود... ععععايش ومش عايش.. لللأيمتى رح تتتـ... تتـ... تضل هيك؟

ـ أنا هيك من لمَّا كنتِ إنتِ بالبيت... شو خطرلك هلَّق؟

ـ ليش؟ ليش مم... ممم.. مقطوع عن العالم؟ ما حدا بببب... بب.. بيزورك... ما عندك أصـ... أصـ... أصـ... أصصصحاب...

توقَّفت لتخفِّف توتّرها وتلجأ إلى حيلة الكلمات... فريد يحدِّق بها. لم تستطع فهم نظرته: أَشَفقة أم استغرابًا لأسئلتها؟ تنبَّهت إلى هندامه شديد الترتيب. لماذا هو حريصٌ على أناقته مع أنَّه لا يغادر البيت؟ هل ينتظر أحدًا؟ هل كان مع أحد؟ تابعت بعدما استعادت أنفاسها:

ـ أنت صحبة مع أولاد أمّ عادل، صحّ؟ شو بحبّ أتعرَّف على هالمره... .مكتبة سُر مَن قرأ

توقَّعت أن يشجِّعها. أن يقول لها «باخدك لعندها شي يوم»... فقد عرفت من صالح أنَّ أبناءها أصدقاؤه. يومها، تظاهرت أمام زوجها أنَّها على علم بالأمر كدليلٍ على قربها من أخيها. لكنَّ صمت فريد الآن أعطاها السبب الذي دفعها إلى ذلك. لا شكَّ أنَّه يخجل بها أمامهم... وإلَّا لماذا لم تَرَ أحدًا منهم هنا في بيت العائلة عندما كانت صغيرة؟ ولماذا كان يصرّ فريد على لقاء أصدقائه خارج البيت؟

سؤالها بقي معلَّقًا، وخسرت فرصةً أخرى لتعرف أكثر عن

صديقة أمّها. . . كان فريد يحادث شابًّا توقَّف بسيَّارته على الطريق المتاخمة للبيت. نهضت هيلانة عن كرسيِّها ودخلت البيت، خائبةً من نفسها.

شعرت بالبيت يدور حولها. تمسَّكت بطرف كرسيٍّ. ومن غير أن تنظر، جلست عليه. لحظات واستقام كلّ شيءٍ في مكانه. هنا المزهريَّة خاوية على طاولةٍ تتوسَّط الكنبات. تذكر تمامًا على أيِّ مقعدٍ كان يجلس أبوها، تحت صورته بزيِّ الدركيّ المعلَّقة بحبلٍ سميك، في مواجهة الباب متحفِّزًا لأيِّ طارئ. ومقعد أمِّها إلى جانبه، ما زال مغطًّى بِحِرامٍ استغرقت خياطته شهريْن كامليْن. لماذا لا يبدو البيت أليفًا؟

وقفتْ واتَّجهتْ نحو الغرفتيْن. كلّ شيءٍ مرتَّبٌ بشكلٍ مريب. إمَّا أنَّ أحدًا لا يدخل البيت، فتبقى الغرف على حالها من دون أيِّ خلل، أو أنَّ أحدًا يعتني بها بشكلٍ دائم، والأرجح أنَّ فريد لديه كلّ الوقت ليقوم بأعمال التنظيف. فلا شيء آخر يملأ به وقته بعد جولاته على القرى والبلدات في حال احتاج أحدٌ إلى خدماته البيطريَّة.

توقَّفت أمام الغرفة الكبيرة التي كانت تنام فيها مع أختها. ما تزال بقعة الدهان على الجدار فوق سريرها كأنَّها وُضعت للتوِّ بفرشاةٍ سميكة. . . لا تذكر سبب تلك البقعة، لكنَّها لم تنسَ أنَّها كانت تلعق الحائط قبل أن تنسلَّ في سريرها كلّ مساء. «عندك نقص بالكالسيوم»، قالت لها فادية. استكانت طويلًا إلى الجواب. تأمَّلت سريرها، عادت إليها ليالي البرد حين كان القمر يُضيء الغرفة. لسنين طويلة، ظنَّت أنَّ القمر فانوسٌ يُشعله يسوع

ليمنع الناس من ارتكاب الجرائم. وكان صوتها في رأسها يقول لها: «لا بدَّ لأيِّ إنسانٍ سُرقت أحلامه أن يفكِّر بارتكاب جريمةٍ في ليالي البدر».

ناداها فريد قائلًا: «فادية جايي على عيد السيِّدة». عادت إلى الشرفة تقفز من الفرح.

ـ «صحيح؟؟ كككك... كيف عرفت؟»

ـ شفتي إنِّي مش معزول عن العالم؟

ـ ففريد... بببدي استشيرك بشي... ععم بفكِّر حطّ ععفاف عرَّابة لهبة... قولك فادية بتزعل؟

ـ إذا بتعرفي فادية، ما بتسألي هالسؤال.

ـ طيِّب شو الحلّ؟... تأخَّرنا كتير.

ـ بيضلّ فيك تعمّديها لو صار عمرها ستّ سنين... بعدين دخلك لشو هالعادات... خلِّي البنت تكبر وتقرِّر.

ـ مما فهمت عليك... شو يعني؟

ـ مش مهمّ...

ـ ... عععععفاف بتحبّها كتير... وما عندها وووو... ولاد.

ـ المهمّ ما تعلِّمها التبصير ولا تاخدها معها عند الأخ ألبير..

ـ مين؟

فريد صامت. يمجّ سيجارته. حملت هيلانة الكرسيّ الذي

كانت تجلس عليه قبل قليل، ووضعته قرب كرسيّ أخيها مكرِّرةً سؤالها.

ـ الحمد لله طمَّنتيني إنَّك بتعرفيش الأخ ألبير!

ـ مش على علمي عفاف عندها خيْ إسمو ألبير.

ـ ما في أحلى منّك أختي... كلّ عمري قول إنَّك غير شكل وبتفهمي...

ـ ممكن تفهِّمني مين هو هيدا؟

ـ معقول مش سامعة بعجايب الأخ ألبير؟ ولا مرَّة رحتِ عالدير؟ ما حدا حكالك؟

ـ أنا بستاهلش أعرف شي بهالضيعة!

ـ ابرمي وجِّك صوب الدير... شفتِ الجرس؟ حدّ الصفصافة؟ من هالجرس بلَّشت قصَّة الأخ ألبير. من شي أربعين سنة إجت عاصفة قويَّة وبرق ورعد... طافت الدنيا وانغمرت الحقول. وكانْ في جسر بين السهل والنهر احترق سلَّافه. بيوت تكسَّرت أبوابها. ناس غرقوا وناس اختفوا... وناس ماتوا من البرد. وفجأةً، رنّ جرس الدير ووقف كلّ شي. وقف المطر ووقف الرعد ووقف البرق... وطلعت الشمس بنصِّ الليل وضوَّت الدني... كلُّو بفضل الأخ ألبير.

ـ شمس بنصّ الليل... كيف هيْك؟

ـ هيْك... ومن وقتها زهَّر الزوفا حول الدير... ومن وقتها صارت العاقر تحبل والعانس تلاقي عريس فجأة. وصاروا الموتى يحكوا مع أولادهم من القبر.

ـ معقول؟؟؟ ششو دينه هللل. . . أأأأخ أأأ. . .

ـ . . . بيقولوا إنَّه ناسك كان عايش بالدير من زمان وما حدا عرف فيه قبل هيديك العاصفة. لا معروف أصله ولا فصله. . . بس الضيعة صار اسمها ديرزوفا من ورا هيديك القصَّة.

هيلانة أمام أسطورةٍ أغرب من كلٍّ ما قرأته في كتب فريد! تتدافع في رأسها أسئلةٌ تعجز عن تحديد أيُّها يستحقّ أن يُسأل أوَّلًا!! لكنَّ فكرةً واحدة تتصدَّر سواها: عفاف تزور الأخ ألبير. . . ولعلَّها بفضله تزوَّجت الأستاذ نبيل وسط استغراب الجميع. وقد تكون قادرةً على الإنجاب إن كانت كلّ تلك المعجزات واردة على يد ذلك الناسك الذي أنبت الزوفا من قلب الصخر، فصار للقرية اسمٌ وهويَّة.

ـ شو بك أختي؟ تفكريش كتير. . . أكبر الفلاسفة ما قدروش يفهموا كيف الغباء بيقدر ينتشر بهالسهولة متل الأوكسجين!

ـ كيف بدِّيش فكِّر. . . كككك. . . كلّ عمري عايشة بهالضيعة. . . ما سمعتش ولا مرَّة عن هالزلمي.

ـ أوعا يقلِّك عقلك تزوريه. . . أوعا تخلِّي عفاف تلعب بعقلك. . . فهمتِ؟

ـ فهمت. . . وفادية بتعرف القصَّة؟

ـ ههه. . أكيد. . بس يا محلى فادية عند إبراهيم. مقتنع إنُّو الأخ ألبير سبب النعيم يللي هو فيه. أختي. . . انسي كلّ شي حكيته وعيشي حياتك متل ما كانت تمامًا. وبترجَّاك تسمعيش من عفاف أيّ شي بيتعلَّق بهالمخلوق.

وقفت هيلانة وعيناها معلَّقتان على صفصافة الدير والجرس، وتمتمت: أمّ صالح...

استدارت صوب فريد، وقالت كمن اكتشف أخيرًا سرًّا قديمًا: لهيك بتختفي كلّ يوم أربعا... بتروح تزور...

ـ المعتَّرة شو بدها تروح تعمل... تشوف إذا موسم الخوخ منيح هالسنة؟! بس على رأيك... ممكن كتير. بعتقد صار الوقت ترجعي عالبيت... صالح رح يوصل قريبًا... بعد عشر دقايق رح يطلّ من هونيك. وأشار بإصبعه إلى طريق الحقل.

تباطأت في نزول التلَّة لتجترّ حكاية الزوفا والعاصفة والأخ ألبير... راحت تتأمَّل قريتها بيتًا بيتًا، فيما الجبل الرابض وحده في الأفق، يحمل الشمس خلفه مثلما يحمل صالح زوَّادته. لو أنَّ الشمس تعرف أنَّها ستشرق في اليوم التالي لما كان الغروب حزينًا إلى هذا الحدّ. وكما توقَّع فريد، أطلَّت عبلة محمَّلةً بالغلال، وصالح يجرُّها في يدٍ، ويسند بيده الأخرى معوله البارز من جيب البرذعة كسيفٍ في غمده. أرادت أن تهرع إليه لتقطع الطريق وتلاقيه فترافقه إلى القرية، وينوب عنها في التحايا... لكنْ غضبًا بكرًا استولى عليها فجأةً، وجمَّد خطواتها. لا بدَّ أنَّ صالح يعرف قصَّة الأخ ألبير... ويعرف أنَّ أمّ صالح تزوره. لكنَّه، كسِواه، يعاملها كناقصةٍ لا تستحقّ أن تعرف حقائق الكبار! تقدَّمت صوبه بعدما لوَّح لها... وعلى وقع حوافر البغلة مَشَيا. صالح ينظر إليها فيتمدَّد شاربه وتبرز أسنانه الأعتق من عمر الأرض. تلك الوداعة في ابتسامته بدَّدت زوبعة غضبها، وراح اليقين يقرع في رأسها كالجرس الذي أوقف العاصفة: صالح، درعها الوحيد في

هذا العالم، يريد حمايتها من لوثة الخزعبلات التي أصابت أهل القرية. كانت نسائم خفيفة تلاعب شعرها وهي تركل الحصى كطفلةٍ تتنزَّه مع أبيها في يوم عطلة. تحاول أن تركل من عقلها كلّ ما سمعته من فريد... وهي مدركة أنَّ العودة إلى ما قبل حكاية الأخ ألبير باتت مستحيلةً في قريةٍ صدَّق أهلها أنَّ الشمس تسطع في الليل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

جرس الكنيسة يُقرع ثلاث مرَّاتٍ متتالية ثم أربع، ثم خمس مرَّات. يتبعه قرع جرسٍ أبعد. ينهض صالح وهيلانة مذعورَيْن. تصرخ أمّ صالح من الغرفة المجاورة: «يا ربّ تنجِّينا..».

يركض صالح إلى الشرفة، تتبعه هيلانة. صوت الأجراس وصراخ مريم يشقَّان الفجر وتشتدّ السماء حمرةً. يلتفت صالح في كلِّ الاتِّجاهات، فتصرخ مريم من جديد وتشير بإصبعها إلى تلَّة الواوي.

ـ يا دللي هيدا... ببيب... بيت أهلي.

يقفز صالح أدراج البيت، فتركض خلفه وهي تناديه.

ـ ارجعي عالبيت... لوين جايي؟

ـ ففففف فريد...

ـ لا مش بيت أهلك، هيدا حرش الصنوبر عالمطلّ. ارجعي عالبيت.

تعود هيلانة أدراجها، فيما يخرج نبيل وعفاف إلى الدار هاتفيْن لصالح الذي توارى خلف الزقاق. . .

ـ حرش الصنوبر. . . نار. . . هتفت هيلانة من الشرفة. علق حرف العيْن في حنجرتها، وعجزت عن قول: «عم يحترق».

ـ احترق؟. . . هتف الأستاذ نبيل، سألحق به بسيَّارتي.

صعد نبيل بسيَّارته المركونة في الدار. . . تمنَّت لو تذهب معه لتطمئنّ على أخيها! من شرفتها، شاهدت الأهالي يخرجون بثياب النوم. . . أطفالٌ يركضون. نسوةٌ تولول. فيما مريم تجلس على كنبتها في الدار كأنَّ مهمَّتها، مثل الأجراس، انتهت بعد معرفة الجميع بأمر الحريق.

حاولت هيلانة أن تتبيَّن بيت أهلها. صعدت السلّم الخشبيّ المفضي إلى سطح البيت لتطلّ على القرية.

حرش الصنوبر يبعد حوالى ألفيْ مترٍ عن ساحة القرية، ويُسمَّى «مطلّ ديرزوفا». ها هو يشتعل. والنيران تختلط بألوان الشفق. خافت أن يطال الحريق بيت أهلها. . . لا بدَّ أنَّ فريد انضمَّ إلى رجال القرية. كيف سيسيطرون على الحريق؟ النار تمتدّ وتعلو. . . مرَّت الساعات كأنَّها دهر. عادت إلى الشرفة. كان بوصالح ما زال جالسًا وحده يتمتم، ويحرِّك يديْه رافعًا سبَّابته كعودٍ خشبيٍّ: «هالحرش منحوس. . . من يوم يومه».

ـ شو بتقصد يا عمِّي؟

ـ لعنة وحلَّت. كلّ عشر سنين بيحترق، وما منعرفش ليش وكيف!

ـ كلّ عشر سنين؟ معقول؟

ـ أنا متأكّد أنّه العكاريت هنّي ذاتُن. يلعن أبو يلّلي خلَّفهم.

ـ مين؟

ـ عكاريت. . . زمان كان صالح أوَّل من ركض ليطفي النار. رجع فحمة سودا!

عند سماعها بكاء هبة ركضت إلى غرفتها. حضنتها، وراحت تهدهدها علَّها تغفو من جديد. وضعتها في سريرها وأحكمت إقفال الشبَّاك. رائحة الرماد تتسرَّب من كلِّ مكان، وحماتها في الغرفة المجاورة تدمدم الصلاة وتشهق بالبكاء.

ـ ليش عم بتبكي يا مراة عمِّي؟ تخافيش. . . صالح بخير أكيد.

ـ آآآآخ فراشتي الزغيرة احترقت. . . آآآخ يا ربِّي.

سمعت قرعًا على الباب. دخلت عفاف وهي تقول «خلصت القهوة؟»

ـ حماتي خخخرَّفت. . . فوتي فوتي.

ـ خرَّفت!. . . يا مشحَّرة. . . شو صار؟

دخلتا معًا إلى الغرفة. ركضت عفاف نحو أمّ صالح التي كانت تضرب وجهها بكفَّيْها، وتردِّد منتحبة: «فراشتي الوحيدة. . . حرقة قلبي». أمسكتها عفاف من يديْها. هزَّتهما بقوَّة. هيلانة تتأمَّلهما، وتتذكَّر فجأةً كلمات عفاف عند قراءة فنجانها ذلك الصباح: «خبر عاطل بعد إشارتيْن». . . العكاريت، الحريق. . . والخبر العاطل: الفراشة!

عفاف ما زالت ممسكةً بأمِّ صالح وتنادي اسمها، وتردِّد لها: «حرش الصنوبر هو يلِّلي احترق. قولي الله. إن شاء الله يرجعوا رجالنا بخير...»

ـ حشيشة قلبي... فراشتي.

ـ حشيشة قلبك باقية بقلبك. صلِّي لحتى تكون نفسها بالسما.

ـ فراشتي الزغيرة احترقت...

تسحب عفاف يديْها من يديْ أمّ صالح كأنَّها يئست. تلتفت إلى هيلانة، وتطلب منها أن تجلب لحماتها ماء الزهر والسكَّر وتقول: «واشربي إنتِ كمان، وجّك متل التراب».

سعال بوصالح يهدر مقتربًا مع خطواته من الغرفة. يقف أمام الباب شاخصًا إلى أمّ صالح. يهمهم، ويضرب يدًا بيد... تستأذنه هيلانة ليفسح لها الطريق، فتعطي كوب الماء لعفاف. أمّ صالح تشرب كعصفور.

تقترب هيلانة من بوصالح لتهمس له: ششش... شو القصَّة يا عمِّي؟

ـ القصَّة هيِّي هيِّي... بكلِّ حريق في نحيب.

ـ نحيب؟ على مين؟

يستدير عائدًا إلى الشرفة كمن سئم من مشهدٍ متكرِّر. سعاله يكاد يخنقه، وثقل خطوه يربض على قلب هيلانة التي راحت تفقد صبرها من هذا الجوّ العابق بضبابٍ من الأسرار. وبنبرةٍ آمرة، تهتف لعفاف:

ـ ععععفاف... خخخلّصي والحقيني على المطبخ بسرعة!

ستعدّ ركوة قهوة، وتُجبر عفاف على إخبارها بكلِّ شيء! كيف كشف لها الفنجان «الخبر العاطل»؟ وهل هو الحريق أم شيءٌ آخر؟ هل سيكون صالح بخير؟ ومن هي الفراشة التي تندبها أمّ صالح؟

ارتعدت في مكانها عندما داهمتها عفاف قائلةً: «لازم طلّ عَ بيت أهلي... أكيد ارتعبوا من الحريق. بشوفك بعدين».

ـ تعي... خبِّريني مين الفراشة؟

ـ بعدين... بعدين.

جلست هيلانة في المطبخ، وارتشفت فنجان قهوتها دفعةً واحدة لتقلبه على الصحن. ساقاها ترتجفان ويداها باردتان. كم يجب عليها أن تنتظر قبل أن تبدأ قراءة خطوطه السوداء؟ رفعت الفنجان بشكلٍ مائل، فرأت كتلةً من بقايا القهوة تحتلّ جزءًا من قاعه ويعلوها خيطٌ من التفل بلغ حافَّة الفنجان، فيما تُحيط الكتلة مساحةٌ بيضاء تغطِّي القسم المتبقِّي من الفنجان. لا شكَّ أنَّ ذلك يعني «فَرَج بعد كَرْب»، كما تقول النسوة. خرجت لتتفقَّد حماتها... كانت في سريرها تصلِّي وتبكي. رفضت تناول الطعام. تردَّدت هيلانة أكثر من مرَّة في سؤالها عن سبب حزنها. تلك العجوز التي تمشي بظهرها المقوَّس كمنجل، لم تعيِّرها بعاهتها مرَّةً. ورغم قسوة ردودها أحيانًا وفوران غضبها بلا سببٍ واضح، احتضنتها كابنتها، علَّمتها الخَبْز على الصاج والطبخ وصنع المؤونة. وعرفانًا بجميلها، تطحن هيلانة الطعام لها ليسهل عليها مضغه.

لأمّ صالح طقوسها في الصلاة وفي ترتيب غرفتها. تغلق الباب على نفسها وتبقى فيها ساعات. لا يُسمع لها صوتٌ إلَّا عند حلْب الأبقار وإزالة الروث عن أرض الحظيرة. يوم سمعتها أوَّل مرَّةٍ تتحدَّث مع الأبقار كأنَّها بشر، لم تكن تعلم أنَّ هذه العادة متفشِّية في ديرزوفا: «ابرمي بوزك... مش عاجبك؟ عم تتغنَّجي عليّ كمان؟ بنضفلك خراكِ وبِحلبك وأنت بتلبّطي؟ اجمدي لشوف». يومها، ظنَّت أنَّ حماتها تهلوس، لكنَّ السنوات التي قضتها معها أثبتت لها أنَّها لم تفقد شيئًا من رجاحة عقلها. كُثُر من النسوة يقصدنها للمشورة في أمورٍ صغيرة وكبيرة. وهي لا توفِّر فرصةً لتقول ما تفكِّر به مستخدمةً المقدِّمة نفسها كإنذارٍ لمحدِّثتها: «يمكن ما يعجبكش ردِّي، يمكن ما قلش يلِّلي بتحبِّي تسمعيه... أنا بحكي الدغري... ما عنديش لفّ ودوران. وبيهمنيش حدا». إذًا، ما هو هذا الأمر الفظيع الذي جعلها اليوم تلفّ وتدور في هذيانها حول فراشة؟ وما هو هذا الحزن الذي يربط لسانها فيُعيد ويكرِّر الكلمة نفسها؟ لم تَرَ هيلانة يومًا أمّ صالح منكسرةً. انحناء رأسها بفعل تقوُّس ظهرها يخون تلك القوَّة التي تحسدها عليها هيلانة. كيف تبدَّدت فجأةً صورة المرأة الصلبة كأنَّ الحريق طالها أوَّلًا قبل أن يُشعل الصنوبر العالي؟ لن تقترب منها الآن وهي في قمَّة ضعفها. لن تفعل بها ما دأب الجميع على ارتكابه معها! لن تجبرها على «أخذ نَفَسٍ عميق» لقول ما لا تستطيع قوله!

لا أحد سوى بوصالح يستطيع أن يزيل تلك الغمامة السوداء التي خيَّمت على البيت وأثقلت أنفاس هيلانة، وزادت من قلقها

على صالح. . . كان الوقت ظهرًا حين رأت بوصالح يطلّ من الزقاق مطأطئ الرأس، يكلِّم نفسه وعيناه في الأرض. بدا لها كأنَّه شاخ في ساعة! لا شيء سوى الحساسيَّة المفاجئة من غبار الطلع، أجبرت هذا الرجل العاشق للأرض على البقاء في البيت. كان في السبعين من عمره عندما قال له صالح ألَّا ينزل معه إلى الحقل خاصَّةً في الربيع. وأصبح البيت يهتزّ على وقع عطساته في كلِّ المواسم. حين وصل وجلس إلى الشرفة، كان يطلق اللعنات، ويزفر أنفاسه كأنَّه يحاول إخماد الحريق من مكانه. لم تفكِّر مرَّتيْن حين اقتربت لتجلس إلى جانبه. تعرفه جيِّدًا. لن يرتاح قبل أن «يفشّ خلقه».

ـ عمِّي. . . عرفت شي؟ شفت حدا؟

ـ ما شفتش حدا وما عرفتش شي. فش حدا بالضيعة. كلُّن هونيك. . . الله يلعن أبوهم ويحرق قلوبهم.

ـ . . . المهمّ يرجع صالح بخير. بتاكل لقمة عمِّي؟

ـ بدِّيش شي. معدتي بتقرص قرص. ناوليني إبريق الميّ يرضى عليك يا بنتي.

ـ عمِّي. . . على مين بتبكي حماتي؟ مين تذكَّرت؟

ـ تذكَّرت؟ قولي مين ما نسيتش. آآآخ يا بنتي. . . اتركيها بالقلب تجرح ولا تطلعش برَّا وتفضح.

ـ خير يا عمِّي. . . احكيلي.

ـ عم تندب بنتها يا بنتي.

ـ بنتها؟ صصص. . . صصصص. . . صالح عندو أخت؟؟

ـ شو بينفع الندب، قولي لي.. ها؟ لشو الندب؟

ـ ككك.. كككيف؟ أيمتى؟

ـ مين بيخلِّصنا هلَّق من هالمصيبة؟ إذا صرلها شي، أنا شو بعمل؟... البكي والنحيب بيرجعوش يلِّلي راحوا.

هيلانة لا تسمع شيئًا... دارت بها الشرفة ألف دورةٍ بعدما عرفت أنَّ الفراشة هي أخت صالح. الدوار يزداد كلَّما حاولت أن تفهم ما الذي صدمها أكثر. الخبر نفسه؟ أم إخفاؤه عنها طوال هذه السنين؟ كيف يمكن لعائلةٍ كاملة من أبويْن وزوجٍ أن يخفيا عنها أمرًا كهذا؟ إنَّها حكايةٌ لا تموت على الألسنِ ولا في القلوب، لأنَّها من صنف الفواجع. الدوار يقذفها الآن نحو الهامش، الهامش يتَّسع فجأةً ويبتلعها بكلِّيَّتها. لم يعد يهمّها إن عاد صالح أو التهمه الحريق! رأت مسافاتٍ تحترق بينهما. عمرها احترق معه. أقسمت في سرِّها أنَّها لن تغسل قدميْه بعد اليوم. لن تقشِّر له البصل كلّ مساء. لن تعدّ له زوَّادة الحقل... «هكذا تُفسَد النساء»، همهمت. خالتي إلماز معها حقّ: «الرجل هو النار والمرأة هي الحطب!»

نزل العتم وصالح لم يعد بعدُ. لا شيء سوى حفيف أوراق الشجر يُسمع في الأرجاء. والنسائم تحمل غبار الرماد، وأنين أمّ صالح يختلط بسعال بوصالح وعطساته. أغلقت هيلانة النوافذ كلّها ورقدت في السرير. بقيت جالسةً فيه كي لا تغفو قبل أن يعود صالح. سيحتاجها ليغتسل ويأكل. تخيَّلته في الحرش. ماذا ستكون حاله الآن؟ ندمت على ما فكَّرت به قبل قليل. لا بدَّ من سببٍ قويٍّ دفعه لإخفاء قصَّة أخته عنها. طوال السنوات الفائتة لم يؤذها بكلمة. كتمانه دليل حزنٍ كبيرٍ في قلبه. تماهت معه للحظة. هي أيضًا لا تذكر أمّها وأبيها في أيِّ مناسبة. لا تعلم لماذا تتفادى الحديث عنهما مع كلّ الناس. كم تمنَّت لو تتوقَّف فادية عن ذكر الأيَّام الأخيرة لأبيها، عندما أصبح كتلة عظامٍ متكوِّرة وبدا يُحمل في يدٍ واحدة! التهمه «هيداك المرض» كما يسمُّونه في ديرزوفا، كأنَّهم، بإسقاط اسم السرطان، يُبعدون عنهم لعنته!

وأمّها... ذلك الوجه الذي يحضر أمام عينيْها كلَّما نظرت إلى هبة. لها ملامحها التي بالكاد تتذكَّرها. وطوال تلك السنوات، لم تسأل أحدًا كيف كانت أمّها في حياتها. صالح لا يلام. لعلَّ حرقة قلبه لم تنطفئ بعد. أخفى عنها قصَّة الفراشة، كما تخفي هي عاهتها.

صحت فجأةً على صوت هبة. استغرقها بضع دقائق لتنتبه أنَّ ليلًا مضى ويومًا آخر بدأ. الجانب الآخر الذي يشغله صالح في السرير ما زال مرتَّبًا. حاولت النزول من السرير. كان عليها أن تحمل ساقها وتضعها على الأرض... لا تعلم سبب هذا الثقل الذي شلّ قدميْها فجأةً. لرعشة البرد التي غمرتها سببٌ واحدٌ الآن: احتمال أن تُصاب بشللٍ في قدمها مثل خالتها. جرجرت نفسها، وخرجت لتسأل حمويْها عن صالح. كانا على الشرفة يحتسيان القهوة.

ـ صباح الخير.

ـ أيّ خير، تمتمت حماتها. صالح ما رجعش... مدري شو صار فيه!

اقتربت هيلانة من الشرفة، ونظرت إلى الطابق الأرضيّ لترى إنْ كانت سيَّارة الأستاذ نبيل مركونةً في الساحة. صرخت لعفاف مرَّتيْن. أطلَّت عفاف بثياب النوم.

ـ ما رجعوش؟ عرفتي شي؟

ـ مرق علي ابن خالي وقلّلي الحريق خفّ كتير، بس باقيين هونيك حتى يتأكَّدوا إنو انطفت النار عالآخر.

ـ تعي نروح نطلّ عليهم. . .

ـ شو بدنا نروح نعمل. اتطمنِّي. كم ساعة وبيرجعوا.

ـ طيِّب. . . اطلعي نشرب القهوة.

ـ بدِّي أشطف الدار. شوفي الأرض. . . سودا من الحريق. كيفها أمّ صالح؟

بحركةٍ من يد هيلانة، فهمت عفاف أنَّ أمّ صالح على حالها، فوعدتها أن تصعد بعد قليل. التفتت هيلانة إلى حمويْها، كانت أمّ صالح تبعد ركوة القهوة عن متناول بوصالح، وتتمتم: «ناقصك رجفان؟ القهوة مش زوفا. .». فيما بوصالح يصفِّق يدًا بيد كعادته حين يسأم من الجدال.

ـ عفاف طمَّنتنا. قالت هيلانة لتخفِّف جوَّ النكد بين حمويْها. . . كم ساعة وبيرجع صالح.

وعندما لم يجب أحد، أردفت:

ـ عمِّي. . قدِّيش بقي الحريق الماضي؟

ـ بتذكَّرش يا بنتي. أسبوع. . . خمسة أيَّام. . . نسيت.

ـ بحضِّرلكم ترويقة؟

ـ من له نفس للأكل؟ دمدمت حماتها وهي تحاول النهوض. . . رح فوت صلِّي بركي الله يعيننا على هالمصيبة.

دخلت هيلانة وراءها وهي تفكِّر إنْ كان مناسبًا أن تمسك بيدها، أو تربِّت على كتفها كما يفعل المتعاطفون مع مكسوري الخاطر! رفعت هيلانة يدها، فلم تستقرّ إلَّا على خدِّها هي،

وراحت بلا قصدٍ تفركه كأنَّها تخفي حرارة الخجل من فضولٍ خبيثٍ يعتريها لاستدراج حماتها إلى الاعتراف بكلِّ شيء: كيف عاشت الفراشة؟ وكيف ماتت؟... هل تزور الأخ ألبير كلّ يوم أربعاء لتتحدَّث إلى ابنتها الميِّتة؟ لكنَّها انعطفت فجأةً نحو المطبخ تاركةً حماتها تدخل غرفتها بسلام. فليس أبشع من استغلال ضعف إنسانٍ ولحظات انكساره لإشباع فضولٍ شخصيٍّ، حتى لو كان الدافع معرفة الحقيقة.

انتصف النهار سريعًا. سمعت هدير سيَّارة. إنَّه الأستاذ يعود. لا بدَّ أنَّ صالح معه. ركضت إلى الشرفة. فتلت يدها كعلامة استفهام عن صالح. أجابها وهو يركض باتِّجاه بيته، وسعاله يعلو ويتقطَّع:

ـ ما زال هناك... سأعود إليه بعد قليل.

مرَّت نصف ساعة، لم يخرج الأستاذ نبيل ليركب سيَّارته عائدًا إلى صالح. نزلت هيلانة لتتبيَّن الأمر. وجدت عفاف تضع ثياب الأستاذ نبيل في الطشت. وما إن لمحت هيلانة أمامها حتى رسمت إشارة الصليب على صدرها:

ـ نأزتيني... ما سمعتش طبشة الباب!

ـ شو صار؟ لَلِيش رجع الأستاذ؟

ـ الحساسيَّة... بيتحملش الدخان... عم بيتحمَّم هلَّق. شوفي. ثيابه مثل الفحم. عم بعْملّلو زوفا بركي صدره بينضف من الدخان.

ـ شو قال عن صالح؟ لَلِليش ما رجعش؟

ـ بعرفش... تشغليش بالك... صالح قبضاي.

ـ مممين معه هونيك؟ خخخيِّي فريد معه؟

ـ كلّهم هونيك... شباب الضيعة. كلّهم. تقلقيش... ارجعي عَ بيتك وأنا بطمِّنك.

ـ ببدِّي شوف الأستاذ.

جلست هيلانة على حافَّة الكنبة تفرك يديْها كذبابةٍ فوق طعام مهمَل. هل سيطول حمّام الأستاذ؟ هل سيستغرق في سرد تفاصيلً عن الحريق ونوعه وخطورته وعدد أشجار الصنوبر التي تضرَّرت وأسماء الأشخاص الذين هرعوا إلى الحرش قبل أن يطمئنها على صالح؟ لم تسمع باب الحمَّام يُفتح، لكنَّها وقفت فجأةً، وتعلَّقت عيناها بباب المطبخ منتظرةً أن يطلّ الأستاذ. سمعت سعاله المتكرِّر. «يا حرام... سعلته قويَّة وناشفة».

تقدَّمت عفاف من زوجها وأعطته كوب الزوفا، فحمله وراح يرتشف منه، كأنَّه يسحب من ساحة الحريق وقائعَ نسي سياقها فجأةً:

ـ الله يحميه... قبضاي. لولاه لوصل الحريق إلى كلِّ الشجر. لا أعلم من أين يأتي بهذه القوَّة ليجمع الأغصان في لحظة ويضرب النار بها! نار.. يا ربّ نجِّنا من شرِّها. أطفأ نصف الحرش، ونحن كنَّا عشرين رجلًا نحاول إخماد النصف الثاني.

ـ يعني هو منيح؟؟؟ وووفريد؟

ـ لمحتُه هناك... كلّهم ركضوا.

هواجس هيلانة تركض مع جميع من ركضوا. شيءٌ ما كحشوة قطنٍ يطبق على حنجرتها وهي تقول:

ـ طيِّب... ووو... وهلَّق... ككيف؟... أأأيمتى؟

يرفع نبيل نظره إليها تمامًا كما كان يفعل في الصفِّ عندما يراها متعثِّرةً في نصٍّ تقرأه. طيف عفاف يتحرَّك في المطبخ، وصوت جَلَبة يتداخل مع جواب الأستاذ:

ـ اهدأي، سأرتاح قليلًا وأعود. لا تقلقي. الأمور بخير... لو تعطيني قميصًا وكوفيَّة لآخدهما له. ما زال بلباس النوم.

ـ حاضر... ثوانٍ وبرجع.

نزل العتم ولم يعد صالح. مشت باتِّجاه البيت تجرجر خيبتها، وعفاف في الدار تناديها لتستريح.

خطر لها أن تستدرج عفاف للحديث عن أخت صالح. ها هي سعيدة بوجود هبة في الدار. تحملها بين ذراعيْها، ترميها في الهواء وتلتقطها من جديد، وهبة تكركر من الضحك. الأجواء مؤاتية لتفتح معها تلك السيرة الغامضة.

ـ ععععفاف؟... شو بتعرفي عن أخت صالح؟

ـ رجعنا للسيرة؟ خلص... الله يرحمها. قصَّة من الماضي. من قبل ما تخلقي إنتي... تفتحيش جروح.

ـ بس الككك... الك.. الكلّ بيعرف إلَّا أأأأنا!

ـ ما بفيدك شي إذا عرفتي. تعدَّدت الأسباب والموت واحد، متل ما بيقولوا. أنا بنصحك تفتحيش السيرة ببيت صالح. بيكفيهم همّهم.

عفاف تغيَّرت، قالت هيلانة في نفسها قبل أن تنتفض وتأخذ هبة من يديْ جارتها كأنَّها تعاقبها على ردِّها، وتسرع في صعود الدرج.

عندما توقَّفت السيَّارة فجر اليوم التالي أمام باحة البيت، لم تحتمل هيلانة الوقوف على الشرفة. كرجت على الدرج. صالح ينزل من السيَّارة. لولا كوفيَّته لما عرفته. توجَّه فورًا إلى الصنبور المحاذي لغرفة الخَبز.

كاد أن يخلع ملابسه كلّها وهو يغتسل ليُزيل عنه بقايا الدخان والرماد! فيما دخل الأستاذ نبيل مع عفاف إلى بيتهما. وبقيت هيلانة واقفةً مرتبكة أمام الرجل الذي ألفته أكثر ممَّا ألفت أهلها. بدا لها الآن، وهو يزيل رواسب الحريق عن وجهه، أكثر غموضًا من كلِّ أسرار ديرزوفا.

هيلانة تتأمَّل زوجها المحاط بأبويْه على الشرفة. ثلاثة وجوهٍ احتمت خلفها لسنواتٍ لتعيش كسائر الناس، بأمانٍ وطمأنينة. ثلاثة وجوهٍ تآمرت عليها لسنواتٍ كي تبقى الفراشة في سباتها الشتويّ.

ـ هاتيلي الزوَّادة يا هيلانة. . . تأخَّرنا عالسقي.

ـ بلاها اليوم. خلِّيك ارتاح، ردَّت وساندها حمواها في استهجان قراره بالذهاب الى الحقل.

نظرته كانت كافيةً لإسكاتها. دخلت لتجمع ما تيسَّر من طعام اليوم الفائت. أعطته الزوَّادة بعدما ارتدى ثياب الحقل، وهمّ في الرحيل. لن تقلّ عنه عنادًا. . . لا بدَّ أن تعرف كلّ شيءٍ عن

أخته: ستمضي اليوم مع بوصالح، وستكون الحقيقة جليَّةً لها قبل عودة صالح في المساء.

بوصالح لم يردّ على أيٍّ من أسئلتها. نهض عن الأرجوحة مجرجرًا قدميْه ودخل البيت.

خالتها إلماز خيَّبت أملها أيضًا بقولها: «تعدَّدت الأسباب والموت واحد». ولم تظفر هيلانة إلَّا باسم الفراشة حين همست خالتها: «الله يرحمك يا ورديَّة». خطر في بالها أن تلجأ إلى الأستاذ نبيل. هو الوحيد الذي لن يخذلها.

ووو... ورديَّة... قالت له فجأةً لتضبط ردَّة فعله وهي تتفرَّس في وجهه فيما يعقد حاجبيْه، ومن غير أن ينظر إليها يجيب: ما بها؟

ـ كككيف احترقت؟

ازدرد ريقه وخُيِّل إلى هيلانة أنَّه يقضم تفَّاحة آدم كي يحبس الكلام!

خاب ظنّها حين تركها تصعد الدرج من دون أن يقول كلمةً واحدة. أدركت أنَّه يُداريها مثلما يفعل الجميع، كأنَّ النقص الذي بها يجعلها أضعف من أن تحتمل الحقيقة. وضعت طفلتها في سريرها وأجهشت بالبكاء. فراحت هبة تبكي... احتضنتها من جديد. حريقٌ انطفأ، وآخر اشتعل في قلبها: «كيف احترقت الفراشة؟» ولماذا فجأةً، أصبح العالم كلّه يتأتئ!؟

شعرتْ أنَّها تتنفَّس في بئرٍ عميقة. تذكَّرت تلك البئر المطوَّقة بثلاثة جدرانٍ عالية والمتَّكئة على بيت أهلها. لم تعد البئر هناك... لسببٍ تجهله. اليوم تأكَّد لها أنَّها مثلها. في الماضي، كان الناس يمرُّون من أمام البيت متجاهلين البئر. شكَّت أن يكون هذا الشيء الضخم العالي غير مرئيٍّ إلَّا لها! وإلَّا ما الذي يفسِّر تجاهلهم له؟ لعلَّ الأوساخ المتجمِّعة على سطح البئر تنفِّرهم!... أو أنَّهم اعتادوا على هيئتها التي لا تتغيَّر فلا يبذلون عناء الالتفات إليها! لو كانت البئر نبعًا أو نهرًا لأثارت حركة الماء اهتمامهم. أمَّا هذا الوعاء الضخم الممتلئ حتى الشفة فلا صوت له، منعتقٌ في بدائيَّته... وحده.

وحدها كانت تتلذَّذ بالجلوس قرب البئر. تمدّ يدها على سطحها... تزيح عنه القشّ وأوراق الشجر اليابسة كي ترى انعكاس الشمس أو القمر. تتمدَّد على بطنها وتُنزل يدها حتى

المرفق إلى الأعماق. تُداعب برودةً تتحسَّسها في الوسط. تنتعش ذراعها. تبتسم عيناها. تُحدِّق أكثر، فيُخيَّل إليها أنَّ حوريَّةً فرَّت ذات ليلةٍ من القاع تاركةً خصلة شعرها دليلًا لحبيبها، وحين لم يأتِ، تعمشقت خصلة الشعر في الجدار وأنبتت الطحالب.. يدها ما تزال في البئر تلاعب طبقات الماء السفليَّة. يروق لها الصوت المكتوم. تحاول ألَّا تنظر طويلًا في القاع. أرعبها مرارًا احتمال السقوط إذا تمادت في رغبتها بالنظر إلى الأعماق. كان يكفيها أن تلامس تلك المياه الخفيَّة في الجوف... مرَّات كثيرة خطر لها أنَّ أفعى ستصعد من القاع وتلسعها، لكنَّ الضفادع المتحلِّقة حول البئر كانت تؤنسها. وظنَّت أنَّهم جنودٌ مكرَّسون لحمايتها وأنَّ نقيقهم سيُرعب الأفعى. الآن لا تعرف إذا كانت تلك الصور ذكرياتٍ حقيقيَّةً أو مجرَّد حلم!

لكنَّها واثقةٌ على الأقلِّ من صورةٍ واحدة تحفظها ذاكرتها. فذات صيف، قرَّر والدها أن يغطِّي سطح البئر منعًا لتكدُّس الأوساخ المتطايرة من الحقول. ترك فسحةً صغيرةً تسع يده كلَّما أراد أن يُزيل الغطاء المعدنيّ المثبَّت بالحجارة من الأطراف. من تلك الفسحة، تراءى لها أنَّ البئر تستغيث بها. تدعوها لتكشفها على الشمس والهواء. لكنَّها كانت صغيرةً، ولا قدرة لها على إزاحة الستار المعدنيّ. وكان عليهما ـ هي والبئر ـ أن تنتظرا الشتاء لتلتقيا من جديد. كم أطربها تساقط قطرات المطر على وجه البئر، وكم تمنَّت لو ينهمر صوتها بهذا الدفق العفويّ!

لعلَّها حملت البئر معها عندما انتقلت إلى بيت صالح. أدركت الآن أنَّها هي والبئر واحد. غير مرئيَّة. وجهها مقفل. ولا

أحد راودته الرغبة في النظر إلى قلبها. وتلك الضفادع كانت دائمًا حولها. لكنَّ نقيقها لم يكن لحمايتها من خطر، بل لإغراقها في عزلةٍ أبديَّةٍ مطوَّقة بجدرانٍ ثلاثة. الصمت والخوف والعار.

مساء ذلك اليوم، تفاجأت برجال القرية يتوافدون إلى بيتها. فرحت لرؤية فريد بينهم، وقرَّرت في سرِّها أن تنفرد به لتعرف سرّ ورديَّة. صالح عاد باكرًا من الحقل ومثلها تفاجأ بقدوم الرجال واحدًا تلو الآخر... يهنِّئونه بالسلامة، ويغدقون عليه عبارات المديح. لأوَّل مرَّةٍ تراه محاطًا بهالة الأبطال فيما الارتباك يُخيِّم على وجوه الرجال. تتداخل أحاديثهم ولا أحد ينتظر الآخر لينهي كلامه. كلّ واحدٍ منهم يسارع إلى اقتراح وجهة نظره، ويضطرّ إلى تكرار كلامه على من لم يسمعه. رجال ديرزوفا يتحدَّثون مع بعضهم بعضًا كأنَّ كلّ واحدٍ منهم في سهلٍ بعيد! مهما تقاربت كراسيهم يرفعون أصواتهم ملوِّحين بأيديهم لإعطاء كلّ كلمةٍ وزنها من الإيقاع. يكفي أن يجلس الجيران على الشرفات أو يعبروا في الأزقَّة، أو يتمشُّوا في ساحة القرية، لتصلهم الأصداء مع نسائم الليل كأنَّهم جميعهم موجودون في الجلسة.

لم يهدأ الرجال إلى أن وصل المختار، فتهيَّبوا جميعًا وساد صمتٌ تخلَّلته همساتٌ خفيفة. كلَّما رأت هيلانة المختار تذكَّرت ديك حديقتها. فهو يمشي مثله، صدره يتقدَّمه، رأسه يتحرَّك على إيقاع قدمٍ إلى الأمام وأخرى إلى الخلف، وحدقات عينيْه تدوران على نفسيْهما بسرعةٍ كمن يتحقَّق من أنَّ الجميع يراه، فيما تستقرَّان لحظةً على شاربيْه كأنَّه يريد التأكُّد من أنَّهما ما يزالان معقوفيْن إلى الأعلى بلا أيِّ خلل. كان المختار يقف أمام صالح

الذي وقف بدوره لتحيَّته، فيما ترك أحد الرجال مقعده داعيًا المختار للجلوس مكانه. لكنَّ للمختار كلمةً يودّ إلقاءها واقفًا. فجلس الجميع، وسحب المختار من جيبه سبحةً زرقاء وبدأ يقلب حبَّاتها وهو يتكلَّم بالفصحى:

ـ أعرف أنَّكم قلقون من احتفال عيد السيِّدة، واقترحتم أن نلتقي في بيت صالح. أوَّلًا لنشكره جميعًا على شجاعته التي أصبحت مضرب مثل لكلِّ شابٍّ ورجلٍ في القرية وفي القرى المجاورة أيضًا، وثانيًا لمناقشة ما يقلقكم... من جهتي، أنا مستعدٌّ لأيّ قرارٍ تتَّخذونه بالإجماع. طالما أنَّنا على قلبٍ واحدٍ فلا خوفٌ على قريتنا. لكنَّ إلغاء احتفال العيد يعني أنَّهم انتصروا علينا، وزرعوا فينا الخوف. أرغب في سماع آرائكم، وأقترح أن يتحدَّث صاحب البيت أوَّلًا... تفضَّل يا صالح، كلُّنا سمع.

جلس المختار قرب صالح، فتحرَّكت الأرجوحة إلى الخلف. سارع صالح إلى تثبيت قدمه في الأرض لتثبيت الأرجوحة، فيما راح المختار يوزِّع ابتساماته على الحاضرين في ادِّعاءٍ واضح بعدم الانزعاج من تلك الهزَّة التي كادت أن تفقده توازنه... بقيت هيلانة تتأمَّل حركات المختار مندهشةً بمهارته في رصف كلماته مثل حبَّات السبحة المتراصَّة.

ـ أهلًا وسهلًا بالجميع... قال صالح فتنحنح بعض الرجال ليستووا في مقاعدهم ويصغوا. شرّفتونا... شكرًا على زيارتكم. مع إنِّي ما عملتش شي بيستحقّ هاللفتة الكريمة منكم. انتو ما قصّرتوش... أخونا بو جريس وفارس وتوفيق اللحَّام ويوسف بو خطَّار والجميع كانوا إيد وحدة. وإنت يا مختار كنت عم تشرف

على كلِّ شيء، وكثّر خيرك. أمَّا موضوع احتفال عيد السيِّدة فأنا ضدَّ إلغائه. مثل ما تفضَّلت يا مختار، رح يفكِّروا إنَّهم انتصروا وإنَّهم خوَّفونا... ونحن منقبلش يفكِّروا هيك عنَّا... ضيعتنا رح تضلّ تدبك وتغنِّي وتصلِّي، لو احترق الجبل كلّه!!

ـ يعمر دينك يا صالح، هتف أحد الرجال.

ـ يا هيك رْجال يا بلاش، صرخ آخر.

ـ لو احترق الجبل كلّه... لو شكُّوا براسهم ألف ريشة، أضاف آخر.

كان صوت صالح يرتعد في قلب هيلانة وهي جالسة في الغرفة المطلَّة على الشرفة. مدَّت رأسها أكثر من مرَّةٍ لتحدِّق فيه وهو يتكلَّم. ما سرّ هذا الرجل الذي تكتشف كلّ يوم جديدًا فيه؟ من أين له هذه الفصاحة وهو بالكاد يحادثها؟ كيف لرجلٍ يتكلَّم بهذه الطلاقة أن يقبل بزوجةٍ تتأتئ؟ ومن هم هؤلاء الذين سيتحدَّاهم أهل ديرزوفا بالدبكة؟!

رأت فريد يشعل سيجارةً، وينفث الدخان مبعدًا عينيْه نحو الجبل كأنَّه يتمنَّى الفرار إليه. كم تودّ أن تعرف رأيه بصالح وكلامه هذا المساء! لم تستطع أن تقرأ ملامحه لتفهم إن كان معجبًا كسائر الرجال بما قاله زوجها، لكنَّها تعرف تمامًا قدرته على إيهام الجميع بأنَّه حاضرٌ بكلِّيَّته، ويصغي بانتباهٍ فيما يكون مستغرقًا بأفكاره ومنفصلًا عن الجميع.

عندما رفع المختار يديْه موعزًا إلى الرجال بأنْ يهدأوا، راح الأستاذ نبيل يسعل بقوَّة، فالتفتت إليه كلّ الأنظار، وراح أحدهم

يربِّت على ظهره، وآخر يُعطيه كوب ماء، فيما المختار ينتظر أن يسود الصمت ليتكلَّم ويختم الجلسة. شعرت هيلانة أنَّ كحَّة أستاذها مفتعلة مثل سعالها الذي تستعين به لتتجنَّب الكلام. لعلَّه يريد لفت الانتباه إلى دوره في إخماد الحريق رغم معاناته وحساسيَّته من الدخان، فصالح لم يذكر اسمه مع الرجال الذين أورد أسماءهم!

ردود الفعل على سعال الأستاذ نبيل اقتصرت على التمنِّي له بالعافية.. وسرعان ما توقَّف السعال، فاعتذر من المختار الذي كحّ هو أيضًا كأنَّه يحمّي حنجرته قبل أن يقول:

ـ حسنًا... حسنًا... كلُّنا متَّفقون الآن. لكنْ يجب أن نضع خطَّةً لنضمن سلامة أهالينا ليلة الاحتفال. في الهرج والمرج يضيع الشنكاش وتعمّ الفوضى... ماذا تقترحون؟

بدأ الرجال يتشاورون في ما بينهم. فقال أحدهم:

ـ منسكِّر الضيعة، منسمحش للغربا يدخلوها.

ـ وشو منعمل بالأحراج؟... أي حدا ممكن يتسلَّل منها، أجاب آخر.

ـ الغربا بيحضروا الاحتفال كلّ سنة. بيصرش نمنعهم...

ـ مزبوط. أهلنا بالضيع التانية... عيب نمنعهم.

ـ يللي بيتسلَّل من الأحراج لا بدّ يمرق من زواريب الضيعة ليوصل عالاحتفال... منلقطه ومنلعن سلَّافه!

ـ يسترجي حدا يقرِّب، نحنا قدها وقدود.

ـ صالح! ليش ساكت... شو رأيك؟ قال المختار.

ـ ما حدا بيسترجي يخرِّب العيد... قال صالح عاقدًا حاجبيْه محدِّقًا في كلِّ شخصٍ لثوانٍ، وممسِّدًا شاربيْه بطريقةٍ لا تُشبه إشارة النعاس... اللعبة رح تكون مكشوفة. يعني استغلال هالمناسبة بتضرّهم أكثر ما بتفيدهم. بس الاحتياط واجب... فينا نقطع الطرقات من الجانبيْن بحواجزَ حديديَّة مع شابَّيْن مسلَّحيْن على كلِّ مدخل. ونحنا بباحة الكنيسة منتولَّى الأمور في حال تسلَّل حدا من الحقول.

ـ كلامك منطقيّ، أجاب المختار. شباب البلديَّة هم الأفضل لحراسة المدخليْن. وفي الباحة، خلُّوا عيونكم مفتوحة... لا تشربوا عرق كثير. موافقين؟

ـ موافقين يا مختار.

بعد الاتِّفاق، أصبح الوقت مناسبًا للضيافة. خرجت هيلانة بصواني الفاكهة، وراحت توزِّعها على الطاولات، ثم تسارع لتجلب كؤوسًا من شراب التوت... تفقَّدت حماتها أكثر من مرَّة، فوجدتها جالسةً في سريرها مغمضة العينيْن. تمنَّت لو يلحق بها فريد إلى المطبخ وتحظى بدقائق معه فيمحو تساؤلاتها ويُعيد إليها ما فقدته في الحريق! لكنْ سرعان ما بدأ الرجال يغادرون واحدًا تلو الآخر... لمحت فريد ينزل الدرج من دون أن يودِّعها. بوصالح سبق الجميع إلى السرير. لم يعد أمامها سوى صالح... تمنَّت ألَّا ينعس فجأةً، ويسهر معها لساعةٍ واحدة فقط علَّه يطفئ نار قلقها!

عندما دخل البيت ومشى صوب غرفتهما، لحقته. خلع جاربيْه كأنَّه يسحب تعبه من أخمص قدميْه.

ركضت إلى الشرفة ترتِّب الطاولات وتلملم ما بقي عليها من صحونٍ وكؤوس. حملتها دفعةً واحدة وهمَّت في الدخول. التقته على العتبة. خرج من غير أن ينظر إليها. وعندما عادت من المطبخ رأته واقفًا كأنَّه يتأمَّل عودة السكون إلى القرية. رائحة الرماد تراجعت مع هبوط الليل.

ـ صالح... ريِّح إجريك... اقعد... مين قولك حرق الحرش؟ معقول حدا من الضيعة؟ وليش؟

ـ كلّ شي معقول. هالضيعة فيها أشكال وأخبار.

ـ ليش ليحرقوا الحرش؟ شو بدهم؟

ـ لمَّا نعرف مين هنِّي، منعرف شو بدهم...

ـ بركي القصَّة مش مفتعلة. يعني حدا كبِّ سيجارة أو شي...

ـ يللي بيعاشر الحدّاد بيكويه بناره.

ـ شو يعني؟

لم يجب. أغمض عينيْه، وأرخى جسمه على الأرجوحة.

ـ تعبان كثير؟ صحّ؟... أنا قلقت كتير على حماتي. انصدمت. الكلّ بينسى إلَّا الأمّ. مش هيك؟ صالح... يا صالح... أيمتى رح تحكيلي شو صار؟ أنا زعلانة منّك كتير. الكككل تفاجأ إنَّك مش مخبِّرني.

ـ اسمعي يا هيلانة... قال فاتحًا عينيْه فجأةً ومحدِّقًا بها كأنَّها هي من أحرقت الحرش. لا بقى تحكي بهالسيرة... تحرِّكيش الجمر تحت الرماد. انتهى الموضوع.

ـ بس من حقّي أأأعرف..

ـ هيدا كلّ يللي لازم تعرفيه... لا أكثر ولا أقلّ.

التفتت هيلانة إلى الزقاق خائفةً من أن يسمع أحدٌ حديثهما. وقالت هامسةً: لو ما احترق الحرش ما كنتش عرفت بحياتي يا صالح.. معقول؟

ـ وشو بفيدك إذا عرفتي، ها؟... حشريَّة نسوان وبس!

ـ ... ععع عيب تقللي حالحكي. أنا حشريَّة نسوان؟ أنا مممرتك... كيف ما بعرف إنَّه ععنك أخت... معقول؟ بترضى أنت خخخخبّي عنك قصص؟

ـ بخبِّيش عنّك شي... بس موضوع أختي انتهى. كان عندي أخت. احترقت وماتت. منيح هيك؟ شو بدِّك بعد؟ ووقف مبتعدًا خطواتٍ، فلم تعد ترى وجهه...

ـ بس كيف؟ حادث أو مقصود؟ بدِّي أتطمَّن على عيلتي.

ـ اتطمَّني... عيلتنا بخير... فايت نام. تصبحي على خير.

هيلانة بعد الحريق غيرها قبله. بعد خروج صالح إلى الحقل، قامت بكلِّ أعمالها اليوميَّة من دون الراديو، لم يرفّ لها جفنٌ مع قدوم الزوَّار للاطمئنان على أمّ صالح، ولم تجهد في إعداد قائمة مفرداتٍ بديلة في حال تكلَّم معها أحدٌ فجأةً. مرَّ أسبوعٌ وهي على هذه الحال. تخبز كلّ يومٍ مع أمّ صالح، تحلب البقرتيْن، تعدّ الطعام وتهتمّ بهبة... وكلَّما جاءت عفاف للصبحيَّة أو نادتها بعد الظهر مكرِّرةً جملتها الشهيرة: «إذا كنت بمصر، لا

تفوّت قهوة العصر»، تكتفي بالإصغاء إلى حديث جارتها، وتأمُّل ابنتها هبة وهي تكركر من الضحك على مداعبات عفاف. أذهلها كيف عاد كلّ شيءٍ إلى سياقه الطبيعيّ. انطفأ الحريق ومعه انطفأت ذاكرة الناس. أسبوعٌ مرّ من دون أن يفتح أحدٌ السيرة لا في بيت صالح ولا في بيت الأستاذ. لا أحد يبحث عن سبب الحريق. مفتعلٌ أم لا؟ من هم المرتكبون؟ من أهل ديرزوفا أم القرى الأخرى؟ كيف نحمي الحرش من حريقٍ آخر؟ كيف لم يرقَ الحريق إلى مصاف الأحداث الأخرى التي تبقى على الألسن لأسابيع وأحيانًا لأشهر، قبل أن يطرأ أمرٌ جديدٌ يخطف الاهتمام؟ وكيف تلاشت في أيّامٍ صدمةُ أمّ صالح من ذكرى فراشتها المحترقة؟

في الأسبوع الثاني، لم تحاول هيلانة أن تفهم ما أصابها. لكنَّها كانت تشعر بخفَّةٍ غريبةٍ كأنَّها بلا جسد ولا وجه ولا صوت. وذات مساء، وفيما هي جالسة وحدها كعادتها في كلِّ ليل، لمعت في رأسها عبارةٌ تمنَّت لو تكتبها في دفترها الصغير: «عندما يبلغ الإنسان قاع الأحزان تنبت له أجنحة اللامبالاة، فيُخيَّل إليه أنَّه أصبح محصَّنًا من الصدمات كالسلاحف في أصدافها..».

لا تدري إنْ كانت تلك العبارة التي أوصلتها إلى السكينة، دفعتها أيضًا إلى الخروج من البيت ذات صباح متَّجهةً نحو القرية، أم أنَّ الهمود الذي أصاب أهل ديرزوفا بعد الحريق انتقل إليها كالعدوى! لم تُخطِّط كعادتها عند اضطرارها لمغادرة البيت. عبرت الزقاق كما يمشي الهواء... سلَّمت على المارِّين كأنَّها

شخصٌ آخر، دخلت دكّان نادية الصهباء، لم تحيِّي أحدًا من الموجودين ولم تحصِ عددهم ولم تنظر في عيونهم. مشت تتفقَّد الرفوف المكدَّسة بالأغراض. لا فراغات بينها. لا خلل في ترتيبها جنبًا إلى جنب... لكلِّ صنفٍ رفّ. ولكلِّ غرضٍ مكانٌ على قياسه. على هذا النحو تُرتِّب نادية الصهباء خططها الجهنَّميَّة مع التجَّار لسحب البساط من تحت جورج، وسلبه كلّ ما يملك «وهو مبسوط».

اشترت هيلانة سكاكر. وانتقلت إلى ركن الألعاب. اختارت لهبة لعبةً على شكل زرافة. «إذا بدِّك مفرقعات لعيد السيِّدة، روحي يمين» هتفت لها نادية... سمعت وقع خطى يقترب من الخلف. التفتت لترى صبيَّة في مثل سنِّها تحيِّيها: «هيلانة؟ بونجووور... شفتك من بعيد وصرت قول: هيِّي؟ مش هيِّي؟... كيفك؟ زمان والله... ما عرفتيني؟»

هيلانة عرفتها... واكتفت بأنْ ابتسمت قبل أن تقول بصوتٍ متهالك: «رنا... كيفك؟ عرفتك... شو... بعدك... بقصد... شو أخبارك؟»

ـ «ههههه... بعدك متل ما إنتِ».

تمنَّت لو تصفعها. لو تمسكها من حنجرتها وتجرجرها في الدكَّان. ارتعبت للصورة التي خطرت في بالها!

ـ ما حدا بيضلّ على حاله، أجابتها فيما بدأت تشعر بثقلٍ فوق كتفيْها... وإنتِ؟

ـ أنا مخطوبة، أجابت وهي ترفع يدها في وجه هيلانة كي

تُريها الخاتم اللمَّاع في بنصرها الأيمن.

ـ صحيح؟ مبروك...

ـ بحبّ زورك شي يوم... بتستقبليني؟

ـ أكيد.

ـ بكرا بعد الظهر، ممكن؟ أو الصبح. أيمتى بتفضّلي؟

ـ أيّ وقت... المهمّ قبل الساعة سبعة.

ـ تمام.. اتَّفقنا.

انسحبت من أمامها، واتَّجهت إلى حيث تجلس نادية مستغربةً حماسة رنا لزيارتها. تلك الفتاة التي كانت تجلس إلى جانبها في الصفِّ، لم تسخر منها كالآخرين، أو على الأقلِّ لم تردِّد معهم أغنية التأتأة... لكنَّ هيلانة كانت تراها في الملعب مع أكثر الفتيات نميمةً، وقرَّرت ألَّا تثق بها عندما سمعت لأوَّل مرَّةٍ الأستاذ نبيل يقول: «قل لي مَنْ تعاشر أقل لك من أنت».

اقتربت من المكتب الذي تجلس خلفه نادية الصهباء وشيءٌ ما يرفع قدميْها عن الأرض. تلك اللامبالاة التي جعلتها تتحدَّث ولو باقتضاب مع رنا. تلك الخفَّة التي تدفعها الآن لمواجهة أكثر النساء مكرًا ـ نادية الصهباء. تلك الطمأنينة بأنَّ الوحش بعيدٌ عن كتفيْها... ومع ذلك، عندما التقت عيناها عينيْ نادية، لم تخرج منها سوى كلمةٍ واحدة:

ـ لو سمحتِ... وأشارت بإصبعها على الأكياس.

ـ كيس كيسين وثلاثة كمان للقمُّورة. والله وشفناك يا ستّ هيلانة.

دفعت هيلانة ثمن الأغراض، وخرجت. شعرت أنَّها تعتلي بغلة صالح. . أهكذا يكون شعور الحرِّيَّة؟ أم هي اللامبالاة التي أرخت عضلاتها كلّها حتى شعرت أنَّها بالكاد موجودة؟ أكملت طريقها حاضنةً الأكياس كأنَّها تجمع ثقتها في صرَّة. لقد قطعت شوطًا كبيرًا اليوم. عليها ألَّا تضعف. من ينجو من محادثة مع نادية الصهباء مهما كانت مقتضبة، يستحقّ الزهو بنفسه. مرَّت من أمام اللحَّام. لا تحتاج إلى شيء، لكنَّها تذرَّعت بشراء كيلو مفرومة عندما وجدت المحلّ مزدحمًا. ها هي فرصة أخرى لتعيش فروسيَّتها المتخيَّلة. لن يشتدّ اللجام على عنقها، ولن يخونها صوتها طالما استمرَّت في لامبالاتها. ستنجح في إطلاق العنان لصهيلٍ قديمٍ سئم سجنه. . . حيَّت الجميع. ووقفت تنتظر دورها.

ابتسمت هيلانة لبقيَّة النسوة الواقفات أمام الملحمة، كلَّهنَّ صديقات أمّ صالح. . . خطر لها أنَّ جميعهنَّ يزرن الأخ ألبير أيضًا. أمام نفوسٍ تصدِّق الخرافات، شعرت هيلانة لأوَّل مرَّةٍ بأنَّ اختلافها نعمة!

ـ إذا مستعجلة بعطيكِ دوري، قالت أمّ فارس. أنا ما حدا ناطرني بالبيت. بشتري لحم لأتسلَّى بالطبخ.

ـ . . . لا معليش.

ـ بضل وحدي الله وكيلك. . بو فارس صار بدنيا الحقّ. فارس بشوفوش. . . أو بالبستان أو نايم. . . قلت له يا أمِّي فرِّح قلبي وتزوَّج، قال: فش وقت. . . تخيَّلي؟. . .يا أمِّي تزوَّج وفرِّح قلبي لشوف أولادك قبل ما أموت. . . أبدًا. . . فالج لا تعالج.

ـ الله يعطيكِ الصحَّة... وبعيد الشرّ عن قلبك.

اللحَّام يناولها كيس اللحمة.

ـ صالح بيحاسبك، همست له.

ـ ببخاطرك أمّ فارس... زورينا.

ـ بخاطرك يا حبيبتي. يخلِّيلي هالوج الحلو... يسعد صباحك. الله يحميك ويرّد عنك.

ابتعدت هيلانة فيما أمّ فارس مستمرَّة بدعواتها. شكَّت أن تكون غائبةً عن الوعي عندما تحدَّثت مع النسوة. الوعي شقاء. وما قالته لم يكن سوى تكرار جُملٍ وعباراتٍ تسمعها من أمّ صالح. كلام عجائز... هل شاخت من غير أن تدري؟ وكيف انتقلت فجأةً من فئة الأطفال الذين لا يأخذهم أحدٌ على محمل الجدّ وتُحجب عنهم أخبار الكبار، إلى فئة الشيخوخة التي لا يحاكمها ولا يحاسبها أحدٌ على أقوالها. للعجائز كما للأطفال في ديرزوفا نعمة التلهِّي بأيِّ شيءٍ وقول ما يريدون، لا فرق يحدثونه في حياة القرية، ولا يعوَّل عليهم لتغيير مجرى الأحداث! كأنَّهم للزينة أو للترفيه!

تمنَّت لو أنَّ الفرصة أُتيحت لها لتستدرج أمّ فارس إلى الكلام على ورديَّة. ندمت لأنَّها لم تستغلّ لقاءها، فتقول لها: «أمّ صالح تعبانة، الحريق ذكَّرها ببنتها». هل ستفرغ أمّ فارس كلّ ما في جعبتها وجعب ديرزوفا من أخبار وحكايات؟ أم ستقول كالآخرين: «... والموت واحد!؟» متى يتوقَّف هذا الندم على حواراتٍ لم تحصل!؟ وإلى متى سيستمرّ هذا الشعور اللذيذ

بالخفَّة؟ تمنَّت لو أنَّ الطريق أطول... لو تدخل كلّ الدكاكين فتعيش مغامرة اللامبالاة هذه. ندمت على عمرٍ ضاع خلف جدران البيت. نظرت صوب بيت أمّ عادل. كانت قدماها على بساط الريح عندما لوى كاحلها فصرخت متألِّمة. حفرةٌ في الطريق خلخلت جسدها الشفيف اللامرئيّ.

أسرعت لتصل البيت. ولم تكد تدخل الصالون حتى سمعت حماتها تردِّد لعنةً تلو الأخرى. وجدتها تغسل الصحون وهي تهمهم. فيما هبة على الحصيرة وسط المطبخ تلعب.

ـ شو؟ وين هالغيبة يا ستّ؟

ـ كنت بالساحة... غرضين وجيت... مراة عمِّي؟ شو بكِ؟

جرَّت أمّ صالح نفسها بصعوبة لتصل إلى الكنبة على الجهة المقابلة للمجلى. جلست تلتقط أنفاسها. اقتربت هيلانة منها:

ـ احكيلي، شو صار بغيابي؟...

ـ حطِّيت لبنة بدُّوش... قليت بيض بدُّوش... فش شي عاجبو اليوم! قلتلو روح من وجّي بدِّيش شوف خلقتك... طلع عالسطح من ساعتيْن ما نزلش.

ركضت هيلانة لتتفقَّد عمَّها على السطح. للحظة تخيَّلت أنَّه سيقع وتتكسَّر عظامه. فهو بالكاد يرى بعدما أُصيبت إحدى عينيْه بالماء الزرقاء.

رأته جالسًا على حجرٍ تحت شجرة الجوز. دنت منه. مدَّت يدها لتسعفه على الوقوف:

ـ الشمس قويَّة. . . انزل معي.

ـ بدِّيش إنزل. . . إن شاء الله بتحرقني الشمس لأرتاح!

ـ بعيد الشرّ عن قلبك.

جلست بقربه، وحاولت أن تعتدل في قعودها على حجر.

ـ ليش زعلان؟

ـ ليش زعلان؟ كلّ عمري زعلان. . . مين حاسس فيِّي؟ مفكّرة حالها هي وحدها زعلانة!

ـ تحكيش هيك يا عمِّي. . . إنت بب. . بركتنا بهالبيت. يطوِّل عمرك.

ـ لشو بدُّو يطولو؟؟؟ للقهر؟ وحياتك لو ما إنت وبنتك كنت طقِّيت من زمان. مليون مرَّة قلتلّها بدل البنت صار عنَّا اتنين. . . اقبلي بمشيئة الله. تتمرَّديش على نعمته. . . أبدًا. . . كأنِّي بحكي مع حيط. يا ريت حيط. . . الحيط بينكِّدش عليِّ حياتي!!

ـ مش هيِّنة يا عمِّي. . . قلب الأمّ. . .

ـ قلب الأمّ؟! وقلب البيّ شو؟ بيسواش؟ فكرك قلبي مش محروق؟ محروق ومرمَّد كمان. بس الحمد لله على كلّ شي. كتّر خير الربّ. . . الله بيضربش إلَّا ليعين. بقلِّها هيك بتقلِّلي لو إنَّك كنت معها ما كانتش احترقت. شو بعمل بحالي أنا؟ قوليلي؟ كيف بدِّي خلِّيها توقِّف نقّ وبقّ ونكد؟

كانت كلماته تتسرَّب من فمه المقفر من أيِّ سنٍّ، لتصل إلى قلب هيلانة حارقة موجعة. هذا العجوز الطيِّب يفضفض لها ما في قلبه ولا يعلم كم أدخل الفرحة إلى قلبها. شعرت أنَّ لوجودها

قيمة ولابنتها دور في عناد الحياة الطالع من صوته. أمسكت يده، لامست تحت أصابعها شرايين نافرة كغضبه الآن. ربَّتت عليها. خافت أن تستغلّ الفرصة وتسأل عن ورديَّة، فيغضب من جديد.. كان قد بدأ يهدأ. زفر أنفاسًا طويلة.

ـ طوِّل بالك. ما تنقهرش وتحتدّ هيك. بيسواش لصحَّتك... تعا... انزل معي... تعا... جبت ألعاب جديدة لهبة... بدَّك تشوفها؟

عندما عادا، كانت هبة وحدها في أرض المطبخ. «تفضَّلي. تاركة البنت وحدها... شو بعْمل بحالي أنا؟؟» كانت خيوط الشمس تدخل المطبخ، وتغمر قلب هيلانة بأمنيةٍ واحدة: أن تغضب مثل العجائز ليرتعد صوتها غير عابئٍ بأحد... الخوف يتراجع مع التقدُّم في العمر. الشباب وحده يبحث في عيون الآخرين عن الإعجاب، عن القبول، عن الاعتراف بوجوده. ها هو بوصالح قال وكفر وشتم، ولم يبالِ... وها هي أمّ صالح تركت الطبخة على النار وهبة قرب الغاز، ولم تبالِ إنْ احترقت الطبخة أو احترقت هبة!

* * *

عشيَّة عيد السيِّدة، نامت هيلانة مع مخاوف كانت تنضح مع عرقها تحت حرارة شهر آب الهاجمة من النافذة. تراءت لها صورتها وسط الجمع في الاحتفال. الناس يتحلَّقون حولها... هي في الوسط تدور حول نفسها متلبِّسةً بالتأتأة. صوت الجرس يتحوَّل إلى قهقهاتِ سخرية. الدمية تتفكَّك... هل من معجزةٍ تأتي بالرعد فيرفعها بحبل الجرس إلى سماواته، لتجمع في قبضتها حزمةً من النجوم وتقذفها في العيون الساخرة؟ كم تُثيرها تلك الصور! ذراع الدمية تضرب أحدهم. قدمها تركل آخر. أصابعها تفقأ كلّ العيون. .رأسها يرتفع مقهقهًا، والأجساد تتهاوى تحت نظرها واحدًا تلو الآخر... ارتعد قلبها خوفًا من جرائمها المتخيَّلة... القاتل مقتولٌ سابق. الألم أصل الجريمة. ما زالت تذكر تلك القصَّة التي سمعتها في الراديو عن شابٍّ أميركيٍّ قتل أمّه وزوجته وستَّة عشر شخصًا!! وقبل أن ينتحر،

طلب تشريح جثَّته لشكِّه بخللٍ دفعه إلى ارتكاب جريمته. كان ذلك في العام 1966. أرعبها الخبر آنذاك... والآن، يعود بكلِّ تفاصيله التي سمعتها من الراديو. هل يمكن أن تكون مُصابةً مثله بورمٍ في الدماغ يغذِّي ميلها إلى العنف؟ لو أنَّ صالح لم يصرّ على حضورها لاحتفال عيد السيِّدة، لحماها من أفكارها الشريرِّة التي تنمو في العتم. نهضت من سريرها عطشى، أنفاسها تعبر الرواق وتخيفها. شربت... جلست على كنبة المطبخ... الليل يوقظ شياطينها... حين عادت إلى السرير، طوَّقتها ذراع صالح. سمعت صوتها يهمس: «زنزانتي الجميلة... حرِّيَّتي الوحيدة».

«لمَّا تتعبي، وتنعس هبة ارجعي عالبيت»، قال لها صالح صباح اليوم التالي عندما أبلغته أنَّها لن تحضر الاحتفال. لم يوافق على بقائها في البيت مع حمويْها. «ولا مرَّة بتحضري الاحتفال... مش حلوة روح وحدي كلّ سنة».

استغربت إصراره على مرافقته هذا العام، لكنَّها فرحت في سرِّها. ستتأبَّط ذراع البطل وتمشي. في جعبتها السعال وحيلة الكلمات.

الآن، عليها أن تستعدّ لاستقبال رنا. كانت متحمِّسةً لمجيئها. لا شكَّ أنَّ تلك الفتاة لديها الكثير من القصص عن أهل القرية. ولعلَّها تعرف قصَّة وردِيَّة!

ما إن وصلت رنا حتى بادرتها: «الأستاذ نبيل صار جارك؟

الله يعينك. . . «كيف حالُكِ أيَّتها الصبيَّةُ؟» هاهاهاها، بشرفك مش هيك بيحكي؟»

ـ ع سلامته الأستاذ نبيل.

ـ دخيلك ما أتقل دمّه. معقول حدا بيحكي هيْك؟ بتحسِّي حالك بكتاب القراءة! طلع بخلقتي هلَّق، نأزني. ما تركش سؤال إلَّا ما سألني إيَّاه. . .

كانت رنا تتأمَّل الشرفة وما فيها، وتسأل عن الحمويْن هامسةً. وحين قالت لها هيلانة إنَّهما في المطبخ، حرَّكت رنا يدها كأنَّها تطرد ذبابةً، ففهمت هيلانة أنَّ أمرهما لا يعنيها بقدر ما أرادت استدراجها للنميمة على الحمويْن، كعادة كل كنّة في ديرزوفا.

لا تعلم هيلانة أين تُحدِّق كلَّما التفتت إلى رنا. ففوق عينيْها كحلٌ أزرق عريض. وعلى شفتيْها حمرةٌ برتقاليَّة لزجة كالسمن البلديّ. نظرت هيلانة إلى قميص رنا المورَّد، كان ضيِّقًا وتكاد أزراره تتفتَّق. أمَّا الجينز الأزرق، فهو عريض عند الساقيْن وفضفاض تبرز من أطرافه أصابعها بأظافر طويلةٍ ملوَّنةٍ بالأحمر. كلّ هذا التضارب في الألوان والأحجام شتَّت تركيز هيلانة على ما تقوله زائرتها.

ـ أكيد سمعتِ بقصَّتي. . . قالت لها.

ـ أيَّة قصَّة؟. . .

ـ معقول؟ ما عرفتي قصَّتي مع الشبّ المسلم، وكنت رح روح معه خطيفة؟

ـ لا. . . أنا ما بشوف حدا.

ـ كلّ عمرك هيك. . . ردَّت رنا ضاحكة. ما حدا بيعرف عنك شي ولا بتعرفي شي عن حدا.

ـ صحيح، معك حقّ. احكيلي. . . شو قصَّتك مع هالشبّ. . . ؟

بدت رنا كأنَّها تتحدَّث عن فتاةٍ أخرى. نبرتها تشي بلامبالاةٍ غريبة، أو كأنَّ الحكاية مرَّ عليها زمنٌ طويلٌ وتلاشى وقعها المؤلم عليها. أخبرتها كيف كشف أهلها أمر علاقتها بالشابّ المسلم من القرية المجاورة، وكيف ضيَّقوا عليها الخناق ولم يعد مسموحًا لها أن تخرج من البيت لشهورٍ طويلة. كشفت لها أيضًا أنَّ أهل الشابّ كانوا أشدّ رفضًا من أهلها، حتى استسلمتْ ونسيتْ أمره. وها هي الآن مخطوبةٌ لشابٍّ من ديرزوفا. أحسَّت هيلانة أنَّ الحكاية مألوفةٌ لها. صديقات أمّ صالح تناولن قصَّةً مشابهة قبل سنوات، ولم تُفتَح السيرة من جديد.

ـ بتحبِّيه؟

ـ مين؟ خطيبي أو المسلم؟

ـ خطيبك طبعًا.

ـ يمكن حبّ بعدين. . .

ـ صحيح. . . بتحبِّيه بعد الزواج. بحسب المعاملة.

ـ لا يا غبيَّة. . . عمْ بقول إذا ما كان على مزاجي. طزّ. . . بعيش حياتي.

لا جواب كان يخطر في بال هيلانة. عيناها مسمَّرتان على

شفتيْ رنا. لا تعلم إذا كانت كلمة «غبيَّة» هي التي جمَّدت كلّ ملامحها أم العبارة التي تلتها! رأت في الحمرة البرتقاليَّة لون الفجور. أمسكت تفَّاحةً لتقشِّرها. استغرقت في تقطيعها، وتمنَّت لو تنحر عنق تلك الفتاة التي بدت مشروع امرأةٍ فاسدة على خطى بعض نساء ديرزوفا... ندمت لأنَّها قبلت استضافتها في بيتها. قرَّرت ألَّا تستقبلها مرَّةً أخرى. قدَّمت لها التفَّاح، وتراجعت في مقعدها متمنِّيةً أن يأتي أحدٌ ليفضّ الجلسة. لكنَّها في لحظة الانكفاء هذه خطر لها أنَّ رنا قد تكون أفضل مصدرٍ لها لكشف سرّورديَّة. فلا شيء سيردعها طالما أنَّها قادرة على جرحها ووصمها بالغباء، وطالما أنَّها قرَّرت منذ الآن خيانة خطيبها.

ـ رنا... بتتذكَّريورديَّة؟

ـ أخت صالح؟

ـ ليش في غيرها؟

ـ بصراحة، ما في غيرها وما في متلها... هيك بيقولوا. ما بتذكَّرها، لأنَّها ماتت قبل ما نخلق أنا وإنتِ. بسّ بعرف قصَّتها... مسكينة!

ـ مسكينة فعلًا...

ـ بيقولوا صالح تعلَّم يطفِّي الحرايق من يومها. كأنَّه بدُّو يخفِّف شعوره بالذنب.

حبست هيلانة أنفاسها... كأنَّ ماءً باردًا انسكب عليها. لم تشأ أن تظهر أمام رنا «كالأطرش في الزفَّة»، فهمست: قصص كتيرة انحكت.

ـ أوووه كتيير... ردَّت رنا وهي تقضم قُطَع التفَّاح بحرصٍ شديد مخافة أن تفسد حمرة شفتيْها. واستمرَّت في القضم والكلام من غير أن تنظر إلى هيلانة: «قالوا إنَّها كبَّت حالها بالنار لمَّا ولَّع صالح حقل القمح. كانت تحبّ ربيع. بتعرفيه... ابن توفيق روكز. وبتعرفي ما حدا بيقبل يصاهر بيت روكز... بس بفتكرش هالشي مزبوط! كان فيها تنتحر بغير طريقة... ما خبَّرك صالح شو صار؟ ناس بيقولوا إنو ما انتبهلها وهي تلعب بالنار. كان عم بدير الميّ على الزرع. وناس قالوا إنَّه أنيس الأخوت... بتعرفيه أكيد... هيدا السكِّير بالحارة التحتا. قالوا إنَّه هو دفشها عالنار لمَّا تمسخرت عليه. كان صالح يشفق عليه ياخده معه عالبستان بدل ما يشرب عرق كلّ النهار. ما حدنش بيعرف شو صار... شو ما قالوا... راحت. ضيعانها... وين بنتك؟ إن شاء الله تكون حلوة متل عمّتها! خلِّيني شوفها...

الحكايات تخرج من فم رنا كالدبابير من وكرها. الاحتمالات التي سردتها وقضمت نصفها مع التفَّاحة، أصابت هيلانة بدوار... حاولت أن تنهض. توقَّفت لثوانٍ كي تتوازن، وتلتقط أنفاسها وتدخل. أسرعت إلى الحمَّام... غسلت وجهها. تأمَّلته في المرآة. تمسَّكت بالمغسلة لتستعيد قواها وتفكِّر بطريقةٍ تخلِّصها من رنا بأيِّ طريقة. كانت تنتظر أن يأتيها أحدٌ بجوابٍ على سؤالٍ وحيد: كيف ماتت ورديَّة؟ والآن، مع كلِّ هذه الحقائق الملتبسة التي عرضتها رنا، أسئلةٌ كثيرةٌ تنبت كالأشواك تُدمي قلبها الذي يقرع كجرس الكنيسة إنذارًا لحرائقَ جديدة.

وصول سيَّارةٍ إلى باحة البيت أعاد هيلانة إلى الشرفة.

ـ بيي. . هيدي فادية وعيلتها. يللا خلِّيني روح أنا.

كرجت رنا على الدرج فيما حكاياتها عن وردِيَّة تطنّ في أذنيْ هيلانة. وردِيَّة انتحرت؟ رُميت بالنار؟ صالح أم أنيس؟ من المذنب!؟ عاد فم رنا يرتسم أمام عينيْها وهو يقول: «غبيَّة!». . . بقيت على الشرفة تحاول استعادة هدوئها ريثما يصعد ضيوفها.

ـ شو كانت عم تعمل الستّ رنا هوْن؟ بادرتها فادية.

احتضنتها هيلانة، وكادت تبكي. لا تريد أن تفسد على أختها ليلة العيد ولا أن تتراجع عن قرارها بالمشاركة في الحفل. لن تُخبرها الآن ما قالته رنا عن وردِيَّة. تحتاج إلى وقت لتستعيد كلّ التفاصيل قبل أن تشاركها مع أحد. لن تفتح لها سيرة تعميد هبة. فتحت الخزانة، وأخرجت الفستان الذي قرَّرت ارتداءه لأمسية العيد، وعاد إلى وجهها الزهو.

الساحة تعجّ بالناس. أطفالٌ يركضون. صبايا يتمايلن. نسوةٌ يتمشَّيْن على مهلٍ لتفحُّص كلّ عابر. يتهامسن. يتوقَّفن للسلام على غرباء من خارج القرية جاؤوا للمشاركة في العيد. باحة الكنيسة مزيَّنة بأضواءٍ ملوَّنة. توقَّف صالح أكثر من مرَّةٍ عند مصادفة بعض رجال القرية. سألهم عن الحواجز، وإذا كانت الأمور تسير بحسب الاتِّفاق. استغلَّت هيلانة الفرصة لتسلِّم على أمّ بيار وأمّ فارس وبعض الصبايا اللواتي لا تعرف أسماءهنَّ. لم تضطرّ إلى السعال. كان الضجيج عاليًا فتذرَّعت مرارًا بعدم سماع الكلام لينقطع الحوار. وصلا إلى باحة الكنيسة. تجمهر الناس

حولهما. الجميع يريد أن يسلِّم على صالح. بدأت تشعر بالاختناق بعدما زاد عدد الأشخاص حولها. بحثت عن أختها. لم تعرف هيلانة في أيِّ اتِّجاهٍ تنظر. الباحة تغصّ بالناس. وجوهٌ أليفة وأخرى لم ترها من قبل. صالح منشغل بالحديث مع الناس. بدا لها جذَّابًا كما في تلك الليلة عندما استضاف رجال القرية والمختار. شعرت بيدٍ تربِّت على كتفها. استدارت لترى أختها أخيرًا إلى جانبها.

ـ تتحرَّكيش من هون، قالت لها هيلانه، خلِّيكِ معي.

ضحكت فادية من رؤية أختها مرتبكةً وسط الحشد.

ـ إجا فريد؟ سألتها هيلانة.

ـ ما شفته بعد. بتشارطي أنّه مش رح يجي؟ تعي نتفرَّج على الأكل.

استأذنت هيلانة من صالح، وحملت هبة لتلحق بفادية وهي تحاول اختراق الصفوف للوصول إلى مكان عرض المأكولات والحلويات التي حضَّرتها نسوة القرية. عندما وصلتا بعد عناء، فوجئت هيلانة بالأطباق المصفوفة جنبًا إلى جنب، وتفصل بينهما مزهريَّات مملوءةٌ بأزهار الزوفا. استاءت لأنَّها لم تشارك في إعداد أيٍّ منها. استاءت أكثر لأنَّ أحدًا لم يخطر في باله أن يطلب منها المشاركة. لامت نفسها لأنَّها ليست جزءًا من حراك القرية. صالح أفضل منها. الكلّ يتَّكل عليه. «الرجل جبل، صخرة... سيف ورمح». جالت بعينيْها على المكان باحثةً عنه. لم يعد واقفًا حيث تركته. ضاع بين الحشود. وهي تكاد تفقد

توازنها وسط كلّ هذا الازدحام. لم تدرك قبل اليوم عدد سكّان القرية. كانوا كثرًا ومن كلِّ الأعمار. استغربت كيف لا تشعر بوجود هذا الكمّ من البشر وهي في بيتها. التفتت باحثةً عن فساتين خالتها على أجساد النساء. كالفاكهة الفاسدة تتجمَّع النسوة في مكانٍ واحد، ويرفلن بفساتينهنَّ. خطرت لها مقولة حماتها: «لبِّس العود بيجود». وسرعان ما فكَّرت: «الفستان لا يجمِّل المرأة، بل يكشف نواياها».

بدأت أصوات الناي تتناهى إلى مسمعها وصوت إيقاع الدربكة يتعالى. التفتت إلى وسط الباحة فرأت المختار يستعدّ لإلقاء كلمة. صفير المذياع يصمّ الآذان... أحد الشبَّان يحاول إصلاحه... دقائق مزعجة تمرّ قبل أن يختفي الصفير. آلو... آلو... مسا الخير... آلو... يردّ بعض الصبية: آلو... آلو... مسا النوووور... الحشود تتقارب أكثر. تبدأ الأصوات بالتلاشي مع حشرجة صوت المختار استعدادًا لإلقاء خطابه:

ـ مسا الخير للجميع... آلو... آلو.... أهلًا... أهلًا وسهلًا بكم في احتفالنا السنويّ بعيد السيِّدة العذراء عليها السلام. هذا العيد الذي يتهافت عليه كلّ عام الكبار والصغار من ديرزوفا والقرى المجاورة. نرحِّب برئيس البلَديَّة وعائلته وجميع أهالينا الذين أتوا من بيروت خصِّيصًا للاحتفال معنا بعيد سيِّدتنا العذراء.

ـ لو بيختصر! بدنا ندبك، همست لها فادية.

هيلانة مشدودة إلى المختار أمام المذياع. كيف يرتِّب كلامه

هكذا؟ لا ورقة في يده، صوته لا يرتجف أمام كلّ تلك الحشود.

ـ بتعرفي إنَّه المختار كتب رسالة لرئيس أميركا بيحتجّ فيها على الرحلة للقمر؟

ـ عم تمزحي؟

ـ لا والله... كتبله: «إنَّكم تسلبون أحلامنا عن القمر، حارس العشَّاق وملهم الشعراء»... هاهاها.

ـ أوف! ما أحلاه... وردّ عليه الرئيس؟

ـ طبعًا، ووقَّفوا كلّ الرحلات ع القمر!! أختي؟... أميركا بدها تردّ على مختار ديرزوفا؟

ـ والله، أنا احترمت هالمختار. كلامه صحيح... وعادت لتصغي إلى خطابه.

ـ «... احتفالنا اليوم مميَّزٌ أكثر، لأنَّ السيِّدة العذراء مريم عليها السلام احتضنتنا كما تحتضن طفلها، وبفضلها نجونا قبل يومَيْن من حريقٍ كبيرٍ كاد يقضي على حرش الصنوبر في أوَّل القرية. من حبّ سيِّدتنا العذراء ورحمتها استمدَّ شبابنا ورجالنا القوَّة والعزم على تحدِّي النيران وإنقاذ ديرزوفا وأهلها وبيوتها من الحريق...».

ـ صالح طفّى الحريق كله. همست هيلانة في أذن فادية التي لم تعلِّق. بدت منشغلةً بمراقبة الحشود وهي تتدفَّق إلى الساحة.

هتافات وأيدٍ تصفِّق وصفير صبيةٍ من البعيد. توقَّف المختار عن الكلام بانتظار أن يهدأ الجمهور، ليكمل:

ـ «... كما لاحظتم جميعًا، وضعنا حواجز على مداخل

القرية، لأنَّنا نريد للجميع أن يستمتعوا بوقتهم ويشعروا بالأمان، ويتأكَّدوا أنَّ ديرزوفا فيها رجال قبضايات يحمونها ويدافعون عن أهلها لتبقى زينة المنطقة ومقصدًا للفرح طالما أنَّ السيِّدة العذراء مريم عليها السلام لا تغمض عينها الساهرة عنَّا».

تعالت الهتافات من جديد، واشتدَّ التصفيق، وتهامس الناس في ما بينهم قبل أن يعلو صوت المختار ليسود الهدوء من جديد:

ـ «أدعوكم الآن إلى الاستمتاع ببرنامج الحفل وبتذوُّق أطيب ما أعدَّته نساء ديرزوفا من مأكولاتٍ تراثيَّة وحلويات... شباب وصبايا... يلَّلا على الدبكة... وهات المجوز يا عبُّود..».

ضحك الجميع.

ـ مين عبُّود؟ سألت هيلانة.

علت ضحكة فادية. نظرت إلى أختها كأنَّها تنظر إلى هبة، وأجابتها:

ـ أختي... وحياة الله إنَّك مهضومة! جيب المجوز يا عبُّود، ما بتعرفيها؟ هيدي غنيَّة لصباح!

ـ ... بسمعش صباح... أنا بحبّ فيروز.

أيّ منطقٍ دفع المختار ليختم خطابه بمطلع أغنية؟ كلامٌ لا معنى له. أفسد خطابه بهذه الخاتمة. لو أنَّها مكانه لكتبت خطابًا آخر. لقالت مثلًا: «إنْ لم نعرف أسباب الحريق سنشهد حرائق أخرى... أن نحتفي بالسيطرة على حريقٍ لا يضاهي النجاح في معرفة الجناة ومحاسبتهم. تدابير الحماية لا تلغي السعي إلى التحقيق في الحادث لمنع تكراره. الاستنكار لا يجدي كما لا

ينفع أن نطوي الصفحة ونمضي قدمًا قبل أن نعرف من تسبَّب بهذه الكارثة!! وإذا كان الحرش مشاعًا للدولة، فحريٌّ بنا أن نحرص عليه ونحرسه ونلاحق كلّ من يحاول القضاء عليه... كلّ ما هو مشاع عام يّخصُّنا جميعًا فنحن أبناء هذه الأرض».

كانت العبارات ترتسم في ذهن هيلانة، وتبعث فيها اعتزازًا لم تختبره من قبل. ومع ذلك، حسدت المختار عندما تخيَّلت نفسها في مكانه أمام المذياع. وسرعان ما تصاعدت خفقات قلبها عندما لاحت لها صورتها وهي واقفة أمام الجمع. راحت تبحث عن صالح... رأته يقف مع مجموعةٍ من الرجال. تأمَّلته لدقائق، أرادت أن تقف بقربه، كقطَّةٍ تلفّ ذيلها حول قدميْها مطمئنَّة. على مسافةٍ غير بعيدة منه، يقف إبراهيم مبتسمًا، مطيلًا النظر في صبايا يعبرن من أمامه.

«جارتي بدّك تدبكي؟»، همست لها عفاف وهي مستغرقة في توارد أفكارها. ابتعدتا بحثًا عن فسحةٍ مريحةٍ للوقوف والتفرُّج على الدبكة التي بدأت تتشكَّل أمام باحة الكنيسة.

ـ عجبك خطاب المختار؟... بقي كلّ الليل هو ونبيل يكتبوا ويشطبوا، زهَّقوني.

اقتربت فادية وانضمَّت إليهما، فسألتهما هيلانة: وين رئيس البلديَّة؟

ـ يخرب بيتك، وطِّي صوتك... واقف حدِّي... همست لها عفاف واضعة يدها على فمها...

التفتت هيلانة لترى رجلًا في الخمسين يضع وشاحًا على

عنقه، يحمل سيجارةً، ملامحه مختلفة عن كلِّ رجال القرية الذين تراهم في بيتها. «شو مرتَّب»، همست. «جدًّا... ردَّت عفاف. ياما نسوان توحَّموا عليه وسمُّوا أولادهم باسمه. بس شتَّان بين القرد والغزال». لم تركِّز هيلانة في كلمات عفاف. انتبهت إليه ينظر إليها. ابتسمت وأخفضت رأسها تحيِّيه... إلى جانبه سيِّدة سمراء بشعرٍ غجريٍّ طويل. تبدو أكبر منه، لكنَّها شديدة الأناقة، ومن عنقها يتدلَّى عقدٌ من اللؤلؤ. شفتاها مكتنزتان من دون أحمر شفاه. وعيناها مكحَّلتان تشعَّان كبرياء. توزِّع ابتساماتها على الجميع ويدها معلَّقةٌ بذراع زوجها.

ـ بيته بالحارة الفوقا؟ صحّ؟

ـ بس ساكن ببيروت بالشتي، قالت فادية.

ـ عندو مكتب محاماة وبيعرف رؤساء ووزرا... أردفت عفاف. وظَّف كلّ شباب ديرزوفا بالدولة.

ـ ومرته؟ بتحبّ الضيعة؟

ـ أكثر منَّا كلّنا. كأنَّها خلقت هون!

ـ بس لو بتغيِّر اسمها.... قالت فادية، مش زابطة زينب مع إدمون.

أدارت هيلانة ظهرها لأختها، كعادتها كلَّما أرادت الاعتراض على تعليقٍ لا يرضيها، ففادية لا توفِّر مناسبةً لتتحدَّث عن المسلمين والمسيحيِّين، وأهمِّيَّة ديرزوفا وأهلها مقارنة «بهالناس». «لو بتشيل هيدي حجابها، بتكون أحلى»... «كأنَّه العفَّة في الشعر»، «إذا ابني حبّ مسلمة رح اتبرَّى منه»... كثر

مثل فادية في ديرزوفا يحبُّون من يماثلهم، أو بالأحرى يهابون من يختلف عنهم. هكذا، ربَّما يشعرون تجاه مريم وبوالزلف وبهيَّة. . . وتجاهها هي. لكنَّ فادية متعلِّمة وتعيش في بيروت، ولديها صداقات كثيرة. كيف لم تتعلَّم أصول الكلام؟ كيف لم تغيِّرها بيروت «أمّ الشرائع»؟ يُقال إنَّ من يسكن في المدينة «عقله منفتح»، لكن فادية هي نفسها منذ الأزل! تلبس على «آخر موضة»، تعاقب ولديها إنْ لم يتكلَّموا الفرنسيَّة في البيت، لكنَّ لسانها لم يتطهَّر من سموم النميمة التي تتجرَّعها كلّ صيفٍ من أهل ديرزوفا. لو أنَّ الحياة أنصفتها كما أنصفت أختها الكبرى، لكانت تخطب الآن أفضل من المختار! هيلانة تحسم أمرها. لن تكون فادية عرَّابة هبة.

كانت هبة تئنّ وتتململ حين مشت بها هيلانة باتِّجاه ركن المأكولات، وتناولت كوبَ ماء وراحت تساعدها على الشرب. فجأةً، رأت صالح يتقدَّم ويُمسك طرف الحبل البشريّ الذي تشكَّل في غمضة عين، وراح يلوِّح بيده كأنَّه يحمل سيفًا. علا صوت الطبلة، وبدأت الأقدام تخبط في الأرض والأجساد ترتفع في إيقاعٍ متجانس ألهب الجموع.

تجمَّدتْ في مكانها وهي ترى صالح يتهادى كريشة. بطرف خنصره يمسك السلسلة البشريَّة ويدور بها ويضبط حركتها على إيقاعه. . . الأكتاف متقاربة، الأيدي متشابكة، ابتسامةٌ واحدة تسطِّر الوجوه. وحده وجه صالح يشدّ ملامحه كلَّما هوى بجسمه وارتفع وتراقصت ساقاه وضرب الأرض بقدميْه على وقع الدربكَّة التي تُشعل الحماسة لدورةٍ جديدةٍ بخطواتٍ أكثر تناغمًا وقوَّة.

أرادت لهبة أن ترى أباها سيِّد الساحة، راحت تهمس في أذنها، وتشير بإصبعها على صالح كي تراه، لكنَّ هبة تبدو تائهةً ومتوتِّرة. هيلانة تراقصها لتلهيها عن البكاء، ولكي تستمتع هي برؤية صالح وهو يرقص مع الريح. ليس هو نفسه الذي تغسل له قدميْه كلّ مساء، ويلتهم كاسة لبنٍ قبل النوم. أمامها الآن كائنٌ يشفّ كلَّما علا وهوى وتمايل! قميصه ملتصقٌ بصدره. كم تمنَّت في تلك اللحظة أن تشمّ تلك الرائحة! رائحة القائد بين الجموع أشهى. التفتت لترصد عيون الناس، هل يرونه مثلها؟ كان البعض يمرّ من أمامها محيِّيًا، محاولًا إيجاد فسحةٍ للتفرُّج على الدبكة. لمحت الأستاذ نبيل يتهامس مع إحداهنَّ، لم تتعرَّف إلى السيِّدة... لعلَّها غريبة. شعرت بقشعريرةٍ خفيفةٍ تسري على جلدها. تعرف تمامًا هذه النظرة في عينيْه. نظرة الذئب إلى ليلى. راحت تتلفَّت حولها بحثًا عن عفاف. لم تجدها. عادت لتتفرَّج على الدبكة التي يقودها صالح...

لكزتها فادية:

ـ صالح بيذكِّرني بإعلان مارلبورو.

ـ شو يعني؟

ـ السيجارة. سيجارة مارلبورو أختي!

ـ قصدك بيشبه السيجارة؟

ـ بيشبه رجَّال الكاوبوي... رفيع وطويل وبالجينز. ناقصو برنيطة.

لم تعرف إذا كان تعليق فادية تهكُّمًا أم مديحًا. صوت الطبلة

يخفت ويعلو، وصالح يرفع إبريق الماء الفخَّاري أمتارًا، فيتلألأ حبل الماء تحت الضوء نازلًا إلى فمه متسرِّبًا من شفتيْه مبلِّلًا صدره. شعرت أنَّ طيفها يهرع إليه ليختفي بين أضلعه. فيعلو ويهبط على صدره كلَّما خبط قدميْه في الأرض وراقصهما مع الهواء.

ـ ليش زوَّجتيني لصالح؟

ـ تعيشي وتفوقي أختي! شو خطرلك هالسؤال بعد كلّ هالعمر؟

ـ جاوبيني.

ـ شوفي... شوفي... هيدي نادية وبنتها. ليكي فستان نادية. رح يتخزَّق على جسمها...

ـ وين زوجها؟ ليش مش معها؟

ـ لا حبيبتي... هيدي استراتيجيَّة نادية. بتنزل عالساحة من دون جورج. متَّفقين على الأدوار. شوفي هلَّق كيف رح تولع القلوب... هيدي كريمة، رح تنزل ع الدبكة. لاحظي شو رح تعمل حياة...

ـ مين كريمة ومين حياة؟

ـ مش معقول يا هيلانة كيف بتضلّك بالقمر؟!

ـ فادية... بخصوص عمادة هبة...

ـ طوشتيني بعمادة هبة!! على شو مستعجلة؟

ـ عم بفكِّر بعفاف... عرَّابة!

ـ أها!... ردَّت فادية من دون أن تلتفت إليها. لكنْ كلّ ملامحها ذوت وهي تضيف: متل ما بدِّك أختي... بنتك وحرَّة فيها. وابتعدت عنها.

شيءٌ من الغبطة غمرها... غبطة المنتقم. الجرح بالجرح. لمحتها تتمشَّى وتحيِّي بعض النسوة وقد عادت ملامحها إلى طبيعتها كأنَّ شيئًا لم يكن. من بعيد، رأت مريم تقف وحدها تحت عمود الإنارة. كان فمها كباطن الجرس. عيناها زائغتان تحت غرَّة شعرها... مريم تكتم صيحاتها الآن. تراقب كلّ شيءٍ ولا يقترب منها أحد. لن يدعوها أحدٌ إلى الدبكة. ها هو أخوها يمسك بيد صبيَّة، ويتقافزان على وقع الطبلة. أين أبوالزلف وبهيَّة؟ لم تلمحهما بين الجمع. لا شكَّ استغلَّا انشغال الجميع بالاحتفال لينعما بخلوةٍ يمارسان فيها أهواءهما كمتمرِّدَيْن على قوانين العيد وتقاليده الجامعة للحارتَيْن الفوقا والتحتا... فريد أيضًا لم يأتِ. هل يحرس القرية من شرفة بيتنا؟ أم يسهر تحت شجرةٍ في الأحراج منعًا لتسلُّل «المخرِّبين»؟ ما دوره في الحزب؟ وما دور الحزب في عزلته؟

التفتتْ إلى شلَّةٍ من الصبْية يجلسون صفًّا واحدًا على إفريزٍ هامشيٍّ قرب الكنيسة. بعضهم يدخِّن والبعض الآخر يتهامس على الفتيات اللواتي يعبرن أمامهم. على بعد خطواتٍ من حلقة الدبكة نُصبت كركة العرق، ولمحت رجلًا في الستِّينيَّات من عمره، يرتدي شروالًا، ويحمل إبريقًا خَلَط فيه العرق وراح يصبُّه في كؤوسٍ يناولها للأهالي. بدا معتزًّا بنفسه لا يتوقَّف عن الكلام كأنَّه يشرح لكلِّ متذوِّقٍ مزايا مشروبه. بعض النسوة يشربن من

كؤوس الرجال. عيونهنَّ تجول في كلِّ الاتِّجاهات، ويتمايلن على إيقاع الدبكة فيما يرفعن الكؤوس ويتدلَّى اللحم المترهِّل من أذرعهنَّ. غالبيَّة تلك النساء كانت تراهنَّ في المآتم، وتتعجَّب من مهاراتهنَّ في ادِّعاء الحزن والتسابق على البكاء والندب! الآن، يتبارزن على الفرح. من تبدو أصغر سنًّا من الأخرى؟ من تقهر القلوب برقصها؟

شلَّةٌ أخرى من الشباب والصبايا شكَّلت سلسلةً مصغَّرةً للدبكة لتتحلَّق حول رجلٍ مسنٍّ بشاربيْن معقوفيْن ووجهٍ مكتنزٍ يشتدّ حمرةً كلَّما نفخ في آلة المجوز. كانت فادية قد عادت لتقف إلى جانبها.

بكاء هبة بدأ يشتِّت هيلانة. ابتعدت بهبة بضع خطوات... احتضنتها في وضعيَّة الرضاعة علَّها تغفو. اخترقت الحشود وهي تستأذن الناس ليفسحوا لها الطريق مع ابنتها. ارتطمت كتفاها بأكتافِ غرباء. حثَّت خطاها لتصل إلى مساحة فراغٍ أعادت إليها أنفاسها، ولفحها نسيمٌ لذيذٌ مع اقترابها من زقاق بيتها. وقبل أن تصعد الدرج، سمعت شهقات بكاء. توقَّفت لتتبيَّن مصدر الصوت.

ـ حبيبتي... شو بك؟

ـ جيتِ؟ وحدك أو مع صالح؟

كان وجه عفاف أحمر، وعيناها متورِّمتيْن.

ـ وحدي... شو بكِ؟

ـ شفتِ نبيل؟

ـ ما إجاش معك؟

ـ جيت وحدي...

ـ موجوعة؟

ـ أوجاع الدني بكفَّة، وأوجاعي بكفَّة.

ـ لهْ لهْ لهْ... خوَّفتيني. ررّرح جبلك مممميّ ومنحكي

عععع رواق.. وووووقّفي بكي...

دخلت المطبخ متذرِّعةً بالماء لتفكِّر بجوابٍ يُريح قلب عفاف. عادت وناولتها كوب ماء.

ـ اشربي...

ـ بعدها عاجقة بالساحة؟

ـ عم بتزيد العجقة. اختنقت. هبة نعست... افتقدتك هونيك... أيمتى جيتِ؟

ـ لمَّا بطلت قادرة أتحمَّل.

ـ شو صار؟ قولي لي؟ ضضضايقك حدا؟

ـ كان كلّ شيء تمام... سلَّمنا على الناس. واتَّفقنا أنّه ندبك. فجأةً اختفى. تسلَّل متل اللص... ما عدتش قادرة إلحقه... كلَّما بيَّن راسه. يختفي من جديد...

ـ ششششفته أكثر من مرَّة عععم بيحكي مع ناس... ما شاء الله معارفه كثيرة.

ـ معارفه كثيرة، كرَّرت عفاف. مستحية منك والله... هو أستاذك وبتحترميه. بس هو زوجي وبلَّشت أعرفه أكثر. مش متلما الناس بتعرفه... نبيل...

وعادت تشهق من جديد. هيلانة تربِّت على كتفها، وتجلب لها المحارم.

ـ بعرفش ليش تزوَّجني... كنت مرتاحة ببيت أهلي. راضية بنصيبي... لشو تزوَّجني؟

ـ لأنّ ألف رجّال بيتمنّاك يا عفاف. إنتي ططيِّبة ومحبّة وكككلّك أخلاق...

ـ طيِّبة ومحبّة... آخر شي بدو إيّاه الرجّال مَرَة طيِّبة ومحبَّة... لو شفتيه كيف كان عم بيتغزَّل بكلِّ صبيَّة بيشوفها! لو شفتي كيف بيقرِّب من صبيِّة أو حتى مَرَة متزوِّجة ويلزق فيها ليوشوشها!!

ـ الضجَّة... بيبيتجبر الناس تووّوشوش...

ـ الضجَّة؟! شو هوِّي الشي المهمّ يلِّلي لازم ينحكى فيه مع النسوان والصبايا بعيد السيِّدة؟! هو يلِّلي بيقول: «لكلِّ مقامٍ مقال!»

ـ مهما تكبِّري الموضوع... النننناس تجمَّعوا ووووما عععاد في مطرح للواحد يحكي كككلمتيْن متل الخلق. مهما تخلِّي أوهامك تتتاخدك لبعيد.

نفضت عفاف جسمها كأنَّها تلقَّت صعقة، أبعدت كتفها عن يد هيلانة.

ـ عم تحكي متله... أنا ما عم بتوهَّم... أنا بصدِّق يلِّلي بشوفه!

ـ طيِّب... طيِّب... قولي لي ششّشو شفتي؟

ـ شفت يلِّلي شفته. كان عم بيغازل... واحد متزوِّج وزوجته معه. كيف بيقلِّل احترامه إلها؟

ـ متأكِّدة؟ بقصد. . . سسسمعتيه؟

ـ إيه سمعته. . . سمعته منيح. وإذا ما سمعته بعرف من نظرته. . .

أرخت عفاف رأسها بين كتفيْها، واستسلم صوتها:

ـ . . . بعرف ليش تزوَّجني. . . فكَّر بآخرته. خيُّو هاجر. وأهله ماتوا. ما حدا رح يهتمّ فيه بس يختير. . . سألته ليش أنا؟ ليش ما تزوَّجت وحدي زغيرة بالعمر بتقدر تجبلك اولاد؟ تخيَّلي أنَّه بيكره الأطفال؟ كيف حدا ممكن يكره الأطفال؟ ما بيحبّني. . . بدُّو ممرِّضة تخدمه بآخر عمره!

ـ يا عفاف. . . إنتِ مممم. . توترة هلَّق. . . الأستاذ نبيل معروف بببأخلاقه. . . بببب. . . بعمرنا ما سمعنا كككلمة سيِّئة عنه. . .

ـ مش رح تسمعي. صحيح. لأنَّه ذكي كثير. . . بس أنا بقرأ نواياه منيح. والليلة سلوكه كان بيعكس تمامًا هالنوايا. . .

ـ عم تظلميه. . . الأستاذ نبيل ططيِّب. . .

شعرتْ بجدارٍ يعلو بينها وبين عفاف. لا مجال لإقناعها بما تصرّ على رفضه. مع تعاظم خيبتها من نفسها أمام امرأةٍ مكسورة، كانت صورة الأستاذ نبيل تتشظَّى أمامها. . . كأنَّ عفاف تحمل مطرقةً وتهشِّمها!

ـ عفاف. . . إإإإذا طلبت منك تكوني عععراية هبة، ببتقبلي؟

ـ هبهوبتي؟ أنا عرَّابة؟ عن جدٍّ بتحكي؟

ـ عن جدّ. . . وين بلاقي أحنّ وأطيب منكِ على بنتي؟

كفكفت عفاف دموعها. عانقت هيلانة بقوّة غريقٍ أمسك بغصن شجرة. أفلتت منها فجأةً، وقالت:

ـ بس فادية. . . بدِّيش إيَّاها تزعل. دخيلك اعفيني من لسانها!

ـ ولا يهمّك. . . خخخبّرتها الليلة. . .

ـ أحلى عمادة لأحلى هبهوبة، هتفت عفاف، ووقفت كأنَّها تنفض عنها كلّ أحزانها، كأنَّ فنجانها رسم لها معالمَ فرح وليد، على بعد إشارة صليب.

كم رغبت أن تعود إلى ساحة القرية لتتفرَّج على صالح من جديد. صالح. . . الزوج الذي لا تزوغ عيناه ولا لسانه. ضابط إيقاع حياتها. لكنَّ فضولها الخبيث يطلّ برأسه مرَّةً أخرى. عفاف في حالة نشوة. نشوة عاقر وجدت طفلًا في سلَّة. لا بدَّ أن تكافئ جارتها باعترافاتٍ كثيرة حول وردِيَّة. لكنَّها فوجئت بنفسها تسأل عفاف عن الأخ ألبير: «رحتِ لعنده شي مرَّة؟»

ـ رحت كمّ مرَّة. . . عالفاضي.

ـ هو شششو بيعمل بالضبط؟

ـ مَشِي. . . بيصلِّي. . . وبيعطيك ميْ مقدَّسة تشربي منها على كمّ يوم. وأوقات بيقلِّك عن أشخاص، إذا رح يتوفَّقوا بحياتهم أو لأ. هيك. . . بس لمَّا تضهري من عندو بتكوني مرتاحة كتير.

ـ بفتكر أمّ صالح، بتروح كلّ أربعا لعنده. . .

ـ . . . . تخمين. . . الله يعينها. . .

ـ صحيح الشمس ضوَّت بالليل؟ كككنتِ وقتها زغيرة، صحّ؟

ـ والله أنا بآمن إنَّه هالضيعة محميَّة من وقتها. . . لمَّا تشوفي وجه هالإنسان. . . الأخ ألبير. . . نقي وأبيض بترتاحي عالآخر. . . إذا بدِّك باخدك لعنده شي مرَّة.

غادرت هيلانة بعدما استعادت جارتها هدوءها. راحت تتمشَّى في الدار منتظرةً صالح. بدا الليل منزعجًا من أصداء الطبلة، كأنَّه يتهاوى على قدميْها متعبًا، ويغريها برائحة السرير. . . لكنَّها تتمنَّى الآن أن تمضي ما تبقَّى من الأمسية مع صالح، تشبك يديْها بيديْه وتلتصق كتفها بكتفه، ويقرعان جسديْهما بين الأرض والهواء. ألحَّت عليها الرغبة بالعودة إلى الساحة. أحسَّت بالجوع، فهي لم تذقْ أيًّا من الأطعمة في الاحتفال. مشت في الزقاق. تردَّدت. تقدَّمت بضع خطوات. . . سمعت همسًا. اقتربت لتتقفَّى مصدره. شكَّت أن يكون أحدٌ في الزاروب الضيِّق المتفرِّع من زقاق بيتها، ولا يفضي إلى مخرج. زاد الهمس مع تقدُّم خطوها. رعشةٌ سرت كالكهرباء تحت جلدها. مدَّت رأسها فرأت طيفيْن متَّحديْن كحبَّتي كرز. سحبت جسمها إلى الخلف. من تراه يختلي بفتاةٍ في الزقاق؟ تساءلت إن كانا تنبَّها لوجودها. إذا خطت إلى الأمام أو تراجعت قليلًا سيسمعان صوت الحصى تحت قدميْها. لكنَّ فضولها الذي بدأ يتفوَّق على فضول القردة وأهل ديرزوفا، دفعها فجأةً إلى التقدُّم والوقوف أمام الشخصيْن، يداها على خاصرتيْها، تبحلق فيهما كشرطيّ. شهق الاثنان. أخفت الفتاة وجهها في صدر الشابّ. وضع يده على شعرها ليخفي هويَّتها. وسرعان ما ركضا من أمامها هاربيْن.

تأمَّلتهما وهما يفترقان كلٌّ في طريق. وقفت ترصد أوَّل الزقاق علَّ صالح يطلّ. كان قلبها دليلها أنَّه سيأتي. لاح طيفه. عندما اقترب، أخبرته ما رأت. فدمدم: «ديرزوفا بدها حراسة من حالها... دود الخلّ منه وفيه..».

أرادت أن تنسى كلّ ما حصل قبل عودة صالح، لتسأله عن أجواء الاحتفال وخطَّته الأمنيَّة.

ـ متلما قلت للمختار، ولا ضربة كفّ.

ـ ما سألتنيش إذا انبسطت بالسهرة؟

ـ شفتك مبسوطة...

ـ وكيف عرفت؟ أنت ككنت عم تدبك.

لم يجب. خلع قميصه وتوجَّه إلى المغسلة، انسلَّت في السرير وجلست تنتظره.

ـ ما شفتك بحياتي عم تدبك. حبِّيت كيف بتمسك برأس السلسلة وتدور فيها. كأنَّك حامل طيَّارة ورق! كيف تعلَّمت؟

ابتسم لسؤالها الذي لا يمكن أن تسأله فتاة قرويَّة.

مدَّد جسمه في السرير ووضع رأسه على الوسادة، ومن دون أن ينظر إليها، قال:

ـ وصّيت على لحمة نيَّة للكبَّة.. شو رح تطبخي عبكرا؟

ـ بلا طبخ هلَّق.

سحبت جسمها لتقترب منه، التصقت به، ووضعت رأسها على صدره...

ـ أيمتى رح تعلِّمني الدبكة؟ العيد الجاي رح أدبك معك...

شعرت بيده تتسلَّل إلى شعرها. تحرَّكت أصابعه وأمسكت بعض الخصل. مدَّت يدها لتلامس وجهه... لمست عظمتي وجنتيْه النافرتيْن. رفعت يدها إلى جبينه وداعبت شعره. لم تنتبه كيف وصلت شفتاها إلى فمه... سحبتها رائحة الغار. راحت تقبِّله. التصقت به أكثر. تقارع جسداهما... اتَّحدا... تنافسا على حدَّة الإيقاع، على التماهي مع ارتدادات الطبلة ورقص الخاصرة. كلّ ما قاله جسداهما في تلك الليلة يعجز كلٌّ منهما عن قوله بالكلمات.

في صباح اليوم التالي، أقسمت أنَّها لن تقرأ الروايات بعد اليوم. «الكتب لا تغيِّر الواقع»، قالت في نفسها، «بل تُفسد نظرتنا إليه، ونظنّ أنَّ الحياة في مكانٍ آخر، فنخسر حياتنا منتظرين ما لا يحدث».

تأكَّد لها أنَّ صالح سعيد... لطالما كان سعيدًا، حتى لو تزوَّج «هيلانة التي تتأتئ»... ربَّما لأنَّه لم يقرأ في الكتب عن حبٍّ مستحيل، ولا عن حياةٍ تأتي صدفة! أمسك معوله وتينك الشوكتيْن مُدركًا أنَّ الأرض لمن يستحقَّها بعرقه، وأنَّ الحياة لمن يقبض عليها بيديْه. بالعرق نفسه طوَّع قلبها، وبغربال روحه الصافية وهبها الصدق، وبمائه الدفَّاق روى عطشها فأزهرت كشجرة لوز!

حين أبلغته بقرارها في تعميد هبة الأسبوع المقبل،

وباختيار عفاف عرَّابةً لها، قال: «رُبّ أخٍ لك لم تلده أمّك»، فأصابها كلامه في الصميم.

ـ «مش رح أقدر إحضر العمادة، أختي. . . قالت لها فادية قبل توديعها ودسّ بعض النقود في يدها. هيدي هديَّتي، جيبي شو ما بدِّك للبنت».

وقبل أن تركب سيَّارتها عائدةً إلى بيروت، وعدتها بأن تأتي لتمضي بضعة أيَّامٍ مع ولديْها في القرية.

يوم تعميد هبة، كان عاطفيًّا بامتياز. بين غصَّة هيلانة لغياب أختها، وغصَّة عفاف لأمومةٍ بديلةٍ تحقَّقت لها، كان المختار والأستاذ نبيل يتبادلان أبيات الشعر في مبارزةٍ أدخلت الفرح إلى قلب صالح، وأشعلت حماسة فريد على استفزاز قريحة كلٍّ منهما، وأعادت إلى وجه أمّ صالح وصالح بسمات الشباب. وحدها هيلانة كانت متفرِّجة. حفظت الكثير من القصائد، ولم تقوَ على ذكر شطرٍ منها!

في تلك الليلة، لم تنم. سحبت دفترها من تحت فراشها وخرجت إلى الشرفة. وقبل أن تبدأ الكتابة على صفحةٍ جديدة، صدمتها كلمات كتبتها قبل سنوات:

«أردت أن أُدوِّن كلّ الأشياء التي ترهبني. لم يخطر في بالي إلَّا الخوف. فأنا أخاف من الخوف نفسه. ذلك الشلل الذي يحلّ بجسدي كلّه. ذلك الخفقان المتصاعد من القلب إلى الحلق. ذلك الخرس الذي يمنعني من فرض حضوري، ومنعني حتى الآن من القتل.

آه. . القتل! كم تمنَّيت أن أقتل أشخاصًا كثيرين. أَيُعقل أن أمضي حياتي كلّها من غير أن أرتكب جريمة. . . الجريمة أصل الكون يُقال! هل أخاف العقاب أم الجريمة؟

عليَّ أن أتعمَّق أكثر في فكرة القتل التي راودتني في مراحلَ كثيرةٍ من عمري. من هم الأشخاص الذين تمنَّيت محوهم عن الوجود؟ ما الذي اقترفوه بحقِّي كي أتمنَّى قتلهم؟ وهل كنت أنا وحدي ضحيَّتهم؟

أخاف الاقتراب أكثر من أفكاري تلك. قد أكتشف أنَّني لم أتمنَّ إلَّا قتل أكثر المقرَّبين إليَّ، أم أنَّني تمنَّيت قتل الغرباء أيضًا؟

هل أقوى على مواجهة نفسي الآن للاعتراف بأمنياتي الشرِّيرة؟ تعود بي كلماتي إلى فترة مراهقتي.

تلك المرحلة من العمر التي تتكثَّف فيها الأنانيَّة والرغبة الجامحة بأن يكون العالم تحت سيطرتنا. تحت رحمتنا. رهن أمنياتنا. . جميلًا ورديًّا نقيًّا بلا بشاعة! تجتاحنا رغبةٌ بقتل من يُخيَّل إلينا أنَّه يسلبنا كلّ هذا.

لا أجرؤ على العودة إلى تلك الفكرة الشيطانيَّة!! لكنِّي بلا شكّ، كغالبيَّة الناس على ما أظنّ، قتلت في رأسي وفي خيالي العديد من البشر.

أليس النسيان نوعًا من القتل؟ كلّ من أهملتهم وتجاهلتهم وحذفتهم من مفكِّرتي اليوميَّة. . . نسيت أسماءهم ولون عيونهم

حتى إذا صادفتهم أنكرتهم. وطغت على نظرتي تلك الطبقة الجليديَّة فائقة الكثافة. لم يرفّ لي جفنٌ. كأن لا أحد أمامي. ولا حتى شبح... خواء.

كلّ قاتلٍ خطيبٌ فاشل. من لا يتقن غرز الكلمات الفجَّة في وجه إنسانٍ حقير، يلجأ إلى أدوات القتل المعروفة. سكِّين، مسدَّس، سمّ... لم أتقن القتل بأيٍّ من الأدوات ولا حتى بالكلمات.

في طفولتي، عانيت من التأتأة. كلّ من تكلَّم معي ظفر بالنقاش. عشت كما الخرساء فترةً طويلةً من عمري. كم أدين لمخترع الحبر والقلم. ماذا كنت سأكون لولاه؟ لا أحد. إنسانٌ بلا صوت.. وسأبقى كذلك طالما أنْ لا أحد سواي سيقرأ ما في دفاتري. وأشعر الآن أنَّني ربَّيت في داخلي قبيلةً من القتلة استوطنت عزلتي.

الجثث ما تزال حيَّة. تسخر منِّي لأنِّي صدَّقت موتها. ترقص منتشيةً بانتصارها عليَّ. قرقعة عظامها تطنّ في أذنيّ. إقصاء نفسي عنها وابتعادي عن عالمها لم يثنها عن التلويح لي بأيديها الهزيلة. «ها نحن أحياء. عن أيِّ قتلٍ تتحدَّثين... ها ها ها..». يراودني الرقص والغناء عاليًا. أنا أيضًا ظفرت بحياتي. مهجورة. لا شيء يسكنني سوى تلك العاطفة التي جمحت بي حتى عزفت عن القتل. لا شيء سوى الندم على ذلك الشرر الدافئ الذي حوَّلني مرَّاتٍ كثيرةً إلى وحشٍ بأجنحةٍ عملاقة... أجنحةٍ من شمع، تذوب عند أوَّل تماسٍّ مع الشمس... حتى القتل لن أجيده!

أنا لم أقتل إنسانًا، صحيح. لكنّني حتمًا قتلت احتمالاتٍ كثيرةً بأن يكون أيّ شخص، إنسانًا معي..».

في كلِّ مرَّةٍ تعود إلى دفترها الصغير، تشعر أنَّ شخصًا سواها خطَّ فيه سطورًا غامضة. لا شيء في تلك الكلمات يعبِّر عنها. كمن يكتب في نومه أو في لحظات هَذَيانٍ من الحمَّى!

* * *

كان صالح يلتقي بين أمسيةٍ وأخرى مع رجال القرية. وحده كان مصرًّا على حماية الحرش من حريقٍ جديد. وبضغطٍ منه، وَعَدهم رئيس البلديَّة بسيَّارة إطفاء، وأوصى العاملين في البلديَّة أن يكثِّفوا دوريَّاتهم الليليَّة حول الحرش وعلى أطراف القرية. لم تعد هيلانة تستغرب أن يكون لديرزوفا وأهلها أعداء. فما يحدث ليس بسيطًا كما يبدو في هذه المساحة الصغيرة التي تشغلها البيوت بين طرفَي القرية: الأوَّل مدخلها من حرش الصنوبر، والآخر مخرجها من تلَّةٍ مرصوفةٍ بمقابر أهلها. وبعد كلّ المواقف التي عايشتها مع فادية، بدا لها أنَّ صالح على حقّ: «دود الخلّ، منه وفيه». فلا سيَّارة الإطفاء وصلت، والدوريَّات الليليَّة تحوَّلت إلى «كزدورة» للتلصُّص على فتيات القرية. وصالح تغيَّر... بدا لها أنَّ جسده تقلَّص وراح ينحف أكثر. يتناول عشاءه بصمت... يشرد أكثر، ويختصر مع أبويْه الكلام. متعب؟ باله مشغول على الحرش؟ أم أنَّ المشاكل التي بدأ أهل ديرزوفا يشاركونه إيَّاها بعدما أطفأ الحريق، تثقل أيَّامه؟ إذا انقطعت المياه فجأةً عن بستان فارس، قصده الأخير بكلِّ غضبه واتِّهاماته العشوائيَّة من دون دليل. إذا هاجم أحدهم قفير النحل لبومليح، جاءه وفدٌ من

رجال القرية للاستهجان والمشورة. إذا نكثت نادية الصهباء بوعدها لأحد المزارعين في شراء محاصيل الكرز والمشمش والدرّاق، هبَّ هؤلاء للشكوى إلى صالح كأنَّ بينه وبين نادية قرابةَ دم أو أنَّ لديه دواءً سحريًا يُعيد لزوجها رجولته!! في كلِّ هذه المواقف، كانت هيلانة ترى سحنة صالح أكثر غرابةً من أيِّ وقت. شاربه يتدلّى كما الشوشة من عرنوس الذرة. عيناه ضامرتان وحاجباه كجسرٍ مكسورٍ من وسطه... لم تفهم هيلانة كيف راحت تشغلها أمورٌ تافهة وسط تلك الحالة الغريبة التي بدأ يغرق فيها صالح ليلةً بعد ليلة أثناء استقباله لرجال القرية. لهؤلاء أسماءٌ غريبة: جورج منتورة، فؤاد سهام، وسليم حنان... وحين سألت صالح، دمعت عيناه من الضحك وهو يشرح لها أنَّ الاسم الثاني لكلٍّ منهم هو كنية ابتدعها أهل القرية، أو ربَّما الرجال أنفسهم للتعريف بنسبهم إلى أمَّهاتهم اللواتي تزوَّجن من خارج القرية.

وتمنَّت لو أنَّه يحدِّثها عمَّا يشغل باله بالبساطة نفسها التي يُجيب بها على أسئلتها التافهة! لكنَّ التفاهة أحيانًا تجدي في المواقف المعقَّدة... كان صالح بحاجةٍ إلى سؤالٍ من هذا النوع لتتبدَّد ملامح الكدر عن وجهه ولو لدقائق.

الأيَّام المقبلة ستكون مرهقةً لها ولصالح، فقطاف العنب وتصريفه للبيع يأخذ كلّ وقتهما، وعليها أن تتفرَّغ قليلًا لأختها التي ستأتي لتستمتع بأخبار الضيعة مع وداع الصيف.

«أيلول، طرفه مبلول»... تمتمت يوم صحت لتحضِّر الزوَّادة لصالح، فيما هو يجهِّز البغلة في دار البيت. تنشَّقت ملء رئتيْها

رائحة الأرض بعد المطر وهي تمشي صوبه. سمعته يتكلَّم مع البغلة بنبرةٍ حادَّة وهو يحاول وضع البردعة فوق ظهرها.

ـ مزاجها مش تمام اليوم؟ سألته.

ـ كلّ مرَّة عند أوَّل شتوة بتصير عنيدة.

اقتربت منه ووضعت رأسها على كتفه:

ـ هيدي متلي، بتحبّ تغنِّجها مع أوَّل شتوة.

أخفى ابتسامته وهو يأخذ منها الزوَّادة قائلًا: «عيب... هلَّق بيشوفنا حدا عند هالصبح... اطلعي عالبيت».

ـ يشوفنا... مَرَة وعم بتحبّ زوجها... شو خصّهم؟

أمسك بالحبل استعدادًا للمغادرة، وهو يرتِّب الكوفيَّة على رأسه قائلًا: «رح جبلِك معي سلَّة تين».

«بحبّك»، همست له، وانتظرت حتى يغيب في الزقاق.

لم تلتقِ بجيرانها في ذلك الصباح. من ينام في طقسٍ كهذا؟ لم تكد تصل إلى أوَّل الدرج حتى سمعت أصواتًا تتعالى في ساحة القرية... ركضت تنادي صالح.

هُرعت باتِّجاه الأصوات. رأت الأهالي يُهرعون مثلها. والكلّ يسأل عمَّا حصل... نساء يولولن في البعيد... ركضت مع الراكضين... كان صالح على مرأى عينيْها واقفًا في ساحة القرية مع الجموع... بغلته مربوطة بشجرة... وصلت وانضمَّت إلى الأهالي لترى شابًّا ممدَّدًا على الأرض يفرّ الدم من بطنه. «بعدو طيِّب»، صرخت إحدى النساء. «جيبوا الدكتور ناجي

بسرعة»، صرخت أخرى. صالح يجثو أمام الشابّ... يسأله: «احكِ... مين طعنك»؟

ـ كنت رايح عالبستان... ردَّ أحد الرجال. لمحته من بعيد عم بيشوِّحلي بإيده. ظهره محني. إيده التانية على بطنه. ما عرفتوش... ركضت أنا والدابَّة صوبه... وقع قبل ما أوصل... حملته على الدابة وجيت فيه عالساحة... ما عرفتش شو بدِّي أعمل... الله يسترنا من هالصباح!

ـ شفت حدا بالطريق؟ سأله صالح.

ـ ما انتبهتش... كان مشغول بالي عليه. شفت الدم نازل منه.

ـ ... احك يا ابني... مين طعنك؟ وين كنت رايح؟ مين شفت عالطريق؟

ـ كأنَّه كان نازل على بيروت، بس البوسطة سبقته، ردَّ أحدهم.

عندما وصلت والدته، تلقَّفتها النسوة لتطمئنها أنَّه ما يزال حيًّا. انهارت فوقه باكيةً تولول وتتضرَّع:

ـ رح يصفِّي دموووو... دخيلكم... وين الدكتور ناجي... روحو جيبو... ابني عم بيمووووت...

اقترب صالح منها، وأمسكها من كتفيْها مبعدًا إيَّاها عن ابنها.

صار بيوصل الحكيم... قال لها، والتفت إلى هيلانة: «اعطوها ماء زهر».

ارتبكت هيلانة. . . اقتربت. لفَّت ذراعها حول كتف الأمّ محاولةً إقناعها بالجلوس على درج أحد البيوت بانتظار أن يأتي الطبيب. وصل الدكتور ناجي، وطلب من الجميع الابتعاد عن الشابّ ليكشف على جرحه.

ساد صمتٌ تخلَّله صوت الأمّ وهي ترجو الطبيب أن يُنقذ ابنها.

ـ لازمه مستشفى. . . قال الطبيب.

ـ الأستاذ نبيل عندو سيَّارة، قالت هيلانة، وهمَّت بالركض نحو البيت. لمحت الأستاذ نبيل يخرج من الزقاق.

ـ بسرعة. . . جيب السيَّارة. . . عالمستشفى.

لم يكن في السيَّارة متسعٌ بعدما صعدت الأم والطبيب الذي جلس في الخلف مع الشابّ المصاب. تفرَّقت الجموع، وتوزَّع الخوف بينهم كرُزم الحطب. أكمل صالح مشواره إلى البستان، وعادت هيلانة إلى البيت ترتجف من برد الخوف. حريقٌ قبل أسبوعين واليوم جريمة! ماذا يجري في ديرزوفا؟

دخلت البيت مستغربةً الهدوء الذي يسوده بعدما ملأ الصراخ الساحة ولم يبقَ أحدٌ صاحيًا في القرية. لا بدَّ أنَّ حمويْها شعرا ببرودة المطر فبقيا في السرير. دخلت الغرفة لتتفقَّد هبة، وجدتها تلعب في سريرها. اتَّجهت إلى المطبخ، فرأت بوصالح جالسًا على الكنبة رأسه بين يديْه.

ـ أمّ صالح مش عم بترّد عليّ، قال، حكيتها مرَّتيْن ما ردتش.

هرعت هيلانة إلى الغرفة لترى حماتها شاحبةً، رأسها مائل إلى جهة اليمين. سُبَّحتها تتدلَّى من أصابعها. اقتربت منها... خافت أن يصحّ توقّعها. جسَّت يديْها. قفزت إلى الخلف... وصرخت:

ـ عمِّي... عمِّي...

سمعت شحطة خطواته... وصل الغرفة.

ـ ععع... عمِّي... مراة عمِّي ببب... بب.. باردة كتير.

تقدَّم بو صالح... جلس إلى جانبها. جسَّ يديْها. رفع جفنيْها. هزَّها من كتفها. هوت على طرف السرير... صفَّق بيديْه... لا تتذكَّر من لحق بصالح إلى البستان، وكيف تلقَّى الخبر!

في ذلك الصباح الماطر من أيلول، أُجهضت هيلانة. كانت في الشهر الثاني من الحَمْل. صدمتان بفارق دقائق... الجريمة وانطفاء أمّ صالح. لم يصمد أمامهما جنين.. لم يكتمل ولم يُعرف جنسه.

أخبرتها قابلة القرية أنَّ عليها الانتباه إلى انقطاع الطمث، لأنَّه دليل حَمْلٍ أو خلل، حذَّرتها من رفع صناديق المحاصيل. ضربت لها ألف مثلٍ عن زوجات فلَّاحين تقوَّست ظهورهنَّ من العمل الشاقّ، أوَّلهنَّ أمّ صالح.

لم تكن حزينة إلَّا على صالح الذي خسر أمّه. تساءلت إنْ كان بكى أيضًا على الجنين... وهل يلومها؟

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

مسجَّاةً في صدر البيت حتى موعد الدفن في اليوم التالي، كانت أمّ صالح في ثوبها الأبيض أطول ممَّا عهدتها هيلانة وأكثر سلامًا. ذابت حدبتها. المنجل استقام.

أصرَّت عفاف على أن تنام هبة في بيتها، فقد ترتعب من رؤية جدَّتها الميِّتة. الصمت المهيب الذي خيَّم على القرية أثقل على الصدور المشحونة بالقلق. فالشابّ سمير الذي وُجد مطعونًا في ساحة القرية، فارق الحياة قبل وصوله المستشفى. كان على الأهالي أن يقوموا بواجبهم تجاه عائلتَي الشابَّيْن ويحرصوا على كتم الأحقاد في مهدها. فمن جنى على سمير، لم يكن سوى نعيم. هكذا، همس سمير لأمِّه قبل موته. الشابَّان تشاركا مقاعد الدراسة وقطاف المواسم والتنافس على قلوب بنات القرية. أرادا دخول الجامعة فانتقلا معًا إلى بيروت، وسرعان ما انضمَّ كلٌّ منهما إلى حزب. وفي الصباح الأوَّل من شهر أيلول، اختلفا على

موقفٍ سياسيٍّ طعن بكلِّ سنوات الطفولة بينهما. هكذا قيل في ديرزوفا. لكنَّ حكاياتٍ أخرى بدأت تُحاك... «اختلفا على حبِّ صبيَّةٍ في بيروت»... «كانا يلعبان ورق الشدَّة واتَّهم أحدهما الآخر بالغشّ»... «سمير سبّ رئيس الحزب تبع نعيم ونعيم ما تحملّش الإهانة»... البعض شكَّك في كلِّ الروايات، وكان شبه متأكِّدٍ من براءة نعيم. الفاعل من قريةٍ أخرى... لكنْ ما الذي يفسِّر هرب نعيم إلى بيروت في اليوم نفسه؟ تضاربت الحكايات، ولا أحد استطاع أن يثبت نظريَّته، لكنَّ السكِّين الذي انغرز في بطن سمير ترك آثاره في قلوب أهل ديرزوفا الذين انقسموا في تعاطفهم بين العائلتيْن.

خطوات النسوة وهي تدنو من حارة صالح، تتقاطع مع صيحات مريم التي لم تغادر ساحة الدار طوال اليوم حتى الغروب. كلَّما رأت شلَّةً من النسوة يتغيَّر صراخها، كأنَّها تحذّر هيلانة من بعضهنَّ وتطمئنها من البعض الآخر. شعرت يومها أنَّ البكم صنع من مريم أفضل العرَّافات اللواتي يقرأن ما في القلوب والنوايا.

في المساء، بدا كأنَّ أهل ديرزوفا هجروا منازلهم، وتوزَّعوا بين بيت بو سمير وبو نعيم وبو صالح. استعارت فادية فناجين قهوةٍ من عفاف. أخرجت هيلانة صواني الفضَّة التي لم تستعملها من يوم عرسها. «هدايا الأعراس تصلح للمآتم»، قالت لنفسها. جُلبت كراسٍ من بيوتٍ مجاورة. فمن تدخل من النسوة لا تغادر قبل أن تطمئنّ أنَّها «درزت» بعيونها كلّ الحاضرين، تتهامس مع من تجلس قربها على وجوهٍ غريبة من قرى مجاورة. لكنَّ الجميع

يتحدَّثون عن نعيم وسمير، فيما جثَّة أمّ صالح ترقد وسط الدار، ومن يدنو منها يتمتم ليرفع عنه العتاب: «كانت خيرة النسوان»، «صبرها أقوى من الجبال»، «ولا يوم حسَّيناها غريبة عن الضيعة»... تذكَّرت هيلانة حكايات أم صالح عن أهلها وقريتها البعيدة. «كلّهم ماتوا وبقيت وحدي متل الشجرة المقطوعة»، قالت لها مرَّةً وهي تهلّ أرغفة الخبز. لم تكن امرأةً «هنيَّة» كما توصف العجائز عادة. كان طبعها حادًّا، وصبرها قليل. لعلَّ موت وردِيَّة كان السبب، والجميع غفر لها زلَّات لسانها السليط. صداقاتها في ديرزوفا لم تتعدَّ أصابع اليد الواحدة. اليوم لا أحد حزينٌ على رحيلها، فهي عجوزٌ «عاشت عمرها». أمَّا موت شابٍّ لم يكمل سنواته العشرين، فلا حكمة تعلو على هذه الفجيعة!

العيون ترصد كلّ من دخل وخرج. وشوشاتٌ خبيثة تملأ فراغات الصمت. هل عرف أحدٌ أنَّها أُجهضت؟ هل يتهامسون عليها الآن؟ أم على وردِيَّة؟ كيف كان شكلها مسجَّاةً هنا بعد الحريق؟ على أيِّ سريرٍ وضعوها؟ كم بكى صالح؟

الأسود يلفّ البيت. والخوف يلفّ قلب هيلانة. أين كانت يوم ماتت أمّها؟ لماذا لا تذكر صورة أبيها مسجًّى في البيت؟ الآن، كلّ ديرزوفا في بيتها. كيف تنجو من سؤال؟ ستختصر لأنَّها حزينة. لن يلاحظ أحدٌ رهابها من الكلام. حرارة الليل ترتفع كأنَّ الشمس لم تغب. هيلانة متعبة، ولا تعرف إذا كان السبب طوفان الناس أم تداعيات الإجهاض... أم تساؤلاتها عن وردِيَّة... أم قلقها على بوصالح الذي بدا ساخطًا، يعلو صوته فجأةً، يضرب بقدمه الأرض، يعاند صالح في الدخول إلى

غرفته. يعاند أخاه بوفؤاد الذي لم يفارقه لحظةً، ويهمس في أذنه أسماء المعزِّين. لكنَّه لا يتعرَّف على أحد. يسمع ساعة يشاء ويُصاب بالصمم إذا لم يعجبه الكلام. في الغرفة الشتويَّة، يجلس متَّكئًا على عكَّازه، ينحني الجميع لتعزيته فيما يقف صالح مع ابن عمِّه فؤاد يحيِّيان الرجال المتوافدين جماعات. هم أيضًا يختارون شلَّتهم، ويبدون كرزم القمح الموزَّعة في سهلٍ واحد. الحديث واحد: نعيم وسمير. المصيبة كبيرة، والتوجُّس واحد من أحزابٍ لا يُعرف لها أصلٌ ولا فصل، تطلّ برأسها وتلحس عقول الشباب.

مرَّ المختار، عزَّى صالح ولم يعلِّق على الحادثة. كان يصغي إلى كلٍّ من يدلو بدلوه، طالبًا تهدئة النفوس والتحلِّي بالحكمة والصبر. حيرة الرجال وقلقهم من صراعٍ بين عائلتيْن، يوحِّدهم موقفهم من القاتل. من شكَّك بأنَّ الفاعل من قريةٍ أخرى كان يردِّد: «يلِّلي حرق الحرش هو ذاته قتل سمير». كثيرون كانوا أميْل إلى تصديق هذا الاحتمال. اتِّهام الغرباء أخفّ وطأةً على الضمير. ومن كان واثقًا من أنَّ الفاعل هو نعيم، قال: «ما بيكفي قتل ابن ضيعته ورفيق طفولته، كمان هرب!» الجبن مدانٌ أكثر من الجرم ـ فكَّرت هيلانة، خُيِّل إليها أنَّ القاتل، كائنًا من كان، لا بدَّ نادم على فعلته. قتل في لحظة غضب. . . قتل من أجل فكرة. . . إلى أيِّ مدى استفزَّه سمير ليُخرجه عن طوره؟ لا أحد يعلم ماذا حدث!! خافت من تعاطفها مع القاتل. هل هو فعلًا جبان؟ أم اختار عقابه بنفسه بالتواري عن الأنظار؟ لمحت فريد في الرواق متَّجهًا إلى المطبخ. تبعته. . . أرادت أن تعرف رأيه

في ما حصل. كان المطبخ يعجّ بالنسوة، فخرج عائدًا إلى مكانه بالقرب من صالح.

هموم النسوة لم تختلف عن مخاوف الرجال. فادية توزِّع عليهنَّ المحارم وإبريق الماء، لتستعيد كلٌّ منهنَّ أنفاسها على الثرثرة. تمتزج رائحة عرقهنَّ مع رائحة ماء الورد التي ترشّها إحداهنَّ على أمّ صالح. تفتح هيلانة نافذةً جديدة كلَّما شعرت إحداهنَّ بضيقٍ في التنفُّس. السهر مع الميِّت واجبٌ لا مفرَّ منه. والصباح يتأخَّر في حضرة الموت.

فجأةً، تدخل امرأة. لم ترها هيلانة من قبل، لا في بيتها ولا في عيد السيِّدة. مشت باتِّجاه أمّ صالح ووقفت أمامها ككاهنٍ أمام المذبح. «فكَّيتِ الحِداد ولبستِ أبيض يا حبيبتي؟» تعالت شهقات بكاءٍ من النسوة. «يا غبنك. يا دلِّلي عليك شو نطرتي هاللحظة. ايييه». همسٌ وبكاءٌ متقطِّعٌ دفع المرأة لتسترسل: «سلِّميلي عليها. قوليلها خالتك هندوى طلبتلك الرحمة. يا عمري عليك... كأنَّك نايمة..».

ـ مين هيدي؟ همست هيلانة لفادية.

ـ ... مش من الضيعة.

أطلّ صالح من الغرفة المجاورة. نظر إلى المرأة، وأومأ لفادية أن تلحقه إلى المطبخ فيما أفسحت إحدى النسوة لهندوى مكانًا لتجلس وتكمل كلامها والعيون شاخصةٌ عليها.

ـ «ردِّي عليَّ... بعدها متل القمر؟ فش حروق؟ إيه معك حقّ.. ملاك أبيض طاهر».

عادت فادية من المطبخ كمن أوكل بمهمَّة. تقدَّمت من هندوى ووشوشتها. رفعت المرأة عينيْها وسألتها: «أنتِ كنّتها؟» عادت وهمست لها فادية. فردَّت: «. . . كنت وأنا أمّك الروح للروح. يا حسرتي عليها. . . صبيَّة متل القمر. . . بعدني لهلَّق مش مصدَّقة كيف غرقت».

تململت النسوة. بعضهنَّ وقفن، واتَّجهن صوب هندوى لإسكاتها. فادية تمسك بذراعها لتدخلها إلى المطبخ. تقف هندوى مذعنةً إليها. هيلانة لا تقوى على الوقوف. «أمِّي غرقت؟» التفتت إلى سيِّدةٍ تجلس بقربها: «مين هيدي المراة؟» سألتها. «خرفانة شو بدِّك فيها»، أجابتها وهي تراقب هندوى كمتَّهم يُساق إلى زنزانة. لحقت هيلانة بهما. «خلِّيكي بالصالون»، أمرتها فادية. «ما بدِّي» أجابت. «قلَّتلك ارجعي للصالون». التفتت النسوة، وهُرعت إحداهنَّ لتُعيد هيلانة إلى مكانها. «تعي حبيبتي. . . شو بدِّك فيها. . . هيدي المراة خرَّفت من زمان. تعي اقعدي هوْن».

جلست هيلانة تراقب النسوة يتهامسنَ ويبكين. كلام المجانين يثير بلبلة. لكنْ ماذا لو كان الجميع يكذب، وصوت تلك المرأة ينطق بالحقيقة؟

من الباب الخلفيّ، غادرت هندوى، وعاد كلّ شيءٍ إلى ما كان قبل مجيئها. لكنَّ قلب هيلانة يخفق ويكاد يُسمع في غمرة الصمت الذي لفَّ الليل. لم يبقَ في الصالون إلَّا قلَّة من النسوة يسندن رؤوسهنَّ كي لا تهوي عن حافَّة النعاس. لم يعد يُسمع صوت الرجال في الغرفة الشتويَّة. هم أيضًا غفوا جالسين. خرج

صالح إلى الشرفة. كان الفجر يشقّ السماء. لحقته هيلانة.

ـ مش رح تغفى شوي؟

ـ نامي إنتِ...

ـ من وين بدُّو يجي النوم؟ هندوى قتلتني.

ـ هندوى هبلة... انسيها... نامي... بكرا يوم متعب... وإنتِ صحتك مش تمام.

ـ قالت إنَّه أمِّي غرقت... قلِّلي صالح، مزبوط هالحكي؟

ـ لمَّا قلِّك هبلة يعني هبلة.

أرادت أن تبقى معه. أن تسأله إن كان يلومها على إجهاض الجنين. لا تريده أن يتوتَّر ويعلو صوته أكثر.

ـ طيِّب... رح جرِّب ارتاح شوي.

لم تغفُ من ضربات قلبها. في حلقها شوْك. جسمها كشجرةٍ تحت الثلج. من تصدِّق؟ لماذا أصرَّ الجميع على أن تغادر هندوى؟ لا أحد يعبأ لوجود بوالزلف أو بهيَّة. فاقد العقل لا يؤرِّق العاقلين. يسلِّيهم. كانت شكوكها تنمو وتقودها إلى استنتاجٍ وحيد: «الكلّ متآمرٌ عليّ. الكلّ يعرف ما لا أعرفه.. لكنْ لماذا؟»

بفارق ساعتيْن فقط، أُقيمت الجنازتان في صباح اليوم التالي. الأكتاف نفسها حملت تابوت سمير وتابوت أمّ صالح. الموكب نفسه رافق أهل الفقيديْن إلى الكنيسة. نواح النسوة كان أعلى في تشييع سمير. صالح وراء نعش أمّه، يتوسَّط بوفارس وإبراهيم، وخلفهم حشدٌ من نسوةٍ وشبابٍ ورجال. هيلانة تمسك

بذراع فادية، وأمّ فارس تمسك بذراعها. عيناها تتفرَّسان كلّ وجهٍ بحثًا عن هندوى بين الوجوه. لن تنسى هيئة تلك المرأة. كعكتها البيضاء مرتَّبة بعناية. ما هكذا يسرِّح المجانين شعرهم! عيناها الجاحظتان تدوران ككرتيْن في الهواء. على أطراف فمها رواسب شاربٍ أبيض. من عنقها تتدلّى ميداليَّةٌ بصورة العذراء تستقرّ على صدرها العارم كصدر صبيَّةٍ معتزَّةٍ بنهديْها الكبيريْن. «لو كانت أمّي طيّبة كانت رح تكون بعمرها»، فكَّرت هيلانة وهي عبثًا تبحث عن هندوى في الجموع المتَّجهة إلى الكنيسة وراء النعش.

بعد الجنازة، عاد المعزُّون إلى بيت صالح، وبدأت النسوة بالتوافد حاملاتٍ صواني الطعام. يُفتح الباب الخلفيّ المفضي إلى المطبخ على مصراعيْه. المنافسة على أشدّها. من صنعت أكبر عددٍ من الفطائر، ومن حملت أكبر طنجرةٍ من المحاشي، ومن زيَّنت صدر الأرز بقطع اللحم المكتنزة... لم تستطع هيلانه أن تقارعهنَّ في الكلام الذي يُقال في مناسباتٍ كهذه. «الله يعطيكن الصحَّة... كثَّر الله خيركنّ» كانت العبارة الوحيدة التي تردِّدها. وتولَّت فادية مسايرة النسوة اللواتي لم يتورَّعن عن التلميح إلى تعبهنَّ في الطبخ لعائلتَي الفقيديْن! لمحت هيلانة امرأةً تتناول فطيرةً في زاوية غرفة الطعام. اقتربت منها، وحين ابتسمت لها تشجَّعت أن تسألها:

ـ بتعرفي أمّي؟

ـ الله يرحمها...

«كيف ماتت؟» أرادت أن تسألها. بحثت عن مرادف للكاف

وللميم. . . لم تجد. سكتت. «كلي فطيرة. طيِّبة». لم تجب. ستغامر وتسأل:

ـ ك. . . كك. . . كيف.

ـ . . . يا حسرتي عليكِ. . .

تناولت المرأة فطيرةً أخرى، وراحت تلتهمها محدِّقةً بهيلانة كما يحدِّق الجميع بمريم! فجأةً، فرَّت هيلانة من المكان لتختفي في الحمَّام، وتبكي بلا انقطاع.

خسارة الجنين، رحيل أمّ صالح، هندوى. . . الجريمة والتأتأة! من يقوى على تلك الأحمال؟ لا رجاء لها إلَّا وجود فادية معها لأسبوعيْن. . . علَّها تكشف لها كلّ الأسرار إذا رأتها للمرَّة الأولى على حافَّة الجنون.

* * *

لم تستوعب هبة فقدان جدَّتها. كانت تصحو كلّ ليلة وتنام بين أُمّها وأبيها. وكلَّما عبرت أمام غرفة جدَّيْها، وقفت وتأمَّلت السرير الفارغ. «رح ترجع تيتا من السماء؟»، «ما حدا راح ورجع» ـ أجابتها هيلانة. «هونيك بعيشوا مع الملايكة». أرعبها أن تفكِّر هبة بالذهاب إلى السماء لرؤية جدَّتها! طلبت من صالح أن يتحدَّث معها. طلبت من أولاد أختها إلهاءها باللعب وعدم التحدُّث عن الموت. وراقبتها لأيَّام كيف تتفاعل وتتكلَّم لتراقب حروفها في رحلتها من الحنجرة إلى الفم.

ممنوع الراديو قبل مرور أربعين يومًا على غياب أمّ صالح. لا قصائد ولا تمارين لهبة على الأغنيات. لكنَّ وجود فادية ملأ البيت حركةً وفوضى. ووسط الفوضى، تتوتَّر هيلانة وتفقد سيطرتها على برنامج يومها. مع تولِّيها مهامّ حماتها زادت همومها: حلب الأبقار، الخَبْز كلّ يومَيْن، الاهتمام ببوصالح،

ومحاولة فهم موقف صالح من الإجهاض..

عندما أسرَّت لفادية أنَّها لا تشعر بالحزن على فقدان الجنين لأنَّه كان في شهره الثاني... «عبارة عن كتلةٍ من الدم مش أكتر» كما قالت لها القابلة، اعترفت لها أنَّ القدر استجاب لها بعدم إنجاب طفلٍ آخر. سألتها عن كيفيَّة تجنُّب الحَمْل من دون أن تقصِّر بواجبها كزوجة. وحزنت لأنَّ أختها لم تفهم إلى اليوم مخاوفها من أن تُنجب ولدًا يتأتئ!

كان عليها أن تقوم بواجب العزاء مع صالح لأهل سمير. وأن يمرَّا معًا على بيت بو نعيم. لم تستغرق كلّ زيارةٍ أكثر من ربع ساعة. تولَّى صالح الكلام، فيما جلست هي تتأمَّل في حال كلّ عائلة. الأمّ المفجوعة على فقيدها، والأمّ الواثقة بأنَّ ابنها ليس بقاتل، وتعجز عن تبرير هروبه. في طريق العودة، أخبرها صالح أنَّ العائلتيْن من نسبٍ واحد، لكنَّ أحد الأجداد غادر إلى شمال لبنان وحمل كنية «طحَّان»، لأنَّه كان يملك مطحنة. فيما عاش قسمٌ آخر من العائلة في ديرزوفا. لم تفهم كثيرًا أهمِّيَّة هذه المعلومة، وحرص صالح على إخبارها تفاصيلَ لم تسأل عنها، فيما يتكتَّم عن الإجابة على تساؤلاتها المصيريَّة.

ـ أكيد نعيم مش رح يرجع عالضيعة، صحْ.. صالح؟ وإذا رجع شو ممكن يصير؟

ـ إذا هرب من الضيعة مش رح يهرب من ضميره... يلعن الشباب ويلعن العلم! «قالْ تلاميذ جامعة قالْ!»

ـ طيِّب، بركي مش هوِّي القاتل؟

ـ كلّه وارد... طالما فش شهود... بس ليش هرب؟ ويمكن مكنش أصلًا بالضيعة!

ـ مش رح يعملوا شي؟ المختار ورئيس البلديَّة؟

ـ شو بدن يعملوا؟ لمَّا الأحزاب تصير هي الدولة... وحاكمة بصرمايتها، مين قادر يردّها؟

ـ يا دللي أنا... فريد...

ـ شو بو فريد؟ تخافيش عليه. واعي وقبضاي...

قبل يوميْن من موعد عودة أختها إلى بيروت، اقترحت هيلانة عليها أن تذهبا في سيران. سمعت كثيرًا عن ذلك النبع الذي يقصده أهل القرية حاملين معهم زوَّادةً لأطفالهم الذين يجدون في هذه المساحة البعيدة عن القرية فرصةً لتسلُّق الأشجار وتقفِّي السحايا والفراشات.

بالنسبة إلى هيلانة، هذا السيران هو فرصتها الوحيدة لتختلي بفادية. توقَّفت أكثر من مرَّةٍ في الطريق، لتسأل عن أصحاب البيوت التي تزنِّر طرف القرية وتكاد تشبه بعضها بعضًا. أصرَّت أن تدلّها فادية على بيت توفيق روكز، حين رأت الورود تتدلَّى من حافَّة الشرفة والبوَّابة الحديديَّة الكبرى من النوع الفاخر الذي لم تَرَ مثله حتى الآن. تقدَّمت بضع خطواتٍ نحو عتبة البيت، كانت ترغب في الدخول والسؤال عن ربيع الذي قيل إنَّورديَّة أحبَّته. سحبتها فادية من يدها لتكمل سيرها.

ـ دخلك، ربيع إجا مع بيُّو عالتعازي؟

ـ ما بعرف... ردَّت فادية.

ـ شو بتمنَّى شوفه... تزوَّج؟

ـ ما بعرف...

ـ غريب... بتعرفي البيضة مين باضها بالضيعة وما تركتي حدا من شرٍّ لسانك لا بعيد السيِّدة ولا بالعزا... إلَّا ربيع؟ ما بتعرفي إذا تزوَّج أو مات أو سافر؟

ـ أختي؟ شو صاير لك؟

ـ زهقت من التعامل معي كككك... كأنِّي طفلة... ققق... قاصر... لا... كأنِّي مريم أو بوالزلف... كأنِّي على هامش الدني...

ـ رح نوصل ونحكي... روقي.

أسرعت هيلانة في سيرها. أحسَّت بالحصى يتفتَّت تحت قدميْها الصغيرتيْن. خرير الماء يقترب. وفادية تتحدَّث مع ولديْها بالفرنسيَّة، فيما هيلانة تعلِّق بصوتٍ هامس: «إن شاء الله ما يسمعك حدا... فرنساوي بالضيعة؟»

حين وصلتا، كان أحد الفلَّاحين يرصف الحجارة في إحدى القنوات، ليصل الماء دفَّاقًا إلى بستانه.

ـ العوافي عمّ بومنير، بادرت فادية.

عندما رفع رأسه ليردّ التحيَّة، لاح طيف صالح في عينيْ هيلانة. الفلَّاحون متشابهون. طيبتهم خشنة. صدقهم برِّيّ. لكنَّ «المظهر يخون صاحبه»، قالت لنفسها، «ما نفع جمالي إن كان بي عاهة؟».

كان بو منير يتحدَّث إلى فادية، فيما شردت هي في أمنياتها الصغيرة قبل أن تحلّ كلّ هذه المصائب بديرزوفا. متى سترافق صالح إلى البستان؟ كم ترغب في رؤيته هناك وهو يكسِّر الأحجار بفأسه!! عشقت هذه الفأس بعدما قرأت أنَّها رمز الرعد والبرق والصواعق في الأساطير القديمة. كم تشتهي أن ترى عضلات ذراعيْه تلمع تحت الشمس وهو يزيل بشوكتيْ يديْه الأعشاب والحصى من حقله.

جلست هيلانة على حافَّة النهر بعدما ابتعد الصغار ليلعبوا تحت شجر الجوز. مدَّت يدها لتغرف الماء وتشرب، وتقول لفادية:

ـ اليوم بدِّي أعرف كككك... كلّ شي... عن ربيع ووووو... ووردِيَّة... وأمِّي... قولي لي وإلَّا قسمًا عظمًا بروح هلق عند تنتتـ... توفيق روكز... هلَّق.

ـ صرت تعرفي تحكي وتهدِّدي كمان؟

ـ ما تتعاملي معي كأنِّي بنت زغيرة. أنا كبرت... ععععـ.. عيب عيش متل الأأأطرش بالزفّة... للـلـ.. للـ... ليش الكلّ خخخخ... خخـ... خايف إنِّي أعرف الحقيقة؟

ـ ما حدا خايف من شي...

شردت هيلانة. تأمَّلت يد أختها وهي تضرب حبَّة جوز بحجر، وتهمس: الجوز طيِّب بس تقشيره مشكلة!

ـ صحيح.. أمِّي غرقت؟ وين؟

ـ أختي... ليش مصرَّة تصدِّقي كلام المجانين؟

ـ ما غرقتش؟

ـ ما شفتي كيف طلب منّي صالح طلّع هندوى من البيت؟

ـ طيّب كككك. . كيف ماتت أمّي؟ وكيف احترقت وووو. . . ورديّة؟

ـ أمّك مرضت وماتت. خلصنا. مش كلّ ما قال حدا كلمة تصدّقيها! اكبري أختي.

ـ بس. . . هندوى. . . مش مبيَّن عليها مجنونة.

ـ مجنونة ونصّ!

ـ للل. . . لمَّا. . . سألتك مين هيدي. . . قققق. . .

ـ قلت ما بعرف لأنّي ما شفتها ببيتنا ولا مرَّة. كيف بتكون صديقة أمّنا «الروح للروح» وأنا ما شفتها بحياتي؟ فكّري.

ـ وين ساكنة؟

ـ شو بيعرّفني.

ـ بس. . بتعرف أمّ صالح منيح. . . كككك. . . كك. . .

ـ مين ما بيعرف أمّ صالح؟

ـ وبتعرف وورديَّة. . . ببب. . . بب. . بتعرف إنـ. . . إننن. . . إنَّها احححـ. . احترقت. . .

ـ حبيبتي، لمَّا احترقت وردیَّة كلّ السهل عرف.

ـ طيّب. . . كككيف احترقت؟ قولي لي؟

ـ والله. . . ما حدا بيعرف كيف. . . بتذكَّر يللّي خبَّرني إيَّاه فريد لمَّا شاف النار والعة. ركض عالحقل، وشاف صالح

هونيك، واقف قدَّام أخته والنار عم تهبّ فيها. كان عم بينط متل الجندب. جرَّب يطفِّيها بس النار كانت أقوى منه... عم بتهب بجسمها... جرَّب بالتراب... بس البحص ما ساعده... فريد قال إنَّه لما ولَّع الحقل ليتخلَّص من بقايا القمح والشعير، ما توقَّع أنَّها تقرَّب عليه. فستانها لقط النار وهبَّت فيها كلّها. كان صالح بعيد عنها... النار بتأكل كلّ شيء بسرعة... كان زغير.. عوده طري.

ـ ... يعني... ما انتحرتش... وأنيس الأخوِت ما قتلهاش؟

ـ من وين جبتي هالأخبار؟ خذي كلي هيدي... بتشهِّي!

ـ رنا خخخبّرتني...

ـ لقلاقة متل أمّها... ما تصدِّقيها، أختي.

ـ كيف بدِّي أعرف الحقيقة إذا ما حدا بيجاوبني؟ ببعد ككك... كك... كلّ هالسنين، بعرف أنّه في مخلوقة اسمها ووو... ووردِيَّة... عايشة ببيت صالح متل الغريبة. أكيد الكلّ بيقول عني غ.. غ... غبيَّة!

ـ ولك أنتِ ما بتعرفي قدِّيش المصيبة كانت كبيرة عليهم... مرَّت سنين قبل ما يرجع صالح عالحقل. وأمّ صالح ما شلحت الأسود لماتت فقع.

ـ أختي... بترجَّاكي... احكيلي ليش زوَّجتيني لصالح؟

نهضت فادية، وابتعدت خطواتٍ لتتفقَّد الصغار. كانوا يتراشقون بالماء فوق إحدى القنوات. أوصت الصبيَّيْن الانتباه إلى

هبة... عادت واقتربت من هيلانة.

ـ صحيح... معقول بنصّ حفل عيد السيِّدة خطر لكِ تسألي هالسؤال؟ احكيلي قبل.. صالح زعلان على الولد؟

ـ بعرفش... زعلان كتير هالأيَّام. وشو ععرَّفك إنُّو ولد؟ يمكن كان بنت... المهمّ جاوبيني.

ـ ليش ما بدِّي زوِّجك إيَّاه؟!... صالح قبضاي. وأنتِ... بحاجة لحدا متله يهتمّ فيكِ.

ـ شو قصدك، يهتمّ فيِّي؟

ـ كنتِ زغيرة.

ـ لأنِّي بتأتئ؟... وإذا ما تزوَّجت صالح رح ععنس..

ـ أختي... إنتِ اليوم مش تمام.

ـ مبلى تمام... ولا مرَّة بتجاوبي على أسئلتي. ليش بتأتئ؟ شو صار بصوتي؟ لللل... ليش ما بتط... بتططط... بتطلع الكككك... كلمات بسهولة؟

اقتربت فادية منها. عانقتها مبعدةً أصابعها المتَّسختيْن بقشر الجوز. انهارت هيلانة بالبكاء.

ـ ليش؟ قولي لي...

ـ روقي... هلَّق بتشوفك هبة. غسّلي وجِّك.

غرفت هيلانة الماء، ورشقت به وجهها.

ـ تعبت يا أختي... تعبت...

ـ ليش بتكبِّري الموضوع؟ إنتِ اليوم أفضل بكثير من

قبل... ما كنتِ قادرة تنطقي كلمة واحدة. الحمد لله صرتِ أحسن...

ـ أحسن؟ هيك بيحكوا الناس؟ قولي لي، من غيري بديرزوفا بيحكي متلي؟

سكتت فادية، وبدت عاجزة لأوَّل مرَّةٍ عن الردّ.

ـ أخدتيني شي مرَّة عععند حكيم؟ ليش ما بتسألي الأطبَّا ببيروت؟... أكيد في حلّ.

ـ ما في حلّ غير إنُّه تروقي... الدكتور ناجي كشف عليكِ لمَّا كنتِ زغيرة. قال ما فينا نعمل شي...

ـ شو السبب؟ بدِّي أعرف!

ـ والله، يا أختي ما منعرف... من الله. وعيتِ الصبح لسانك مربوط... ما بعرف!

ـ كنت شاطرة بالقراءة... أخدت جوايز... شو صار بعدين؟

ـ صرتِ تخافي تقري... فجأةً.

ـ طيِّب... صالح كان يعرف إنِّي بتأتئ؟

ـ قلِّك شي؟

ـ لا... بيحكيش... لا عن ورديَّة ولا عن تأتأتي، ولا عن شي. يمكن بيشفق عليٍّ... أوقات بحسّ إنُّه ما بببيحكينيش... لحتى ما يشوفني عععم بتعذَّب بالردّ... أو لينسى شو بني...

ـ هيلانة حبيبتي... ما تفكِّري بهالموضوع. مش رح تخلصي من التأتأة طالما أنّك بتفكِّري فيها... خلص... انسيها.

ـ بيي... يللي بياكل الع... الع...

ـ العصا مش متل يلّلي بيعدّها... فهمت.

ـ ممم... ما تكمّلي جملتي!

رمت الجوْز من يديْها، ووقفت لتبتعد عن فادية وعن الصغار. أرادت لو تختفي. لو يجرفها النبع. كانت دموعها أقوى من سيل الماء في القنوات البعيدة. سمعت خطو فادية خلفها. لم تلتفت إليها. سألتها:

ـ طيِّب قولي لي... موت أمِّي هو السبب؟

زفرت فادية أنفاسها كأنَّ صبرها نفد.

ـ ممكن... موت أمّك. موت بيّك. حادثة فريد...

ـ أيّ حادثة؟ صرخت هيلانة وهي تستدير لترى وجه فادية. تكره نظرة الشفقة تلك.

ـ ما بتتذكَّريها صحّ؟

ـ هيدي مشكلتي... ما ببتذكر حياتي قبل صالح! لو بتحسِّي ببببعذابي بببترحميني... احكي!

ـ كان عمرك ستّ أو سبع سنين لمَّا وقعت مصيبتنا... الحمد لله لكلِّ بيت مصيبة بديرزوفا!! كانت الماما توفّت، والبابا مريض... ما خفت بحياتي مثلما ارتعبت يومها. حسِّيت أنّ

شرارة حرب رح تطلع من بيتنا وتشعِّل السهل كلّه.

ـ حرقتيلي أعصابي...

ـ راح عالصيد مع رفيقه يونس. بتعرفي بيت طارق النجَّار؟... بيتهم على الطريق الفوقا؟ بِلزق بيت رئيس البلديَّة؟... المهمّ. فريخات زغار. 13 سنة... ما قلقنا... بارودة خردق ما بتأذي. ما عرفنا إنُّه يونس سرق بارودة بيّه. أخذها منه فريد ليشيل رصاصة علقت ببيت النار. وفجأةً انطلقت... وصابت يونس. كان واقف بوجه فريد. انفجر راسه.

لم تفكِّر هيلانة بفريد ولا بأبيها ولا بفادية في تلك اللحظة. فكَّرت بنفسها. أين كانت يوم وقعت هذه الكارثة؟ كيف لم تشعر بتلك الغيمة الكثيفة التي خيَّمت على البيت؟ أَيُعقل أنَّ الحادثة هي السبب في عاهتها ولا تدري؟

ـ وين كنت أنا؟

ـ كنتِ بالبيت. ما بتتذكَّري؟

ـ بتذكَّر البير... تخيَّلي... وبتذكَّر إنِّي ككّكك... كنت إلحس الحيط فوق تتت... تختي... ليش؟ ما حدا بيعطيني جواب.

ـ كنتِ غريبة عن جدّ. بتضّحكي. لحس الحيط...

سمعتا هبة تبكي، فركضتا إليها. كانت قد أمسكت فراشةً فضربها ابن خالتها على يدها، وقعت الفراشة، دهسها بقدمه. عانقتها هيلانة. ووبَّخت فادية ابنها، كما بدا من نبرة صوتها لا من كلامها الذي تصرّ على أن يكون بالفرنسيَّة. ابتعدت هيلانة مع

هبة إلى النبع، وغسلت لها وجهها. قشَّرت لها الجوز، لكنَّها بقيت تشهق بالبكاء، وأرادت العودة للعب مع أولاد خالتها.

حين عادت فادية، التقطت هيلانة أنفاسها لتسألها:

ـ وبعدين شو صار؟

ـ بشو؟

ـ بفريد؟ بأهل يونس؟

ـ ولا شي... فهموا شو صار... طيش ولاد.

ـ لهيك فريد بيطلعش من البيت؟

ـ ما باعتقد... هوِّي هيْك... بيحبّ يكون وحده. شو أختي؟ رح نبقى هون طول النهار؟ زهقت أنا.

ـ عندك صورة لأمِّي؟

ـ يمكن عندي... على فكرة أنت بتشبهيها كتير. وأنا وفريد منشبه البابا... يلَّلا. تأخَّرنا...

ـ بدِّي صورة لأمِّي.

ـ حاضر... يلَّلا قومي.

في طريق العودة، كانت القرية تعجّ ببعض الناس، وفي رأس هيلانة أفكارٌ وتساؤلات تتوالد. التفتت إلى بيت أمّ عادل، كم تودّ أن تزور تلك المرأة التي لم تَرَ وجهها إلى اليوم! وتساءلت لماذا لم تأت يوم توفِّيت أمّ صالح.

مرَّت راهبة من أمامهما، وحيَّتهما. كانت هيلانة قد لمحتها في المدرسة يوم سجَّلت هبة فيها.

ـ ما في أحلى من Sœur بربارة. . . بتعرفيها أكيد!؟

ـ طبعًا.

ـ بعدني بتذكَّر لمَّا مرض بوفارس. راح لعندها موجوع وعندو مغص وحالته حالة. عِطيته دوا. . . وبعد يومَيْن رجع ليشكرها على الحبَّة السحريَّة يلِّلي ما لحق يبلع منها حبَّتيْن حتى اختفى الوجع. طِلْعت عاطيته حبوب منع الحمل. هيْك بيشفوا أهل ديرزوفا. . . بالنوايا.

كانت قد سمعت تلك الحكاية على لسان صالح، لكنَّها لم تعرها أيّ اهتمامٍ كما كلّ الحكايات التي رُويت في بيتها من قبل. لكنْ ما استغربته يومها أنَّ الجميع كانوا يختمون روايتهم بالجملة نفسها: «ناس بسمن وناس بزيت. . . ناس عندها مستشفى محترم، ونحن مش طالعلنا إلَّا مستوصف راهبات بيعمل العجايب!» أمَّا تعقيب فادية الآن، فيشبه تعليقها على زوجة رئيس البلديَّة:

ـ الإسلام صار عندهم مستشفى! وأهل ديرزوفا يلِّلي نصّ شبابها بالجيش، ورئيس بلديَّتها محامي قدّ البلد، ما عندها إلَّا sœur بربارة؟

ـ في الدكتور ناجي، أجابت هيلانة.

ـ هيدا مشحَّر على أيَّام بندق بوفتيل.

ـ هلَّق صار مشحَّر؟ كنتِ عم تقنعيني برأيه عن التأتأة. إنُّو ما إلها حلّ! طيِّب ليش ما منشوف حكيم من هيداك المستشفى؟

ـ لا أختي. . . لو بدِّي موت ما بروح لهونيك!

ـ والأخ ألبير؟

ـ من كلّ عقلك أختي؟

كم كرهت نفسها، لأنَّها ابتلعت جوابًا كاد أن ينزلق من لسانها: «إبراهيم بيآمن فيه للأخ ألبير». لماذا تفشل كلّ محاولاتها للتمرُّد على أختها! لولا فادية لهربت ربَّما مع فتى البحر، واختفت كحوريَّة! كرهت نفسها، لأنَّها لم تقذف تلك الجملة حرصًا على مشاعر أختها التي لم تفكِّر في عرضها على طبيبٍ غير الدكتور ناجي. «لا أحد يستحقّ القتل سوى الضعيف، مثلي»، قال لها صوتها.

اقتربتا من البيت صامتتيْن. صعدت فادية في سيَّارتها مع ولديْها عائدةً إلى بيت فريد. أكملت هيلانة طريقها. صادفت عفاف في الباحة تعاجلها للصعود إلى البيت، لأنَّ أمّ فارس تنتظرها.

ـ خخخير؟ زيارتك عزيزة أمّ فارس...

ـ بدِّي أحكي معك يا بنتي.

ـ تفضَّلي.

ـ مش رح طوِّل عليكِ... بدِّي منك خدمة. بدِّي صالح يقنع فارس ما يبعش محصول العنب لنادية. بدِّيش مال حرام في بيتي... قلتلو بيع لمنير ابن عمَّك، هيك بيضلّ الخير بالعيلة. أبدًا... طالع براسو نادية... يا أمِّي، بِيع للغريب... بِيع لزفت الطين، بس مش لنادية... أبدًا راكب راسو وبيسمعش منِّي. والله والله.. لأحرق المصريَّات أوَّل ما يوصلوا.

ـ رروقي... رح خخخ... خبِّر صالح اليوم وما ببب.. بيصير إلَّا الخير.

ـ كيفك إنتِ؟... شو؟ مش رح تجيبيلنا هالصبي؟ أو لشو الصبيان... لو عندي بنت كانت حنِّت عليّ... اعذريني يا بنتي. فكَّرت أنطر صالح لأحكيه. بس بيجي قريب المسا وأنا بقدرش إرجع بالعتم عالبيت. يلَّلا خلِّيني روح.

ـ ما تعتليش هم... ككك... كلّ شي بصير متل ما بدّك.

ـ أمّ فارس معها حقّ، قال لها صالح وهو يتناول العشاء ويُطعم هبة التي جلست قربه تشاركه طبقهما المفضَّل، الهندباء.

ـ لِوي قلبي عليها... فارس وحيدها... ووما بيشفي غليلها لا بالزواج وولا بشغله...

ـ صايع ضايع.

ـ رح تحكيه؟

ـ والله، لولا بوفارس الله يرحمه، ولولا إنُّو أمّه ستّ طيِّبة ومحترمة... كنت قتلته! بعد العشا بتمشَّى صوبه. صبي أرعن. بلا مخّ...

ـ بابا بابا، أنا بدِّي مخّ... هتفت هبة.

ضحك صالح، واحتضنها بأصابعه المبلَّلة بالحامض.

ـ هبة.. أنتِ عندك مخّ، أمِّي. اعرفي شو عم تحكي!

ـ ليش عم تحكي مع البنت هيْك؟

ـ لازم تعرف تحكي... شو بدِّي مخّ؟!

ـ طفلة هيْدي... فكَّرت المخّ يخنة. قال لازم تعرف تحكي قال... الأكبر منها بيعرفوش يحكوا!

ونهض ضاربًا بيده الصِّدر النحاسيّ، فاهتزَّت الأطباق عليه وارتعشت هبة. «تعي يا بيِّي... خلِّينا نروِّق مخّنا أنا وإيَّاك برّا».

تبكي أو تركض خلفه لتعتذر؟ لا شكَّ أنَّه يقصدها هي في عبارته السامَّة تلك. هي المرَّة الأولى التي يعيِّرها بعاهتها. حملت الصِّدر لتغسل الأطباق وترتِّب المطبخ. لن تخرج قبل أن يذهب عند فارس. لن تكلِّمه حين يعود.

عندما عاد، كانت في السرير تجترّ شكوكها. هل أخبرتها فادية عن وردِيَّة لتُنسيها حكاية أمّها والغرق؟ لماذا قرَّرت اليوم كشف لغز فريد؟ أليس للسبب نفسه؟ هل فعلًا هندوى مجنونة؟ تساؤلاتها تتصاعد على وقع شخير صالح. غفت بعد إعياءٍ من البحث عن أجوبة. ما يطمئنها فقط أنَّ هبة بدأت تستعيد هدوءها، وتنام ملء جفونها في سريرها. وفاة أمّ صالح لم تُصبها بالتأتأة.

فجر اليوم التالي، كانت تخبز في غرفة المؤونة عندما فاجأتها فادية بمجيئها المبكر وحدَها.

ـ مشتاقة للبنة برغيف الصاج السخن... بونجورك أختي.

ـ صباح الخير، أجابتها وهي تهلّ أحد الأرغفة. اطلعي عالبيت، في لبنة بالبرَّاد وزيتون أخضر عالمجلى... وفي كشك أخضر عملتهن مبارح. حححطيهم عالطبق وانزلي...

سمعتْ صوت الأستاذ نبيل في الدار. سحبت فستانها لتغطِّي ركبتيْها. خرجت فادية متَّجهةً إلى البيت، سمعتْها هيلانة تدعوه إلى الفطور.

ـ ناديني عندما تريدين أن تخبزي. أحضِّر لك الموقد. الجيران لبعضهم...

ـ «كثّر خيرك»... أرادت أن تقول. لكنَّها أجابت: «معليش... تعوَّدت».

ـ «العادة طبيعة ثانية»! أتعرفين هذه المقولة؟

ـ ...

ـ العادة خطيرة، أردف. تمحو جوهر الإنسان، فيُخيَّل إليه أنَّ عاداته هي هويَّته.

استغرقت في التفكير وهي تسحب العجين، وتمدِّده على كامل الوسادة قبل أن تضعه فوق الصاج.

ـ لم تستعيري كتبًا منذ فترة.

ـ فش وقت... ردَّت مبتسمة.

ـ تبدين حزينة اليوم...

ـ مين حزين؟ قالت فادية وهي تدخل حاملة الصِّدر النحاسيّ وعليه الفطور.

نهض الأستاذ نبيل ليجلب صندوقيْن، ويضعهما جنبًا إلى جنب، فيستقرّ عليهما الصِّدْر.

ـ يا هلا بفادية. صباح الخير مرَّةً أخرى.

ـ بونجورين. . .

ـ بونجورين؟ ههه، هذه جديدة عليَّ! أليس أجمل أن نقول صباح الخير، صباح النور. . . صباح الورد والفل؟

ـ الدني بتتقدَّم مش بترجع لورا أستاذ نبيل!

ـ معك حقّ. . . نحن متخلِّفون لأنَّنا نتكلَّم لغتنا.

ـ مش هيْك ققق. . قصدها فادية. . . تتتـ. . . تعوَّدوا يحكوا هيْك. وناولته رغيفًا ساخنًا.

ـ اممم. . . العادة مرَّة أخرى. . . حسنًا. الله ما أشهى هذا الرغيف! شكرًا.

نظرت هيلانة إلى فادية كأنَّها تطلب منها عدم استفزازه مرَّةً أخرى.

ـ كيف حال إبراهيم؟ لماذا لم يأتِ معك؟

ـ الإنسان بيلحق رزقه.

ـ أمدَّه الله بالصحَّة والعافية. لو أنَّه فقط أكمل ما بدأه أبوه. لكان أفاد نفسه وأفاد القرية. ثم إنَّ الحياة في بيروت غربة. . أليس كذلك؟

ـ ما أطيب هالكشك، أختي. . .

ـ طبعًا شغلي.

ـ تعوَّدنا على بيروت يا نبيل. الأولاد تعودوا. بصراحة أنا بضجر هوْن. . .

ـ هيْك يعني؟. . . ببيروت رح تاكلي خبز طازة وكشك

أخضر؟... والله، ديرزوفا بكفَّة ومدن الأرض بكفَّة.

ضحك الأستاذ نبيل وفادية معًا، فشعرت هيلانة بحماقة ما قالته وبخدَّيْها ينتفخان كقرصيْ عجين. فراحت تفقأ فقاقيع الهواء في الرغيف المتمدِّد على الصاج، وتسحب أنفاسها إلى صدرها لتستدرك وتقول:

ـ صحيح ما زرت بيروت ولا مدن الأرض، بس بعرف إنُّو... اللد... إن... (الإنسان)... إنُّو يللي بيبعد عن أرضه ما بيبـ... بـ... بيتهنَّا بحياته... ممما بيحسّ حاله مغروس... بـ... بـ. بينتمي... هيدا أساس الحياة... الانتماء.

التفتت فادية إلى الأستاذ نبيل، وقالت:

ـ تلميذتك صارت فيلسوفة.

ـ دائمًا تفاجئني... ودائمًا أقول لو أكملت تعليمها لكانت اليوم أهمّ من مي زيادة.

ـ صباح الخير... وصحتين... نبيل... ممكن لحظة؟

ـ صباح الفلّ عفاف، هتفت هيلانة. يللا شوفي هالرغيف ما أحلاه. تتـ... تفضلي.

ـ تسلمي... مش عبالي.

ـ بتندمي، أجابت فادية.

بلع الأستاذ نبيل ريقه وهو يضع الرغيف من يده، ويقف مستأذنًا ليلحق بعفاف. عندما تواريا، همست فادية:

ـ رح ياكل أتلة...

ـ ليش؟

ـ صدِّقيني... هاتي رغيف تاني أختي. دخيل الله كيف طايقته عفاف؟ فصحى عالريق؟

ـ فادية... مين مي زيادة؟ وتضحكيش.

ـ أديبة لبنانيَّة... شيليها من راسك... ناقصنا مصايب. جماعة الأدب والثقافة مجانين أختي... يلَّلا قومي... خبزتي لديرزوفا كلّها، بيكفِّي.

ـ خلصت... أكيد هبة وِعْيت. مطقطق قلبي عَ فنجان قهوة.

مرَّتا من أمام بيت الأستاذ نبيل، وسمعتا صوته يتداخل مع صوت عفاف.

ـ شو قلتلِّك؟ همست فادية، هيدا أكثر شي بفتقده ببيروت. إنَّك تعرفي كلّ شي عن كلّ شخص بالضيعة أكثر ما هو بيعرف عن حاله. شي بيسلِّي!

ـ بيسلِّي؟...

دخلتا، واتَّجهت هيلانة إلى الغرفة لتتفقَّد هبة. ما زالت نائمة. حيَّت فادية بوصالح خارجًا من غرفته. وعندما دخلت المطبخ، همست لها:

ـ عمّك عم بيودِّع... حضِّري حالك.

ـ بعيد الشرّ... شو بكِ اليوم؟

ـ مش رح يشلِّش... هيدي الحقيقة. بسّ رح يودِّع قريبًا. مسكين... يلعن أبو العمر... بتعرفي إنَّه عمَّر هالبيت لحاله.

عاشوا بالطابق الأرضيّ كم سنة وبعدين عمَّر هيدا الطابق. أختي؟ ما بدِّك تغيِّري هالفرش؟ وهالكروشيه كمان. . . متل بيوت الختياريَّة.

ـ ما خفتي عليّ إنُّه ما إنبسط بحياتي مع صالح؟

ـ رجعنا لسيرة صالح. . . لا أختي، شو بدِّك أكثر من هيْك؟

كانت تغلي القهوة عندما قذفت فادية عبارتها الأخيرة كأنَّها بصقت عجوة زيتون. تراءت لها كلماتٌ أخرى خلف ما قالته: «هيدا كتير عليك أصلًا»، أو «بنت متلك ما بتحلم بأكثر من هيك»، أو «لو صالح ما تزوَّجك، كنتِ عفَّنتِ بالبيت». صعقت لسماع تلك العبارات في رأسها. كيف لعبارةٍ واحدة أن تحمل كلّ هذه الاحتمالات؟

سكبت لبوصالح فنجانًا بعدما أصرَّ على البقاء في المطبخ، وخرجت مع فادية إلى الشرفة. وعندما انضمَّت إليهما عفاف، تأكَّد لهيلانة أنَّه ينقصها الكثير لتصبح مثلهما.

ـ أيمتى راجعة؟ سألت عفاف.

ـ بعد أسبوع. . . بدِّي أشبع من أختي. ردَّت فادية ويدها تداعب شعر هيلانة.

ـ وإبراهيم. . . كيف مدبِّر حاله لوحده؟ أنا لو تركت نبيل يومَيْن، بيصير المجلى طابقَيْن.

ـ يا ستِّي. . . الرجّال متل ما بتعوّديه. كلَّما دلَّلتيه بزيد كسله. بعدين. . المسافة ضروريَّة ليعرف كلّ واحد قيمة التاني.

ـ يمكن. . . بعرفش. . . ردَّت عفاف. بينشغلش بالك عليه؟ تزوغ عيونه هيْك هيْك؟

ـ فشر. . . بخلّيه ينشغل باله عليّ.

ـ بعرفك مش قليلة.

ـ لمَّا تعيشي مع زوجكِ فترة طويلة بتصيري تعرفي كيف وأيمتى تذكّريه بطريقة ذكيَّة شو رح يخسر إذا زاغت عينيْه. مثلًا خلّيني خبّرك شو عملت فيه مرَّة. عزمونا ناس عالعشا من حوالى الشهر. . . (وتلفَّتت إلى هيلانة) ريتّا ـ خبَّرتك عنها مرَّة ـ بنت عمّ شريك نبيل بالشغل. مَرَة حلوة ولذيذة. . . وعندها بيت بالجبل بطيِّر العقل. (وتعود لتنظر إلى عفاف وتكمل الحكاية) المهمّ. . . بيقوم إبراهيم من مطرحه وبيقعد حدّ ريتّا وزوجها. . . وبيبلش حكي معهم شي نصف ساعة، وكلّ الوقت عيونه على ريتّا. . . وإبراهيم بيحبّ يترك انطباع حلو عند الناس، خاصَّةً أوَّل ما يتعرَّف عليهم. المهمّ. . . لمَّا رجعنا عالبيت، ما فتحت تمِّي. بعد أسبوع، قلت هات لنردّ العزيمة وخلّيهم يجوا على بيتنا مع أصحاب تانيين كان لازم نعزمهم. وقرَّرت أعمل فيه متل ما عمل فيِّ. لمَّا لقيته مشغول وعم بيصب المشروب لأصحابنا، قعدت حدّ ريتّا وبلَّشتساير زوجها، وما وقَّفت حكي معو. . . نكت وقصص وضحك. وهو مهضوم كثير. عندو بواخر عالبور (المرفأ). تاجر كبير وعندو مصاري ما بتحرقها نيران. المهمّ. . . كنت بطرف عيني عم بشوف إبراهيم كيف عم بيغلي ومش عارف بأيِّ طريقة بدُّو يدخل عالخطّ. وما تركتلّو مجال يستفرد بريتّا. ساعة أطلب منو يجيب نبيذ، ساعة قللو طلّ عالاولاد إذا بدُّن شي. لحتى ما صدَّق كيف خلصت السهرة. . .

لا شكَّ أنَّ عفاف فهمت الرسالة، فكَّرت هيلانة. تحديقها

بفادية خطف ملامحها. شعرت بواجب التخفيف من صدمة جارتها، فهبَّت تقول:

ـ الحمد لله... هون ما عنَّا هالألاعيب.

ـ إنتِ تزوَّجتِ فلَّاح، أختي. ما بيشوف إلَّا الحقل والبغلة. ببيروت غير، وإبراهيم بيحتكّ بناس كثير. والنسوان ببيروت مش متل بديرزوفا.

ـ النسوان نسوان، وين ما كان، تمتمت عفاف.

نهضت هيلانة ودخلت البيت. مرَّةً أخرى، تصدمها فادية بكلامٍ جارح. كم مرَّةٍ أرادت أن تقول لفادية إنَّ صالح «بيسوا ميَّة من إبراهيم». لو أنَّها تعلم فقط رأي صالح بإبراهيم لتوقَّفت عن التبجُّح: «بالو بتجميع المصاري»... «ترك بيُّو يموت قهر... باع تعبه ورزقه ليشتري بيت ببيروت، ويلحق العكاريت ويعمل وجاهة».

عندما عادت إلى الشرفة، كانت عفاف وفادية تقفان على أوَّل الدرج، وتتمتمان حديثًا لم تفهمه هيلانة، ولم تحاول. وبعدما نزلت عفاف، استدارت فادية نحو هيلانة التي راحت تجمع فناجين القهوة، وقالت لها:

ـ كيف؟ بعجبك أنا... وصَّلتلّها الرسالة، صحّ؟

ـ ...

ـ شو بكِ؟ زعلتِ منّي؟ ولك صالح أهنا رجَّال بالعالم. هيك قصدي... بشرفك لمَّا يغازلك ما بيفتل بشواربه؟

ـ اسمعي فادية... ككك... كك... كلامك بيجرحني

كتير... خخخخخ... خلص... مممم... ما بدِّي أحكيك ووو... ولا تحكيني.

سحبت فناجين القهوة، ودخلت مسرعةً إلى المطبخ. استغرقت في إعداد طعام الغداء، وفكَّرت بالمستشفى «عند الإسلام»... ماذا لو كانت فادية مخطئة؟ قد تجد طبيبًا أفضل من الدكتور ناجي. ولكنْ كيف ستذهب إلى هناك؟

ـ هيلانة... وينك غرقانة؟

لم تجب. دخلت فادية إلى المطبخ، عانقتها وهي تقول:

ـ دخيلو الزعلان... وهيدي بوسة. خلص أختي. رح تقضِّي حياتك زعلانة؟ تحمَّلي مزحي. مش رح تشوفيني للصيف الجايي! أختي، أيمتى رح تركّبي تلفون. كلّ ديرزوفا صار عندن تلفونات إلَّا إنتِ... بتخافي من عايدة تكشف أسرارك؟

ـ فادية... اوعديني ما تتمسخري.

ـ وعد...

ـ مين ععععع.. عايدة؟

ـ ممكن أتراجع عن وعدي؟ ردَّت وهي تكتم ضحكتها.

ـ ... ووو... وعدتيني.

ـ طيِّب... بيسمُّوها عايدة السنترال. إجت على تعازي أمّ صالح، وصاروا النسوان يسايروها لتحكيلهن قصص واخبار... وإنتِ متل العادة في خبر كان. عايدة بتعرف كلّ أخبار الضيعة لأنّ كلّ مخابرة بتمرق من السنترال فبتسمع كلّ كلمة.

ـ إيه لأ... بدِّيش تتسمّع على حكيي معك.

ـ اشتقت تغسليلي إجريِّ. قال لها صالح بعد عشاء صامت اكتفى فيه بالدردشة مع هبة.

لم تردّ، ما تزال مستاءةً منه. توقَّعت أن يعتذر لها. حملت الطشت، واستعدَّت لطقس القدميْن.

ـ يومي ما كنش منيح... بس لمَّا فكَّرت فيكِ، تغيَّر.

ـ كتِّر خيرك...

ـ قصَّة فارس وتّرتني.

ـ انحلَّت المشكلة؟

ـ أيّ مشكلة؟

ـ ففارس...

ـ هدَّدته... إذا ما التزمش بوعده لأمّه رح يكون إلي شغل تاني معه.

ـ شو رح تعمل؟

ـ ولا شي... كلامي وحده بيكفي. التهديد بينفع معه.

بعدما نام وسكن البيت، أحبَّت أن تسهر وحدها وتتأمَّل في كلام صالح. تهديده لفارس سيجبر الأخير على الإيفاء بوعده. «سيكون لي شأنٌ آخر معك»... من أين له الثقة بأنَّ فارس سيلتزم؟ ماذا لو لم يفعل؟ هل سيخترع جملةً أخرى يهدِّده بها؟ إذًا الكلام وحده لا معنى له. قوَّته من قوَّة ناطقه. من قوَّة معرفته بالآخر. من قدرته على توقُّع سلوك الآخر. هل ما ينقصها هو قوَّة أبعد من النطق؟ أصابها الإعياء نفسه من التساؤلات التي تخطر في رأسها، وتتمشَّى فيه كقوافل النمل. عاهدت نفسها: «بكرا، بعد حلب البقرات رح طير متل السهم عَ بيت الدكتور ناجي».

سمعتْ وقع خطى على درج البيت وهمسًا يقترب: «هيلانة؟... عندك حدا؟» كانت عفاف واقفة بلباس النوم، متردِّدةً في صعود الدرج. «اطلعي... سهرانة وحدي».

ـ خير حبيبتي... بكِ شي؟

ـ لا... فش شي... ضجرانة. نبيل راح يلعب ورق... ومش قادرة نام.

ـ شو جِبْلِك؟ خصلة عنب؟ كبَّاية توت؟

ـ بدِّيش شي. اقعدي...

ـ شكلك مش تمام. جارتي وبعرْفك... شو صاير؟

ـ الصراحة... مش عارفة شو أعمل. خفت تكونوا سمعتوا صوتنا. تخانقنا عالتقيل.

ـ أوف.. أيمتى؟ ما سمعناش شي.

ـ قولي منيح كنَّا بالمطبخ. بس الصوت بالليل بيودِّي... الله يستر ما يكون سمعنا حدا.

ـ طيِّب، احكيلي...

ـ كشفني نبيل... بعرفش كيف عرف! وما قدرتش أنكر...

ـ كشفك؟

زفرت عفاف أنفاسها، واستوت في مقعدها على الأرجوحة، ممسكةً طرفَي الروب المزركش فوق قميص النوم، لتضمَّهما إلى صدرها كأنَّها بردت فجأةً، أو لتخفي خجلها ممَّا فعلته.

ـ عرف إنِّي عم بكتب لخيُّو بأستراليا... بعرفش كيف التقى بإبن عمِّي. كنت ابعت المكاتيب معه لأنْ بيعرف حدا بيشتغل بالمطار. لمَّا فات نبيل عالبيت اليوم كان وجهه بيتفسرّش. يا ربِّي تنجِّينا كأنَّه حدا قتل بيُّو! كزّ على اسنانو وجأرني هيك، وقال: «ابن عمّك يطمئنك أنَّ الرسالة وصلت إلى أستراليا».

ـ ... وإنتِ ليش عم تكتبي لخيُّو؟

ـ يا هيلانة.. والله أنا قصدي منيح. من قبل ما نتزوَّج كنت بعرف إنُّو هو وخيُّو مش تمام. قلت بكتبلو لحتى يرجعوا يتواصلوا. بركي بيجي شي مشوار عالضيعة. ما عندو إلّا هالخيْ... معقول إخوة بيحكوش مع بعض؟ عيْب.

ـ معك حقّ... نيّتك ططططيِّبة أكيد.

ـ يا ريت نبيل بيفكِّر هيْك! كلّ همُّو إنِّي تصرَّفت من راسي. اعتبرها خيانة... وإنُّو ما خصّني أتدخَّل بينو وبين خيُّو. بس أنا والله كلّ همِّي مستقبلنا.

ـ ما فهمتش شو خصّ خيُّو بببمستقبلكم؟

ـ أنا قلت بصلح بيناتن، وبقنع خيُّو يجي مشوار لهوْن... يشوف شقفة أرض يعمِّر فيها بيت من طابقيْن. واحد إلو... واحد إلنا... إنُّو لأيمتى بدنا نضلّ قاعدين بالإيجار؟؟؟ وإذا نبيل صرلو شي. شو بصير فيِّي أنا؟ الرجال ما بيفكّروا متلنا... الآخرة صعبة. أنا مين بدُّو يتطلَّع فيي لمَّا أكبر وعجِّز؟ لا ولد ولا تلد. من وين بدِّي عيش؟ بدِّي إرجع عَ بيت أهلي؟ إخوتي كلّ وحدة بهمّها. معي حقّ أو لأ؟

ـ بدّك الدغري وتزعليش منِّي؟... يمكن كككان أحسن لو ححححكيت مع الأستاذ قبل. لتعرفي شو رأيو بالموضوع. ببتعرفيش شو في بيناتهم... تخمين بدُّوش جميلتو.

ـ أنا قصدي إنُّو خيُّو يعمِّر البيت ويضلّ باسمو. مش ملكنا نحن. بس عالقليلة نضل عايشين فيه لنموت... سقف فوق راسنا.

ـ طيِّب، ووووافق خيُّو؟

ـ خيُّو مش رح يجاوبني أصلًا... دخيل اسمو ربّنا. يللي ما إلو حظّ، لا يتعب ولا يشقى. هيدا كان آخر مكتوب بكتبلو إيَّاه... وشوفي الحظّ. كشفني نبيل... وطلعت لا من هوْن ولا من هوْنيك.

ـ وليش ما ووافق؟

ـ حجج... ساعة إنُّو وضع البلد بيطمنّش. وساعة إنُّو حياتو هونيك أحسن وبيقدرش يترك شغلو. وطلب منِّي أقنع نبيل نهاجر لهونيك. ليكِ وينو إجا... خلِّيني أنزل. منحكي بعدين.

نبيل وصل ساحة البيت، وسُمعت خطاه وسط هدوء الليل. ركضت عفاف، وكادت تتعثَّر بالروب الطويل. استمهلتها هيلانة مستغربةً تعجّلها في النزول إلى البيت، وخُيِّل إليها أنَّ جارتها ستخترع سببًا لزيارتها الليليَّة هي التي لا توفِّر فرصة غياب زوجها لتشاهد وحدها مسلسلًا يكرهه. قد تقول له إنَّ هيلانة استدعتها لغرضٍ ما، أو أنَّ هبة ارتفعت حرارتها فجأةً... تغيير العادات يتطلَّب دائمًا تبريرات، لا تمتّ بصلةٍ إلى الدوافع الحقيقيَّة.

استأنست هيلانة بنسائم الليل التي تعبر عريشة العنب وشجرة الرمَّان. رفعت رأسها، فرأت النجوم أكثر لمعانًا من أيِّ وقت. عاودها ذلك الخوف من عدِّ النجوم والإشارة إليها بالأصابع... «بيطلعلك تواليل»، كانت فادية تقول لها كلَّما راودها ذلك الوهم الجميل في ثقب خيمة السماء الليليَّة بإصبعها لترى إنْ كانت النجوم ستهوي لتكلِّل رأسها!

بدأ النعاس يغالبها، وتذكَّرت أنَّها ستقصد الدكتور ناجي غدًا... لكنَّ حزنًا غريبًا راح يتسلَّل من قلبها معاندًا النعاس. حزنًا غريبًا كالشعور الذي غمرها لحظة رأت عفاف للمرَّة الأولى... الجيرة التي قرَّبتهما، لم تكشف لها قبل اليوم السبب الحقيقيّ وراء قبول عفاف بالزواج من نبيل. الرهان على تغيير

الثابت. في قصَّة عفاف ومراسلاتها السرِّيَّة مع أخي زوجها، الدليل الواضح على ذلك... كيف خُيِّل إليها أنَّ نبيل قادر على التصالح مع أخيه الذي كان السبب في خسارة ما تملكه عائلته من أراضٍ من أجل أن يهاجر؟ بالنسبة إليه، أخوه أنانيّ حتى في مساعدة شباب ديرزوفا على الهجرة، وتوفير فرص عملٍ لهم في الأرض البعيدة. كلّ عيوب الأستاذ نبيل لا تمحو تلك السمة التي تحترمها هيلانة فيه: حبّه للأرض وللقرية وللغة العربيَّة.

كانت أفكار هيلانة تروح وتجيء مع هدهدة الأرجوحة التي تجلس عليها حين شعرت أنَّها ستهوي. كم تخاف من وهم السقوط عن حافَّة السرير كما في المنامات! ومع ذلك! لم ينقطع حبل أفكارها... وتراءى لها طرف خيط. وكما في حياكتها للكروشيه، شعرت أنَّها تربط القطبة الأخيرة بإحكامٍ لتختم تحليلها: حبّ الأرض والقرية واللغة يستحقّ سلوكيَّاتٍ من نوعٍ آخر... ونبيل أبعد منها بُعدَ النجوم عن الأرض.

الزقاق نفسه مرَّت به من قبل. كانت تأخذ هبة للفحص الشهريّ واللقاحات الدوريَّة عند الدكتور ناجي. اليوم، لم تلتقِ بأحدٍ في الطريق سوى بصِبْيَةٍ يلعبون أمام البيوت. أسرعت لتدخل بيت الدكتور. كان الباب مفتوحًا، لكنْ لا أحد في الداخل. خرجت ونادته. فأطلَّ من خلف الحديقة بثياب البستنة، يتقدَّمه كرشه وابتسامة من يستمتع بيومٍ خريفيٍّ بلا عمل.

ـ صباح الخير... يعطيك العافية.

ـ هلا...

ـ ما تذكرتنيش... أأأأ... أنا هيلانة.

ـ هلا هلا.

«طبعًا، تذكَّرني لأنِّي بتأتئ» فكَّرت، وهي تخفض عينيْها وتتبعه إلى البيت.

دعاها للجلوس. عيادته تقترب من آخر أيَّامها، ضجرة مع أدواتها الصدئة.

ـ قدِّيش صار عمر البنُّوت؟

ـ 4 سنين...

ـ ما شاء الله... الصحَّة تمام. دقَّيْنا عالخشب.

ـ الحمد لله... حكيم. جيت لعندك... لأنُّو... بتت... بتت... بتتذكَّر فادية؟... أختي؟... لمَّا سألِتك زمان عن ححح... حالتي...؟ إذا في حلّ... أأأو دوا؟

ـ أيّ حالة؟

ـ ... الحكي

ـ الحكي؟

ـ التأتأة حكيم... أأأكيد لاحظت!

ـ آآآه...

ـ ...

ـ ارجعي قولي يللي قلتيه من شوي... «حكيم بتتذكَّر... كذا وكذا».

ـ ححح.. حكيم

ـ استرخي... قلتيها من شوي.

ـ بببعرف... هيدي مشكلتي... ببببب...بعرف الكلمة ووو... وبسمعها ببراسي.

ـ بس بتخافي ما تطلع متل ما هي.

ـ صصصص... صحّ.

ـ طيِّب... أعطيني بنُّوتك شوي.

استغربت. نهض وأخذ هبة من حضنها. عاد إلى كرسيِّه وأجلسها في حضنه.. كادت تبكي. مدَّ يده إلى درج مكتبه وأعطاها لعبة. سكتت. التفت إلى هيلانة وقال لها:

ـ وهلَّق... قولي. حكيم أنا ما عندي مشكلة. بسّ جيت زورك. قوليها من دون ما تفكِّري. بشكل متواصل.

ـ حكيم... لا... مش...مششش...

ـ رخّي كتافك. تنفَّسي...

ـ حكيم أنا ما عندي مشكلة.

ـ أها... تمام... هيدي هي.

ـ بس ما ككككك.. كككك... كمَّلت الجملة.

ـ تنفَّسي وكمّلي.

ـ جيت... لللل... لزورك.

ـ عظيم.

ـ لا مش عظيم! أنا عمّ بتهجَّى الكلمات. أوقات بقول ككك... كلمة تانية.

ـ وشو المشكلة؟ قولي يللي بدِّك إيَّاه. إنتِ حرَّة.

كان الطبيب يلاعب هبة التي بدأت تتململ في حضنه. وقفتْ لتأخذها منه.

ـ أتركيها... البكي صحَّة. هلَّق بتسكت. إذا كنت عم

بتفتّشي على دوا، فللأسف العلم ما توصَّل لدوا للتأتأة.

ـ بدِّي أعرف للللد... لد... ليش بتأتئ حكيم؟

ـ ما في سبب واحد... متل أيّ مرض، الأسباب كثيرة. البعض بيقول. السبب عصبيّ... وأطبّا بيقولوا نفسي... حسب!

ـ ما فهمتش...

ـ يعني ممكن يكون نتيجة صدمة، أو خلل بأعصاب الدماغ. ما تشغليش بالك بالسبب.

ـ كيف؟ إذا عُرف السسسسـ... السبب بطُل العععع... العجب، حكيم.

ـ صحيح... بس التأتأة مش متل الرشح ووجع الراس. عوامل كتيرة بتأثِّر، وما بيحلّها الأسبرين.

ـ عععع... عوامل متل كيف؟

ـ قلتلك... الأعصاب... التوتُّر... الخوف...

ـ طيِّب... ممكن بنتي تتأ... تتأ... تتأتئ متلي؟

ـ ممكن. الوراثة بتلعب دور. بس متل ما قلت ما في شي محسوم.

ـ والحلّ؟

ـ الحلّ؟ التعايش... والنسيان. كلَّما فكَّرتِ بالمشكلة. أيّ مشكلة، مهما كانت بسيطة رح تتعقَّد. سامعة بمريض الوهم؟ كتار بيجوا لعندي ما بيكون بهم شي، «يا حكيم حاسس حالي

مريض»، أو «يا حكيم حاسس بكرا بدِّي أمرض». الخوف مرض. عيشي حياتك. افرحي ببنتك. إنتِ صبيَّة والحياة قدَّامك... في ناس فقدوا أعضاءهم. إيد.. إجر.. عين.. وتعايشوا... ما عندك مشكلة عويصة. ما تفكِّري فيها.

ـ ككك... كك... ككيف؟ التأتأة مش ووو... وهم. أنا بشوف الكككك... الكلمات براسي مرتَّبة... كككك.. كاملة... حححـ... حلوة.. بس لمَّا إجي قولها بتتـ... بتتشوَّه! وبتوتَّر... وبخاف...

ـ بالضبط... الخوف. أنت ما بتخافي من الكلمات، بتخافي من الناس. صحّ؟

ـ من الاثنين.

ـ .. ما في داعي للخوف، ولا للخجل... عادي. ما حدا منَّا خالي من العيوب. أنا بنصحك تشربي زوفا. كتّري منه. بريِّح الأعصاب. الله ناعم علينا بهالضيعة بعشبة بتجنِّن فيها كلّ الفوايد.

قال عبارته ونهض حاملًا هبة في الهواء ليضحكها، ويُنسيها البكاء. وقفت وأخذتها منه، تمتمت تحيَّة شكر، وخرجت. غضبها يشدّ على قدميْها وهي تردِّد «زوفا؟... يلعن أبو الطبّ... لشو العلم والشهادات؟ أحسنله يشتغل بالجنينة! ويسكِّر هالعيادة المعفِّنة! قال اشربي زوفا قال!»

فوجئت بفريد في بيتها. فادية تعدّ الفطور لكلِّ العائلة، والمطبخ

في حالةٍ يرثى لها. لطالما تفادت أن تساعدها أختها في أيِّ مهمَّةٍ منزليَّةٍ مهما كانت بسيطة، فهي تحوِّل كلّ شيءٍ إلى فوضى. إذا أرادت أن تعدّ القهوة، تُخرج كلّ ما في الخزائن قبل أن تجد الفناجين ولا تُعيد شيئًا إلى مكانه، ولا بدَّ للقهوة أن تفور على الغاز، وإذا نوت أن تنظِّفه أصبح كلّ البيت بحاجةٍ إلى شطف.

ومع ذلك، كانت سعيدةً بوجود فريد. كان جالسًا مع بوصالح. ما إنْ وصلت حتى همَّ حموها بمغادرة المطبخ. «انطوشت يا عمِّي، قال لها، بدِّي أطلع لبرّا».

ـ ما بلومك... ردَّت مفسحةً له الطريق ليعبر، فيما تنظر إلى فادية التي فهمت أنَّ وجود الصغار في المطبخ مع بوصالح كان فكرةً سيِّئة.

ـ حضرتك غايبة من الصبح، مين بدُّو يطعمي هالأطافيل. شوفي، مسحوا المقلاية كلّها.

ـ صحَّتين... يعطيكِ العافية. اتركي كلّ شيء... ببدي اقعد شوي مع فريد، وبعدين ببرتب كلّ شي.

ـ يللا شباب، هتفت فادية au Jardin, vite. وما بدِّي إسمع ولا صوت ولا صراخ.

ـ يا أختي، بشرفك احكيهم عربي لمّا تكوني هون، قال فريد... وببيروت اعملي يلّلي بدّك. ثم التفت إلى هيلانة وسألها: وين كنتِ؟ واحتضن هبة، وراح يشمّها ويقبِّلها.

نظرت إلى فادية كأنَّها خائفة من ردَّة فعلها. تردَّدت قبل أن تُجيب:

ـ تمشّيت... صوب الدكتور ناجي.

ـ هبة مريضة؟

ـ لا أختي... أنا يللي ما إلي دوا.

ـ خير؟ هتف فريد وفادية معًا.

ـ ررر... ر.. رحت إسأله عععع... عننن... عن مصيبتي! وأومأت إلى فمها.

ـ غاوية نكد إنتِ؟ شو عم تعملي بحالك؟

رفع فريد يده ليسكت فادية، ويقول بهدوء:

ـ شو قال؟

ـ ققق... ق... قال اشربي ززوفا، تخيَّل؟

قهقهت فادية، فعاد ورفع فريد يده عابسًا في وجهها هذه المرَّة. وضع هبة إلى جانبه على الكنبة، ومدَّ ذراعه ليطوِّق بها كتفيّ هيلانة، ويقول:

ـ الزوفا بيهدِّي الأعصاب حبيبتي. أكيد هو عارف شو عم بيحكي. إنتِ دايمًا متوتّرة... جرِّبي الزوفا. شو رح تخسري؟ إذا ما نفع، مش رح يضرّ.

ـ معقول ككككك... كك... كل الأطبّا ففف... في العالم....

ـ ما لاقوا دوا؟ أكملت فادية.

هزَّت هيلانة رأسها. لكنَّها أرادت أن تمنع فادية من إكمال جملةٍ بالنيابة عنها. أسندت رأسها على صدر فريد، وراحت تبكي.

ـ يا هيلانة... يا روحي، يا حبيبتي. ردَّدت فادية، هيْك رح تقضِّي حياتك؟ الحمد لله عم تحكي. تأتأة بسيطة بتروح مع الوقت... وين كنَّا ووين صرنا؟ فكِّري.

ـ الجمرة ما بتحرق إلَّا مطرحها، تمتمت هيلانة.

ـ شفتي كيف قلتيها لأنَّك على كتفي! ردَّ فريد.

ـ صحّ! قلتيها بلا تأتأة. هتفت فادية.

ـ في حدا هون؟

قفز فريد عن الكنبة ليرى من في البيت.

ـ أهلًا عمِّي بوفؤاد... تفضَّل.

ـ احكيني كلمة لو سمحت.

ـ شو في خيِّي؟ مين؟ هتفت هيلانة وهي تطلّ من عتبة المطبخ. وقفت فادية وراءها فقالت: تعي نشوف شو القصَّة.

خرجتا إلى الشرفة. كان بوفؤاد يتكلَّم بصوتٍ منخفض، على وجهه ملامح القلق. التفت فريد إلى أختيْه قائلًا:

ـ ما في شي... رح أوصل مع عمِّي بوفؤاد عالساحة وبرجع.

* * *

مرَّت ساعةٌ وفريد لم يعد. أنهت الأختان أعمالهما بقليلٍ من الكلام. وما إن خرجتا إلى الشرفة حتى أطلّ الأستاذ نبيل وعفاف.

ـ لونك مخطوف، قالت فادية لعفاف، وأنتَ كمان نبيل... شو في؟

هيلانة لا تقوى على الوقوف. عرفت أنَّ مكروهًا وقع.

ـ اقعدي لنتكلَّم.. قال الأستاذ نبيل وهو يمسك بيد هيلانة، ويجلسها على الأرجوحة. لحقته عفاف لتجلس بالقرب منها.

ـ لا تخافي، قال: حادث بسيط... بالحقل.

ـ صالح... صالح... شو صار؟ وينو؟ أحكي.. ععععفاف... صالح... ووووين؟

ـ اهدأي اهدأي... هو بخير. أخذه فريد إلى المستشفى...

ـ مستشفى؟ وقفت ودارت حول نفسها.

ـ اختفى؟ مين اختفى؟ صرخ بوصالح.

ـ يا إلٰهي... همست هيلانة وهي تضع يدها على رأسها وتدور حول نفسها من جديد، خدوني لعندو، قوموا.

ـ نبيل.. احكيلي شو صار؟ قالت فادية.

ـ لم أعرف التفاصيل... يبدو أنَّ عقربًا لدغه.

ـ يا دللي عقربة؟ يا مشحَّرة يا هيلانة!!

ـ التقينا الآن ببوفؤاد وفريد... قلنا لنأخد هيلانة ونلحق بهما.

ـ يللا شو ناطرين؟ صرخت هيلانة. فادية... البنت... وتركض إلى الدرج.

ـ ما عليكِ... روحي إنتِ.

ركض خلفها الأستاذ نبيل وعفاف. صعدوا في السيَّارة.

عبروا مطلّ ديرزوفا. وبدأت الطريق نحو بقاع نبعا، حيث المستشفى الوحيد في المنطقة، تتكشَّف أمام عيون هيلانة. حاولت أن تفهم من الأستاذ نبيل خطورة حالة صالح. طمأنها أنَّ مثل هذه الحوادث تقع دائمًا، وبدأ يُخبرها عن فلَّاحين كُثُر تعرَّضوا للسعات أفاعٍ وعقارب، واستطاعوا التخفيف من حدَّتها سواء بتبريد مكان اللسعة بماء النبع، أو بوضع رباطٍ ضاغطٍ لمنع تسرُّب السمّ إلى الدم.

حاولت أن تتخيَّل صالح وهو يتألَّم. ارتعبت من فكرة التسمُّم. ماذا لو اضطرُّوا إلى قطع قدمه؟ ما نفع فلَّاحٍ بقدمٍ واحدة؟ سألت الأستاذ نبيل عن المستشفى، خافت أن يتولَّى الدكتور ناجي معالجته. من يدري أيّ نوع من الزهورات سيصف له!؟ رعبها كان مضاعفًا، فالسيَّارة تركض بهم والطريق تنخطف من أمام عينيْها، لكنَّها لا ترى مستشفى بعد. عفاف تتمسَّك بمقبض الباب، تبدو كأنَّها تقود السيَّارة مع نبيل. «شو هالحظّ!»، فكَّرت هيلانة، أوَّل مشوارٍ لها خارج ديرزوفا إلى المستشفى. المهمّ أن يكون صالح بخير، «يا ربّ، يا ربّ» تمتمت.

رأسها يرتطم بالمقعد الأماميّ. عفاف تصرخ. الأستاذ نبيل يرفع قدمه عن الفرامل بعدما ضغط عليها بقوَّة، فيما يده تضغط على الزمُّور وينحرف بالمقود إلى أقصى اليسار، ليتجنَّب الاصطدام بسيَّارةٍ هجمت فجأةً، وكادت ترتطم بالجهة الأماميَّة من سيَّارته.

ـ يلعن أبوك... شو حمار! يلعن مين عطاك الدفتر! صرخت عفاف وهي تستدير لتلاحق بعينيْها السيَّارة التي أكملت

طريقها. ثم التفتت إلى هيلانة لتسألها إن كانت بخير.

الأستاذ نبيل يضحك وهو ينظر إلى عفاف تعتدل في مقعدها بوجهٍ شاحبٍ وتواصل شتم السائق.

ـ اضحك إنت... كنَّا رح نموت!

ـ يا لطيف! لم يحصل شيء. ضغطتُ على الفرامل، وغيَّرت اتِّجاهي... السرساب سيقتلنا. هيلانة لم تقل شيئًا. لم تهلع مثلك، قال وهو ينظر في المرآة العاكسة.

ـ اتطلع قدَّامك، ردَّت عفاف، وسوق عَ مهلك أحسن ما نوصل مشقَّفين عالمستشفى.

ـ وصلنا وصلنا... كفّي عن النكد.

ركن الأستاذ نبيل السيَّارة على مدخل مبنى يُشبه كلّ شيءٍ إلَّا المستشفى. لم تصدِّق هيلانة أنَّها وصلت أخيرًا. حاولت أن تفتح باب السيَّارة. بحثت عن المقبض. فتح الباب لوحده. كانت عفاف نزلت قبلها وفتحته لها.

ـ من وين منفوت؟ قالت وهي تركض في كلِّ الاتِّجاهات.

ـ من هنا... تعالي.

أمسك الأستاذ نبيل بذراعها. وقفت لتنتظر عفاف.

ـ جايي وراكِ... اسبقيني، قالت عفاف.

دخلا المبنى... اتَّجه نبيل إلى مكتبٍ في البهو، يجلس وراءه شابٌّ يأكل منقوشةً يابسة.

ـ مرحبًا... كيفَ حالُك؟ لو سمحت، قريبٌ لنا لسعه

عقربٌ وجاؤوا به إلى هنا. هل تدلّنا على مكانه؟

ـ لا يوجد...

ـ عفوًا؟

ـ اقتربت عفاف لتختصر الأخذ والردّ بالفصحى: «في ناس جابوا شخص هلّق عالمستشفى عقصته عقربة، ما شفتهم؟ 3 رجال..».

ـ من مبارح لليوم ما إجاش حدا. طقّ قلبي وأنا عدّ الساعات، وما خلصش الدوام.

ـ متأكِّد؟ سألته هيلانة بعدما نفد صبرها من ثرثرته. ما إجا رجّال ضعيف عععندو ششش... شوارب ولابس ككك.. كوفيَّة؟

ـ والله يا أختي لا بشوارب ولا حالق... ما إجاش حدا.

نظر الثلاثة إلى بعضهم بعضًا يتساءل كلٌّ منهم عمَّا حصل.

ـ بوفؤاد شو قلَّك بالضبط؟ سألت هيلانة بعصبيَّة.

ـ فريد كان مسرعًا وهو يقود السيَّارة... قال: صالح عقصته عقربة... عند الحكيم عالمستشفى.

ـ أنا سمعته.. صحيح... قال الحكيم والمستشفى، ردَّت عفاف.

ـ لدغة عقرب تحتاج إلى مستشفى... قال الأستاذ نبيل كأنَّه يكلِّم نفسه، قد يتسمَّم.

ـ يا دللي أنا... وينك يا صالح! يا ربِّي من وين إجتنا هالمصيبة؟

ـ طوِّلي بالك، قالت عفاف. نبيل، خلّينا نرجع عالضيعة... أكيد فريد أخده عند الدكتور ناجي... يمكن وضعه بيتحمَّلش الطريق للمستشفى.

ـ حسنًا، هيَّا بنا...

ـ ششششش... شو قصدك بيتحمّلش الطريق؟ رح يموت؟

ـ لا حبيبتي... بعيد الشرّ عن قلبه. قصدي إنّه العقصة بدهاش مستشفى.

حين جلست في المقعد الخلفيّ من السيَّارة، أحسَّت بوخز دبابيس في جسمها كلّه، وبصوت أنفاسها المتسارعة يدبّ في السيَّارة. استدارت عفاف إليها، أمسكت يدها، فركتها. تذكَّرت هيلانة لحظاتها مع صالح. فرك يديْه بالزيت، رقص أصابعه مع الملح. صدره المتعرِّج... كانت دموعها تنزل مع كلّ مشهدٍ يتلاشى ويظهر أمام عينيْها. خطرت لها هبة. ماذا ستفعل بها إنْ أصاب صالح مكروه؟ هل الله يعاقبها وسيحرمها من صالح، لأنَّها تحرمه من ولد؟ هل يُريها الآن أنَّ خسارة صالح، خسارةٌ لحياتها كلّها... للأمان... للطمأنينة... للرجل الذي يتكلَّم دائمًا بالنيابة عنها!

«أيمتى رح نوصل؟» هتفت لتهرب من شكوكها. «عشر دقائق»، أجاب الأستاذ نبيل.

هي وحدها تعرف ثقل الزمن في لحظات الهلع. تلك المسافة التي تفصلها عن عينيْ صالح، أبعد من زمن اختراع الأبجديَّة. عندما شعرت بالسيَّارة تتباطأ تنبَّهت أنَّها وصلت إلى قريتها. اتَّجه الأستاذ نبيل إلى الزقاق الذي مشت فيه هذا

الصباح. اقتربت من المقعديْن الأماميَّيْن كأنَّها تريد أن تدفع السيَّارة بجسمها. لاح بيت الدكتور ناجي أمامها.

ـ سسسسس... سيَّارة فادية هون، هتفت وفتحت الباب لتهرع إلى البيت وهي تنادي صالح.

أطلَّ فريد من العيادة... وصلت إليه، وأمسكته من ذراعيْه: وين صالح؟

ـ هون هون، تخافيش... فوتي.

صالح في الكرسيّ نفسه الذي جلست عليه في الصباح، نظر إليها، وجهه متعرِّقٌ وشاحب. حاولت أن تتبيَّن قدمه، الممدَّدة على كرسيٍّ أمامه والدكتور ناجي محنيٌّ عليها في كرسيٍّ يحجب عنها الرؤية. هُرعت إليه، حارت أين تنظر.

ـ صالح... وين... كيفك؟

ـ منيح. هيُّو الدكتور ناجي عم بيراقبها.

ـ بيراقب مين؟

ـ فش خطر، ردَّ صالح... تخافيش.

ـ كلّ شي تمام، قال الدكتور ناجي رافعًا نظره إلى هيلانة.

لن يكسب ثقتها الآن بعدما نصحها بالزوفا لتتخلَّص من عاهتها القاتلة. أصرَّت أن تعرف ماذا يعني! شرح لها أنَّه تمَّ تعقيم اللدغة، ودلَّها على كيس الثلج الذي استخدمه لتخفيف الاحمرار والانتفاخ، وأنَّ صالح فعل خيرًا عندما ربط قدمه منعًا لتسرُّب السمّ، وأنَّ تنفُّسه كان طبيعيًّا وإلَّا لكان الوضع أخطر.

ـ أهمّ شي إنُّو ما فقد الوعي، قال، ما صار عندو تقيُّؤ ولا ارتفع ضغطه، والدوخة راحت.

ـ والآن ما العمل، دكتور؟ سأل الأستاذ نبيل.

ـ ما بدّه مستشفى؟ أردفت هيلانة.

ـ لا... ما في داعي للمستشفى إلَّا إذا لا سمح الله حسّ بوجعٍ قويٍّ، أو ضاق نفسه كتير. تقديري إنُّه وضعه جيِّد، بيقدر يرجعْ عالبيت. المهمّ ممنوع المشي. ممنوع أيّ حركة لبكرا. ورح أعطيه مسكِّن في حال حسّ بوجع، مع إنِّي بشكّ.

ـ الله يعطيك الصحَّة دكتور، قالت عفاف، وردَّد من بعدها بوفؤاد وفريد والأستاذ نبيل.

اقتربت هيلانة أكثر من صالح، أرادت أن تعانقه، أن تضع يدها على رأسه... أن تحمله على ظهرها إلى البيت. أن تضعه في السرير وتسهر على قدمه حتى الصباح. تقدَّم فريد والأستاذ نبيل لمساعدته على الوقوف، بعدما تجادلا حول سوء التفاهم الذي دفعهم للذهاب إلى المستشفى.

راح صالح يقفز على قدمه السليمة، فيما طوى الأخرى إلى الخلف حتى وصل إلى الخارج، وسط جدلٍ بين فريد والأستاذ نبيل.. فكلٌّ منهما يريد أن ينقل صالح بسيَّارته.

ـ رح أوصل عالبيت على إجر واحدة قبل ما تتّفقوا، قال صالح.

ضحك الجميع، وارتسمت على وجه هيلانة غبطة من استعاد كنزًا لم يتوقَّع فقدانه أبدًا.

* * *

وجود فادية خفَّف عن هيلانة وطأة الزيارات التي لم تنقطع حتى المساء للاطمئنان على صالح. كلَّما جاء زائر، تكرَّر السؤال نفسه: ماذا حصل؟ ويضطرّ صالح إلى تكرار الحكاية نفسها: «قعدت تحت الشجرات آكل لقمة... فتحت هالزوَّادة. ونسمة تروح ونسمة تجي. ما لحقت حطّ أوَّل لقمة بتمِّي حسِّيت بحريق بإجري. عرفت فورًا إنُّو عقرب. مسكته بذنبه من فوق البنطلون ومعسته بإيدي. حسِّيت فيه عم بيفرفر. برمت البنطلون هيك مطرح ما مسكته، مثل الصرَّة... لحتى يبعد عن جلدي. عقصة العقربة ملعونة بنت كلب. مسكت السكِّين هيْك، وقطعت شقفة من البنطلون وكبَّيْتها عالأرض، وقع... رفعت حجر وضربته فيه. لعنت عرضه. ربطت إجري بكيس خيش لأقطع السمّ. ورحت صرِّخ في حدا هون؟ يا عالم يا هو... ما فش دقيقتيْن حتى طلّ بو فؤاد ـ يطوِّل عمره. سمعني وركض فيِّي».

«يا لطيف... يا ربّ تنجّينا. عفاك.. والله إنَّك قبضاي!». عبارات تكرَّرت وتداخلت مع صوت صالح وهو يروي تفاصيل الحكاية عشرات المرَّات بالترتيب نفسه، بالسياق نفسه، وبالكلمات نفسها. ليتبع كلامه حكاياتٌ يرويها الحاضرون عن أحداثٍ أكثر خطورة، أودت بحياة فلَّاحين آخرين وكأنَّهم يريدون التقليل من أهمِّيَّة ما حدث لصالح، أو أن يغبط نفسه لأنَّه «زمط»!

عندما غادر الجميع، واطمأنَّت هيلانة أنَّ صالح بخير والألم تراجع بفعل المسكِّن، تمنَّت لو تذهب فادية وفريد أيضًا لتختلي بنفسها على الشرفة وتفكِّر، أو لتتوقَّف عن التفكير وتشرد في النجوم فقط. كان الأستاذ نبيل آخر المغادرين تحت إصرار عفاف. ولم يكد يتوارى طيفهما حتى أعدَّت فادية بعض المشروبات والمكسَّرات، وجلست على الأرجوحة قرب فريد.

ـ بيفطِّس من الضحك هالأستاذ، قال فريد. بتحسِّي عم تحضري أفلام كرتون بالعربيّ.

ـ ما بعرف عفاف كيف متحمّلته، ردَّت فادية. قولك بينام معها بالفصحى كمان؟

ـ أختي؟ لسانك صاير فلتان، ردَّ فريد. شو هالحكي البلا طعمة؟

ـ يا لطيف عم نمزح. عم نحكي بيناتنا!

ـ يا ريتك تزوَّجتيه. عالقليلة كنت سمَّيتي أولادك أسماء عربيَّة، وريَّحتينا من لغة الاستعمار تبعك!

ـ والله شو؟ بعد ناقص! لازم تعرف إنُّو المدرسة هي يلِّلي

فارضة علينا نحكي معهم فرنساوي.

ـ والمدرسة عندها جواسيس بالضيعة؟ دخيلك أختي بلا أعذارك. لو كانت فارضة عليكم تحكوهم بالعربيّ كنتِ هالقدّ رح تلتزمي؟ أو لأنَّ المخّ مستعمَر من أساسه وما بيفرز إلَّا عالأجنبي؟

ـ دخيلك أنت والعروبة تبعيّتك! في مجال ما بقا تعيِّط لإبني بطرس؟ اسمه بيار. والتاني بول مش بولس!

متجاهلًا كلام فادية، همس فريد في أذن هيلانة:

ـ بتعرفي إنُّه نبيل كان بدُّو فادية؟

جحظت عينا هيلانة وهي تحدِّق بأختها ثم بفريد، محاولةً قراءة ملامحهما ورصد مزحةٍ اتَّفقا عليها.

ـ بتذكّر لمَّا إجا طلبها... ها ها ها... ما شفت بحياتي وجهه أحمر مثل هيداك اليوم! بندورة بلديَّة.. ها ها ها.

ـ وحياة هبة وأولادك، قولي إنَّه فريد عم يمزح.

فادية تنظر إلى فريد كأنَّها تعاتبه على كشف الأمر.

ـ أختك كانت مغرومة بإبراهيم لشوشتها. لا شايفة نبيل ولا جليم.. ها ها ها. طبعًا، بدها تعيش ببيروت وتحكي فرنساوي...

ـ إبراهيم بيسوى ميّة رجّال. اسكت... اسكت... عم تتمسخر؟ طيِّب. لا بدّ ما أعرف مين عشقان، وبتشوف كيف بتكون المسخرة!

ـ هلَّق إبراهيم ماشي حاله، مع إنِّي بختلف معه للموت بالسياسة.

ـ وقِّف أنت وإيَّاها. . . ففف. . . . ففـفـادية. الأستاذ نبيل ككك. . . كان يييي. . . يحبّك؟

ـ ما بعرف. . . كيف خطر له يطلب إيدي. من وين هالثقة إنِّي رح أقبل؟

ـ وعفاف بتعرف هالشي؟

ـ شو بيعرّفني.

ـ دخلك بيْيِّ كان يحبّه؟ سألها فريد. . ما عرفت موقفه.

ـ ما سألته أصلًا. . . لمَّا خبَّرني قلتلُّو: بتزوَّج بوالزلف ولا بتزوَّج نبيل.

ـ أوفّ. . لهالدرجة؟ قالت هيلانة وفي رأسها ألف سؤالٍ آخر.

ـ والله بوالزلف أحلى زلمي. ردَّ فريد وهو يدخِّن سيجارة.

ـ هيدا يللي طلع معك؟. . .

ـ عالقليلة بيعملِّك أشعار وطنيَّة، وبيربِّي أولادك عالعتابا والميجانا مش أحلى من شارل أزنافور تبعك؟

ـ مممم. . . مم. . . ممكن بلا مزح. . خخخ. . . خلِّيني أفهم القصَّة.

اعتدل فريد في جلسته، أطفأ سيجارته وهو يسعل قبل أن يقول:

ـ اسمعي أختي. . . أنا ما فتحت السيرة لنتسلَّى. الأستاذ نبيل. . . ورسم بيديه دائرة واسعة ليقول: ثخَّنْها.

ـ شو قصدك؟

ـ بفهم إنَّه كان أستاذك. . . والجيران لبعضهم، تابع فريد وهو يشّد على سيجارته ليطفئها بحافَّة الشرفة حتى تفتّت عقب السيجارة، وبعرف إنُّو العِشرة والألفة بترفع الكلفة! بس ثخَّنها. من حقّ عفاف تغار.

ـ ما تكبِّر الموضوع خيِّ. نبيل بيحبّ يتفصحن مش أكتر.

ـ يتفصحن على غيرنا! إنُّه كتير صحّ واحد يقول لجارته أو تلميذته يا حبيبتي وعيوني، ويا جارتي الجميلة؟

ـ إذا القاضي راضي إنت شو دخلك؟ أختي؟ شي مرَّة صالح قلِّك شي عن نبيل؟

ـ صالح ببيحبّه لنبيل. بس أوقات بحسُّو ممزعوج. بيمكن ما بياخد راحتو معو لأنّ بيبيحكي فصحى.

ـ ما خصّ فصحى ومش فصحى. أكيد بيزعجه كلامه. ونبيل بيعرف هالشي. بس ما بيوقِّف! بعدين القصَّة مش قصَّة حكي بس. كلّ ما إجي بشوفو هون. ما بقدر استوعب إنُّه تصرُّفاته بريئة. نحنا الرجال منفهم على بعضنا.

ـ دخيلك إنتَ والرجال. همست فادية وهي تُبعد نظرها صوب الجبل.

ـ المشكلة إنُّه ججارنا. . . وععن جدّ كككتير منيح معنا.

ـ عال، إنسان منيح وطيِّب وخدوم، بس لازم يحسّ إنُّه مش كلّ شي بيقوله بيمرق هيْك، وعادي. لأنّ إذا ما حسّ إنَّك انزعجتِ رح يكمِّل.

ـ حاج تحطلِّها براسها قصص. أختي، الحكي ما عليه جمرك. لو أنا بدِّي علِّق على كلّ كلمة بيقولها إبراهيم، كنَّا طلَّقنا من زمان.

ـ ما تزعلي منِّي فادية... إبراهيم مش قليل كمان.

ـ صحّ... هتفت هيلانة كأنَّها وجدت فرصة للانتقام أخيرًا. بتذكّر بعيد السـ... السـ... السيِّدة... ما عععع... عجبتني ننن... نظراتو.

ـ النظر لا يُحجب أختي، ردَّت فادية. بصراحة بنات الضيعة حلوات...

ـ يا عيني على الحِكَم! نظرْ عن نظرْ بيفرق أختي. نظرة فابتسامة فموعد فلقاء. الهفوة بتجرّ غيرها.

ـ ففريد معو حقّ. صصصالح ما بيتطلع متل كككلّ الرجال.

ـ كلّ سلوك بيحتمل تفسيريْن مشكوك فيه. كلّ موقف ملتبس بيعني إنُّه النيَّة مش صافية. فهمتِ فادية؟

هيلانة تفكِّر في كلام فريد. بدا لها كلامًا عميقًا يحتاج إلى هدوءٍ وصمتٍ كي تتأمَّله جيِّدًا. اختلطت عليها مشاعرها في تلك اللحظة. الليلة تأكَّدت لها ظنونها في احتفال عيد السيِّدة. اهتمام الأستاذ نبيل بها لم يكن إعجابًا خاصًّا كما ظنَّت، إعجاب من رأى فيها ميزةً ترفعها فوق أيَّة مقارنةٍ مع أحد. اهتمامه ليس سوى نمطٍ اعتاد عليه، «طبيعة ثانية» كما قال. عادة التصقت بجلده، بعينيْه، بلسانه، وحوَّلت عفاف إلى امرأةٍ تبكي كلّ ليلة، وتتحسَّر

على عنوسةٍ أرحم من حياتها معه.

ـ شو عبالي أمشي عالمطلّ هلّق... لسعة هالبرد حلوة، قالت فادية بصوتٍ منخفض كأنَّها تُحدِّث نفسها.

ـ وتفقّي بزر ويلطشُّوك الشباب... ردَّ فريد مستهزئًا.

ـ مش أحلى ما ازرب حالي بالبيت متلك خيِّي؟! روح شوف رزقتك... حبّ شي بنت... انغرم واعشق. حاج قابض الدنيا جدّ...

ـ إذا بمشي عالمطلّ بلاقي عروس؟

ـ هسّ... وطُّوا صوتكم. صالح نايم، قالت هيلانة وهي مُدركة أنَّ ما تريده حقًّا هو التحدُّث بأشياء أخرى تشغلها.

ـ أختي... ليش بتضلِّك متوتِّرة؟ قالت فادية بعصبيَّة. الدكتور ناجي معه حقّ. اشربي زوفا! اضحكي... استرخي. كلّ شي بيشدّ أعصابك حتى المزح.

ـ اشربي زوفا ووو... وحدك، ردَّت عليها هيلانة وهي تستجمع أفكارها لتتحدَّث في موضوعٍ آخر يهمَّها، لم تكد تستعدّ للكلام حتى قطع عليها فريد الطريق قائلًا:

ـ عن شو بدِّك نحكي هيلانة، هاتي لنشوف.

ـ ععع.. عن ووورديَّة...

ـ يا ألله شو غاوية نكد أختي! عم نحكي حبّ وغرام شو خطرلك هلّق؟ هات سيجارة خيِّي.

ـ والله لو كانت ورديَّة بعدها طيّبة، كنت تزوَّجتها.

ـ عن جدّ؟ ردَّت هيلانة مذهولة... إنت شفتها ععععم تتتحترق؟

ـ يا لطيف... مشهد ما بنساه بعمري، قال فريد شاردًا كأنَّه يرى المشهد الآن. للحظة فكَّرت أنَّه هو حرقها... بتصدِّقي؟

ـ مين هو؟ صالح؟؟؟ معقول راسك؟ صصصالح مش ممكن يعمل هيك.

ـ خطرت لي الفكرة لثوانٍ. يمكن شافها مع حدا... ما تحمّلوش راسه.

ـ معقول؟ سألت فادية كأنَّها تسمع للمرَّة الأولى شكوك فريد.

ـ ما بعرف... وردِيَّة كانت آية بالجمال. كلّ الشباب بيلاحقوها.

ـ ففففف... فريد... يللي عم بتقوله خخخخ... خخطير... يعني أنا عايشة مع قققق... قاتل؟

ـ قاتل؟ هاهاها... بشرفك هيلانة ما تضحكينني أكثر. بعدين، يللي بيدافع عن عرضه مشّ قاتل. أنا عم افترض. بس المشهد بعدو قدّامي. شابّ قبضاي مثله... مين بيعرف!؟ أو يمكن انصدم من النار عمّ تهبّ فيها، انشلّ وما عرف شو بدُّو يعمل. على كلّ حال، أنا بوقتها كنت زغير كتير... ما استوعبت منيح شو صار.

ـ كانت تحبّ ربيع؟

ـ لاااا... شو هالأهبل هيدا؟

ـ ففف.. ففريد... ررررگز معي... ققققق... قل لي بالضبط شو شفت؟

ـ يا ريت تسكت خيِّي. مش رح تنام هيلانة الليلة. يلَّلا تأخَّرنا... الصبيان بعدن بالساحة، لازم يناموا. يلَّلا خيِّي.. تحرَّك.

ـ لو كان الحديث مسخرة ونميمة كككك... كنتِ بقيتِ هون للصبح!

نظرت فادية إلى فريد مستغربةً حدَّة الأجوبة التي أصبحت تخرج من فم هيلانة.

ـ ما تشغلي بالك حبيبتي، قال فريد وهو يهمّ بالنهوض. ما بينفع تفكِّري بقصَّة مرق عليها سنين. سرّ ورديَّة دُفن معها... يلَّلا تصبحي على خير.

ها هي أمام لغزٍ أكثر تعقيدًا من قبل. لم تذكر لها فادية الفرضيَّة التي صفعها بها فريد الآن. لا بدَّ أنَّه يبالغ في شكوكه! فهو لم يقوَ على استعادة حياته بعد تلك الرصاصة التي قتلت صديق طفولته. مستحيل أن يكون صالح قاتلًا. مهما كان سلوك ورديَّة سيِّئًا، لن يقتلها. قد يحبسها في البيت... قد يضربها... تذكَّرت كيف كان ينهرها لتصعد إلى البيت إذا وقفت في الدار. لكنَّه لم يمنعها يومًا من الخروج. لم يسألها يومًا أين ذهبت ومَن دخل بيته في غيابه! لم يعلِّق يومًا على فستانٍ ترتديه، ولم يستفزّه تودُّد الأستاذ نبيل.

صالح لن يُقدم على عملٍ كهذا مهما كان السبب. حنون... حتى مع البغلة. لم يضربها يومًا مهما عاندته. يحبّ هبة، ولم

تسمعه يومًا يتذمَّر من عدم إنجابها لولد. لم تسمعه يومًا يتحدَّث بالسوء عن بنات القرية. لو كان فريد على حقّ، لشعرت بنقمة صالح على كلِّ جنس حوَّاء.

لكنَّ أفكارًا أخرى راحت تراودها لتمحو ما سبقها. لعلَّ العار كان أكبر من أن يحتويه عقله! ألم تشعر هي نفسها برغبةٍ في نحر عنق رنا؟ ألم يراودها قطع الرؤوس في عيد السيِّدة؟ أليس الحدّ الفاصل بين الرغبة والفعل بمثابة شعرة؟ أليست تلك الشعرة هي الشجاعة التي تنقصها دائمًا؟ أليس الشرف قضيَّةً تستحقّ أن يقتل الإنسان من أجلها، رجلًا كان أم امرأة؟ والسؤال الأهمّ: هل تزوَّجها لأنَّها فتاة لن يرغب بها أحد، ولن تهدِّد شرفه طالما أنَّها تتأتئ؟ لماذا لا تجد جوابًا حاسمًا على أسئلتها؟ أين تكمن الحقيقة؟ وكيف السبيل إلى الخروج من تلك الدوَّامة؟ ولماذا تتعدَّد الروايات عن حادثةٍ واحدة؟ لا أحد يدري ماذا حصل بين نعيم وسمير... الأسرار تُدفن مع أصحابها: وردِيَّة، سمير، ويونس! ارتعبت لمرور يونس في بالها! أيُعقل أنَّ الرصاصة التي قتلته لم تكن طائشة كما قيل وصدَّق الجميع؟ أيُعقل أن يكون فريد قتل صديقه عمدًا؟

إنَّها ليلةٌ من تلك الليالي التي تحدِّق فيها هيلانة في سقف غرفتها، وترى أفكارها ترتسم على ظلال العتم أحاجي وألغازًا لا فكاكَ منها. حالةٌ من الهَذَيان تصيبها وهي تلاحق تلك الظلال باحثةً عبثًا عن خيطٍ يقودها إلى الحقيقة الكاملة. ولا شيء سوى النوم يُغرق تلك الأفكار في سباتٍ موقَّتٍ حتى الفجر.

* * *

في منتصف أيلول، غادرت فادية. والخريف بدأ يُلقي بظلاله على البيت، ليُعيد ترتيب الحياة على إيقاعٍ منتظم كما تحبّ هيلانة. مونة الكشك والزعتر والسمَّاق انتهت، ومعها انقسم ظهر هيلانة وتحسَّرت على أيَّام أمّ صالح التي كانت تعدّ المونة بلمحة عين، كالساحرات.

بوصالح لم يعد يفارق شجرة الجوز على السطح. لا يتكلَّم إلَّا ليلعن ويشتم، ينام وهو يهمهم. يصيبه الأرق بين ليلةٍ وأخرى، فينهض ويذرع البيت بخطواته.

كانت هبة تكبر في دار البيت، بعدما تعلَّقت بعفاف التي كانت تخصِّص ساعتيْن من وقتها لملاعبتها وتعليمها كلماتٍ جديدةً كلّ يومٍ على طريقة الأستاذ نبيل. لا شيء كان يفرح هيلانة أكثر من رؤيةِ ابنتها في سلام مع الأحرف والكلمات من دون أعراض تأتأة. شعرت بالفخر لأنَّ خطَّتها نجحت. هبة ملزمة كلّ مساءٍ الإصغاء إلى الراديو لتتعلَّم من المذيعين التحدُّث بثقةٍ وبلغةٍ خالية من الأخطاء. وكثيرًا ما وجدتها غافيةً قرب الراديو وهو يبثّ رسائل فلسطينيِّين في الشتات إلى أهاليهم في الأرض المحتلَّة. هيلانة تتماهى مع كلِّ صوتٍ يناجي أهله البعيدين. ترى في كلّ صوتٍ صدى معاناتها. للغربة أنواع. للانسلاخ عن الوطن أوجهٌ كثيرة. هي بين أهلها وفي قريتها، تتنازعها مشاعر الفقد والحرمان من السكينة، من راحة البال.. تلك الأصوات المجرَّحة بأوجاع الحنين والقلق على المصير أصبحت تطاردها في يوميَّاتها. ومن بين الكتب التي جلبها لها فريد، كما وعدها، كانت رواية «رجال في الشمس» الأكثر تأثيرًا في وجدانها.

صارت تسمع في صوت الرعد صوت غسَّان: «لماذا لم تدقُّوا جدران الخزَّان؟»، فتغرق في ندمها وعارها... الندم على الاستسلام، والعار من جبنها في المواجهة. كيف نملك زمام مصيرنا ونحن غارقون في أزماتنا الفرديَّة؟ كيف نغيِّر واقعنا ونحن أسرى ماضينا؟ يوم قرأت تلك الرواية، شعرت أنَّ كلّ أهل ديرزوفا في خزَّان! مثلها تمامًا!

يوم دقَّت على باب أمّ عادل، كان الجوُّ عاصفًا. رياحٌ عاتية تصفر في أزقَّة القرية. الرعد أبقى الجميع في بيوتهم والمواقد اشتعلت. فتحت لها صبيَّةٌ جميلة. عرفت أنَّها ليلى، الابنة الوحيدة لأمّ عادل. وعندما دخلت، وجدت امرأةً ضخمةً مدثَّرةً بالأسود، تجلس قرب موقدٍ عتيقٍ كعمرها. عيناها في النار كأنَّها تتأمَّل احتراق أمنياتها.

ـ مرحبًا... همست لها هيلانة حانيةً مقوَّسةَ الظهر لتراها أمّ عادل فتتعرَّف عليها. وعندما لم تعرفها، قالت لها: أنا هيلانة... مراة صالح. ولم تفهم لماذا لم تقل: بنت فاتن..

ـ يا عمري... قرِّبي لشمّ ريحة أمّك... يا حبيبتي.

كفّ أمّ عادل أكبر من يد صالح، وأكثر خشونة. جلست هيلانة إلى جانبها، فشعرت أنَّها تقلَّصت. شيءٌ ما أكبر من حجمها يُحيط بها. تأمَّلت هيلانة بطرف عينها الغرفة. حيطانها باهتة تعلوها صور رجالٍ في أطرٍ فضِّيَّة، الصور تتدلَّى من خيوطٍ تكاد تنقطع لو لمست... الرجال في الصور شواربهم كثَّة. عيونهم تقدح ارتيابًا، كأنَّ صورهم أُخذت على غفلةٍ منهم.

أحدهم يحمل بندقيَّة، وآخر يعتمر كوفيَّة. فوق أحد الأبواب صورة الزوبعة الحمراء في إطار. وفي الزوايا مزهريَّات بورود اصطناعيَّة تجمَّع عليها غبارٌ أسود. الكنبات مصفوفةٌ كما في المآتم، تكسوها شراشف متهدِّلة. رائحة عدسٍ مسلوقٍ تغمر البيت. الصبيَّة ليلى تخرج من المطبخ بصينيَّة القهوة. بدت كشقائق النعمان في حقلٍ يابس. قدَّمت القهوة من غير أن تحني رأسها أو تخفض عينيْها! أهكذا يكون الوقار؟ «شكرًا»، همست لها هيلانة وهي تتأمَّل عزَّة النفس في وجهٍ فتيّ، دقيق الملامح. ليت فريد يحبّها، تمنَّت في سرِّها!

ـ جيبيلها صحن مغلي قبل القهوة، ارتعد صوت أمّ عادل.

ـ مغلي؟ خير؟

ـ مش ضروري حدا يخلِّف لنعمل مغلي.

ـ صحيح...

أرادت أن تستعدّ لإطلاق أسئلتها. أعدَّت حروفها ورصفتها جنبًا إلى جنب. رهبة أمّ عادل كانت أقوى من مارد الكلمات. شيءٌ ما في هذه المرأة يمدُّها بالقوَّة. نظرت إلى الرجل حامل البندقيَّة في الصورة. كان يحدِّق بها. سرت في جسمها رعدةٌ سبقت البرق الذي أضاء الغرفة.

ـ بعرف كنتِ صحبة مع أمِّي... كتير.

ـ الله يرحمها... أمّك بتتكرَّرش.

ـ بسمع إنَّك بتزوريش حدا...

ـ لعند مين بدِّي روح؟ أنا وأمّك روح انقسمت نصَّيْن. كأنَّنا

إخوات... كلّ وحدة من بطن. ما كنتش مضطرّة أحكي... كانت تفهم عليّ... ما لاقيهاش غير واصلة لعندي لمَّا أمرض. تحسّ فيي... تقلّلي حلمتك بنومي مريضة... وأنا كنت اطلع لعندها كلّ يوم والتاني. مع إنُّو قلبي بيحملش هيديك الطلعة عالتلَّة. بس كنت أطلع... كأنِّي رايحة عالكنيسة. نقعد جنب البير... اييه... الله يلعن البير وساعته. جيبيلي ميّ يا ليلى...

سرت حرارةٌ حارقة في قلب هيلانة. لماذا تلعن أمّ عادل البئر؟ حشوة القطن تقترب من حنجرتها. المطر يقرع على النافذة. تشعر بوخز قطراته على رأسها... همَّت لتسألها وإذا بباب البيت يفتح فجأةً، ويطلّ منه شخصٌ لا يُرى منه إلَّا عيناه. شالٌ من الصوف يلفّ رأسه والعنق. قامته عالية وجسمه ضخمٌ كجسم أمّ عادل. معطفه مبلَّل. دخل مسرعًا نحو الموقد. مدَّ يديْه ليدفِّئهما. حيَّاها كأنَّه يعرفها.

ـ جيت يا عمري؟... انشغل بالي عليك. تأخَّرت!

ـ تعطَّلت السيَّارة بالطريق... رجعت مشي.

ـ سلِّم على هيلانة.

ـ أخت فريد، صحّ؟

ـ صحّ... ومدَّت يدها للسلام، إنت ععع... عادل؟ ولم تجرؤ أن تكمل: أو عارف؟

ـ هيدا عارف... ردَّت أمّ عادل. عادل الله يحميه مش دايمًا هون.

ـ أهلًا...

ـ إنتِ من عمر عارف. خلقتوا بفارق يومين...

ـ والله؟ وفي سرِّها قالت: أكيد كان معي بالمدرسة.

دخل عارف إلى إحدى الغرف مستأذنًا... تمنَّت ألَّا يعود لتُكمل ما جاءت من أجله.

ـ ما دقتيش المغلي... بتاكليش حلو؟

ـ مبلى. بس هلَّق مش عبالي.

ـ كنتِ تحبِّي الحلو إنت وزغيرة... كانت الله يرحمها تضلّها محتارة شو تعملِّك. يوم مهلبيَّة ويوم نمُّورة ويوم سميد بالقطر... بتذكَّر يوم عيد ميلادك. يمكن كان عمرك سنتيْن. مدري مين عطاها وصفة لقالب حلو... عملته... احترق بالفرن... وييي شو عملت بحالها. تواخذينيش بهالكلمة. هيديك الأيَّام مش متل اليوم... البيض والطحين والسكَّر ويمكن كان فيه جوز وزبيب. كلّه بيكلِّف... انقهرِت كتير... قلتلّها بالرزق ولا بصحابه... عمره ما يكون حلو. القالب احترق؟ المهمّ القلب ما يحترقش... راحت وحرقتلي قلبي... إنتِ كيفك يا بنتي؟ وكيف عيلتك وزوجك؟ كم ولد عندك؟

ـ عندي بنت.. هبة.

ـ ليش ما سمِّيتيهاش فاتن؟

ـ ...

ـ ... الاسم بيردِّش يللي راح...

ـ أمّ عادل.. ليش قلتِ يلعن البير وساعته؟

تغيَّرت سحنة أمّ عادل التي كانت حتى تلك اللحظة كجبلٍ يتكلَّم. حدَّقت بهيلانة كأنَّها لم تصدِّق ما سألته. عيناها دامعتان لكنَّهما تشبهان الآن عيون هؤلاء الرجال في الصور... أمسكت أمّ عادل حطبةً من صِدرٍ نحاسيٍّ تحت الموقد، تأمَّلتها قليلًا ثم أعادتها إلى مكانها وسحبت أخرى فوضعتها في الموقد... تحرَّك الحطب المتجمِّر. هاجت النار... وهاج قلب هيلانة ينتظر ردًّا يطفئ ناره!

ـ أختك فادية جايي عالميلاد؟

ـ لا... ما بتجيش إلَّا بالصيف... ممم.. ممم.. ما جاوبتيني؟

ـ شو بدِّي جاوبك...

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ عن البير.

ـ ما كانتش تحبّه... تضلّها مسرسبة عليكِ من كتر ما تضلّك قاعدة حدُّو. قالتله لبيِّك غطِّيه أحلى ما توقع البنت شي مرَّة... غطَّاه... دخيل اسمه ربّنا.

ـ بعدين هدمه بيّ...

ـ إيه... هدمه... الله يرحمه. مات فقع عليها... يلَّا يا بنتي، حاج نحكي بالماضي... المهمّ بكرا شو مخبِّلنا... دايمًا في بكرا... لولا الأمل ببكرا، كان الإنسان مات هو ومفتَّح عينيْه. الله يحميك أنتِ وبنتك ويحمي أولادنا، وأولاد العالم...

ـ شو ناطرة من بكرا؟

لم تتوقَّع أن يخرج منها هذا السؤال! لم تفهم إذا كانت

تسأل نفسها أم تسأل تلك المرأة التي تجاوز عمرها السبعين بلا شكّ...

ـ انتِ زوجك فلّاح... بتعرفي قدِّيش بكرا مهمّ... شو بيزرع اليوم بيحصد بكرا... وأنا متله. زرعت وناطرة أحصد... وإنتِ ازرعي ببنتك كلّ شي منيح... لتطلع قد حالها.

حرَّكت أمّ عادل الحطب في النار، كأنَّها تعاجل الزمن لترى حصاد عمرها... أفرغت فنجان القهوة برشفةٍ واحدة. لم تقلب الفنجان كسائر النسوة. أطلّ عارف من الغرفة. بدا أكثر نحولًا بعدما تخفَّف من معطفه. دخل المطبخ وعاد إلى الغرفة ليجلس قرب الموقد. شعرت هيلانة أنَّ زيارتها طالت. انتصف النهار. وحان موعد الغداء... لا تريد أن تفعل مثل أهل ديرزوفا وزياراتهم «طقّ الضهر». تنحنحت لتهمّ بالوقوف... وضعت أمّ عادل كفَّها على فخذ هيلانة، فجمَّدتها في مكانها. وعندما التفتت إليها أحسَّت بعينيْها تعانقانها بحنانٍ نضح من كلماتها الأخيرة:

ـ زيارتك ردّتلي الروح... تبقي طلِّي.

ـ أكيد... بخاطرك... بخاطركن... وربَّتت على يدها قبل أن تقف وتخرج في العاصفة.

لم تعرف في ذلك اليوم من أين تستعيد تفاصيل زيارتها لأمّ عادل. تتنازعها مشاعر كثيرة. فهي أوّلًا فخورةٌ بنفسها لأنَّها فعلت ما كان يجب أن تفعله منذ زمن: زيارة صديقة أمّها الوحيدة. فخرها تضاعف عندما وجدت في هذا البيت كلّ ما تفتقده ديرزوفا. في الصور، على الكنبات، في المزهريّات... كلّ شيءٍ

حيّ. لا يخاف موته. لا يخفيه... ولا ينساه. ينتظر ما زرعه لا ما يضمره الغيب، لأنَّ ثمَّة من يحرس نار الحياة ويصنع المغلي لولاداتٍ مختلفة.

كم شعرت بالألفة مع هذا البيت وأهله! كلّ ما قيل وكلّ ما حصل في تلك الزيارة كان له وجهٌ واحد. وجه القوَّة. وجه الصدق.

في مساء ذلك اليوم، أخبرت صالح عن زيارتها، فقال لها: «هيدا بيت أصيل، جماعة غير شكل». وللمرَّة الأولى منذ تزوَّجته، يؤجِّل صالح موعد نومه، ويسهر معها قرب الموقد في المطبخ ليروي لها سيرة أمّ عادل.

«إخواتها التلاتة حاربوا الفرنساويَّة. وبوعادل، كان من الثوَّار القبضايات. قوميّ عربيّ... فهم لعبة الغرب بتقسيم هالبلاد بين سوريا ولبنان وفلسطين... فش شي اسمه هيْك. كلّنا بلاد وحدة. هو فهم إنُّو المسيحيَّة والمسلمين لازم يحملوا البارودة نفسها لأنَّ عدوّهم واحد. أمّ عادل كانت تساعدهم... تنقل للثوَّار السلاح والقنابل بسلل الفواكه. وكانت بفساتينها تخفي الرسايل من إخواتها لبوعادل والعكس. حتى بيقولوا إنُّو كانت تعبِّيلو البارودة وتقوِّص معو... بس إخواتها كلّهم قتلوا بالمعارك. وهيّ وبوعادل زمطوا ورجعوا عالضيعة..».

ـ يعني هنِّي أصلهم من لبنان... أو من سوريا؟

ـ من هوْن. بس بوقتها كنَّا بلاد وحدة. شو بدِّك تعملي بالمخّ الأعوج؟

ـ لهيْك عادل وعارف بالحزب القومي. . . متل فريد!

ـ لهيك عارف وعادل ما حدا بطيقهم بالضيعة!

ـ ليش طيِّب؟

ـ بدهاش سؤال. . . وتململ وبدأ يتثاءب. . وقبل أن يهمّ بالوقوف نظر إلى هيلانة وقال لها: «تبقي زوريها. . . بتتونَّس فيك. . . وليلى كمان».

ـ عجبتني هالبنت. . . ليش فريد بيتزوجهاش؟

ـ اسعى بجنازة وما تسعى بجوازة!

رافقته إلى الغرفة وانسلَّت إلى جانبه في السرير. أخيرًا، سمعت حكايةً مختلفة عن امرأةٍ من ديرزوفا. كانت قطرات مطرٍ تقرع على الشبَّاك المتاخم للسرير. اقتربت من صالح وعانقته من الخلف. الشتاء يقترب. الحطب مكدَّسٌ في غرفة المؤونة. لديها الكثير منه في المطبخ وفي الغرفة الشتويَّة. هيلانة تتوق إلى الشتاء، وتترقَّب صوت الرعد وتنتظر الثلج بفارغ الصبر. وتحلم بقدوم عيد الميلاد.

ـ تقبرني هالطلّة، هتفت هيلانة عندما دخل فريد مسرعًا وخلع معطفه المبلَّل: «حبِّيت أتمشَّى الصبح... قلت أكيد عم تخبزي. بعمل صبحيَّة معك».

ـ أحلى صبحيَّة وأطيب ترويقة لأحلى فريد.

ـ خيْ... مزاجنا رايق.

ـ لمَّا شوفك مزاجي بيروق. اسحب هالصندوقة واقعد... رح اطلع جبلك لبنة.

ـ لا لا... بسّ رغيف سخن... بدِّيش لبنة.

ـ معقول هيك؟... خبز حاف.. بيصرش!

وهمَّت مجدَّدًا لتصعد إلى البيت، لكنَّ الباب فُتح فجأةً، وأطلَّ منه الأستاذ نبيل.

ـ صباحُكم مطرٌ وخير، قال وهو يمدّ رأسه كسلحفاةٍ فيما

ظهره مكشوفٌ على المطر.

ـ فوت من الشتي... ردَّت هيلانة مرتبكة.

ـ أهلين... قال فريد بنبرةٍ جافَّة.

ـ ما أجمل هذا المطر... أليس كذلك؟ أعتقد أنَّها ستمطر طوال الأسبوع. هل ذهب صالح إلى الحقل؟

ـ ذهب، أجابت هيلانة وهي تضع حطبًا في الموقد، وتنظر بطرف عينها إلى فريد الذي ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ ماكرة وهو يقول: «ذهب مع الريح».

ـ آآآه... ما أجمل هذه الرواية! ذهب مع الريح. ردَّد الأستاذ نبيل وهو يقترب من الموقد متفقِّدًا النار.

ـ النار منيحة... تتفضل أأقعد حدّ فريد.

ـ لا... لن أجلس... أحببت فقط أن أحيِّيكما. عفاف تنتظرني على القهوة. سأجلب لكما فنجانَيْن.

ولم ينتظر ردَّهما. خرج مسرعًا فيما فريد يحدِّق بهيلانة ويبلع ريقه.

ـ دقّ المي مي... تمتم.

ـ خيِّي... قبل ما يرجع. لازم خخخبرك... من كم يوم زرت أأأمّ عادل...

ـ أوفّ! تطوُّر خطير.

ـ ليش خطير؟

ـ إنُّو طلعتِ من البيت وعملتِ زيارة.

ـ إيه... أحلى زيارة. يا ألله يا خيِّي شو حبِّيت هالمخلوقة... وشو حبِّيت البيت... كككان عارف كمان... غريب ما تتذكرتوش أبدًا... مع إنُّو من عععمري... أأأأكيد كككان معي بالمدرسة...

كانت تتكلَّم وتراقب فريد وهو يقطع رغيف الخبز ويتناوله على مهل من غير أن ينظر إليها، كأنَّه يتوقَّع أسئلةً ويعدّ الأجوبة في رأسه.

ـ لمَّا شفت الزوبعة عالحيط عععرفت ليش إنت صصحبة معهم... صالح قال هيدا ببيت أصيل.. أنا كككمان حسِّيت هيك... أمّ عادل ببتجنن... مش متل النسوان... مدري كككيف... وبوعادل... شو هالببطل...

ـ مش الكلّ بيقول هيك.

ـ مممبارح صالح خبَّرني عنهم... بس نسيت اسألو كككيف مات ببوعادل؟

ـ استشهد... تقوَّص عالطريق وانكبّ بالوادي. كان جايي من اجتماع حزبيّ بسورية. نصبولو كمين... استشهد هو وتلاتة من بقاع نبعا.

ـ وما انعرفش مين؟

ـ أختي... مين بدو يقتل قومي؟

ـ شو بيعرّفني أنا. احكيلي قبل ما يرجع الأستاذ.

ـ شو بدِّي أحكيلك... ما في شي بهالبلد بينكشف على حقيقته.

الباب يُفتح من جديد. الأستاذ نبيل يحمل ركوة قهوةٍ وثلاثة فناجين فوق بعضها بعضًا.

ـ هل قاطعتكما؟

ـ كككان عم بيخبرني عن بوععادل.

رمقها فريد كأنَّه استاء.

ـ يا عيب الشوم... ععملتلنا قهوة؟ قالت لتغيِّر الموضوع.

وضع الأستاذ نبيل الركوة أمام فريد. سحب صندوقًا ورصف عليه الفناجين، وسحب آخر ليجلس ويصبّ القهوة قائلًا:

ـ الله يرحم بوعادل... ما مناسبة الحديث عنه؟

ـ هيك... قصَّة من هالقصص... ردَّت هيلانة مرتبكةً لكنَّها ترغب في استكمال الحديث.

ـ قصَّة ولا كل القصص... بطولةٌ ما بعدها بطولة.

ـ والله ما كنت عارف إنَّك بتشوفه بطل، ردَّ فريد.

ـ طبعًا أراه بطلًا... على الأقلِّ كان عربيًّا بغضِّ النظر عن انتمائه الحزبيّ.

ـ كيف بغض النظر؟!

ـ أقصد... لست مؤمنًا بنظريَّة سورية الكبرى. لكنِّي أؤمن أنَّ لبنان عربيّ، وعدوّنا كان وسيبقى من لا يريد النهضة للعرب.

ـ ومن هم هؤلاء برأيك؟ ردَّ فريد بالفصحى كأنَّه يتهكَّم.

ـ تعرفهم... هل تحتاج إلى رأيي؟

ـ هيدي مشكلتنا... لو منتّفق مين عدوّنا منعرف مين صاحبنا!

ـ أنت وأنا متَّفقان: عدوّ عدوِّي هو صديقي.

ـ هيدا الكلام مش دايمًا صحيح... مش كلّ من عادى عدوَّك صار صديقك. في عداوات مصلحة... إذا تغيَّرت المصالح تغيَّرت المواقف.

ـ صحيح... لكنْ مصلحة الوطن يجب أن تعلو فوق أيّ مصلحةٍ أخرى. أليس كذلك يا هيلانة؟

ـ ... الحياة وقفة عزٍّ فقط، ردَّت هيلانة، هيدي أحلى جملة سمعتها بحياتي.

ابتسم فريد وهو ينظر إلى هيلانة. «مش رح يقبضني جدّ بحياته»، قالت لنفسها. تمنَّت لو يغادر الأستاذ نبيل لتكمل له قصَّة زيارتها لأمّ عادل. لتسأله عن ليلى... لكنْ سرعان ما انضمَّت عفاف إلى الجلسة وتغيَّر مجرى الكلام.

لم يصعد فريد معها إلى البيت. وعدها أن يأتي في يوم آخر ويستكملا حديثهما. كانت واثقةً أنَّ ما قاله الأستاذ نبيل استفزَّه أكثر ليختصر ويرحل.

* * *

لم يتحمَّس صالح لتركيب هاتفٍ في البيت، ولم تصرّ هيلانة على اقتراحها. لكنَّها لم تفرح كما توقَّعت عندما أصبح في بيت الأستاذ نبيل هاتف. كانت فادية تتَّصل بها مرَّةً في الأسبوع. في المرَّة الأولى، استمتعت باكتشاف هذا الجهاز الغريب الذي ينقل لها صوت أختها من مسافةٍ بعيدة. جهازٌ متطوِّرٌ عن الراديو. صوتٌ يعبر السهول والجبال والمباني ليكلِّمها فتردّ عليه. ارتبكت أوَّل مرَّة. كانت تتأخَّر في الردِّ على أسئلة فادية كأنَّها تنتظر إشارةً لتتكلَّم. قالت لها عفاف إنَّ الحديث على الهاتف لا يختلف عن أيِّ حوارٍ بين شخصيْن في مكانٍ واحد. راحت تتكلَّم فيتقاطع صوتها مع صوت فادية، ولا تعود أيٌّ منهما تفهم على الأخرى.

أجبرها الهاتف على ابتكار حيلةٍ جديدة كلَّما انتصب حرفٌ أمامها معاندًا صوتها. فتتظاهر أنَّها لا تسمع جيِّدًا أو أنَّ الصوت يتقطَّع فتردِّد: آلو... آلو... كان لا بدَّ أيضًا من اللجوء إلى

السعال والشردقة لتختصر وتغلق الخطّ. بعد عدَّة مكالمات واسترسال فادية في الثرثرة، بدأت تخشى من أن تكون عايدة السنترال تصغي وتنقل محادثاتهما إلى نساء ديرزوفا. فوجدت في هذه المخاوف ذريعةً أخرى. وتباعدت اتِّصالات فادية من أسبوع إلى أسبوعيْن إلى مرَّةٍ في الشهر. . حتى حلَّ كانون الأوَّل، لتبلغها فادية عبر الهاتف أنَّها أرسلت هدايا مع بوسطة ديرزوفا.

لولا فادية لمرَّ الميلاد ككلِّ عام شحيحًا من المفاجآت والهدايا. في ليلة العيد، كان بوصالح مريضًا. اشتدَّ عليه السعال. وكان يئنّ من الحرارة. وضعت على رأسه لبخات الماء الباردة. حضَّرت له حساءً وفنجان يانسون. ليته يؤجِّل رحيله حتى يذوب الثلج! كانت عفاف قد أعطتها نصف زجاجة من نبيذ الدير. ستشربها مع صالح قرب الموقد. ستعاودها صورته وهو يدبك. . . وستردّه إلى جسدها.

مرَّ شهران انحسرت فيهما الثلوج، وبدأت الحياة تعود من جديدٍ إلى القرية. لم يمت بوصالح. وعاد صالح إلى الحقل. كانت هيلانة تزور أمّ عادل مرَّةً في الأسبوع، بعد ظهر كلّ يوم إثنين. تأخذ هبة معها، وتحرص ألَّا تطول الزيارة أكثر من ساعة. فأمّ عادل وليلى مشغولتان طوال اليوم في إعداد اللبنة والأجبان والمخلَّلات، وتوضيب هذه المنتجات التي يتولَّى عادل وعارف بيعها بين بيروت ودمشق. رحلات شبه يوميَّةٍ يتناوب عليها الشابَّان في باصٍ يحوي برَّاداتٍ محكمة الإغلاق. الأحاديث التي تدور خلال تلك الزيارة تختلف عن كلّ ما يتناوله أهل ديرزوفا في ما بينهم. وكانت هيلانة تشعر أنَّ هواجسها حول طفولتها، وموت

أمّها، وحريق ورديَّة. . . راحت تنحسر أمام ما تكرِّسه أمّ عادل وليلى وعارف وعادل من وقتٍ وجهدٍ لصنع فرقٍ في حياة الناس. فهذه العائلة لا تصنع ولا تبيع هذه المنتجات لتعيل نفسها فقط، بل تخصِّص جزءًا من المداخيل لإعالة معاقين ويتامى. ومع أنَّها لم تفهم تمامًا ما قالته لها أمّ عادل وهي تشدّ على يدها: «. . . فَلاَ تُعَرِّفْ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينُكَ،» أقسمت لها ألَّا تُخبر أحدًا بما يفعلونه من خير. وقرَّرت أن تساهم في هذا المشروع النبيل، وتخصِّص رطليْن من الحليب أسبوعيًّا إلى جانب منتجاتٍ أخرى يأتي بها صالح من الحقل. فكَّرت أن تكشف لفريد عن خطَّتها، فيأتي بسيَّارته كلّ سبت لينقل المنتجات إلى بيت أصدقائه.

* * *

ذات صباحٍ من أواخر شهر آذار، قرَّرت أن تشرك هبة في مهمَّة تلوين البيض استعدادًا للاحتفال بعيد الفصح. أرادت لهذا الطقس السنويّ أن يكون واضحًا في ذهن طفلتها كي لا تقع مثل أهل ديرزوفا أسيرة تقاليد لا يعرفون أصلها ولا فصلها وينسبونها إلى إلٰهٍ واحدٍ لم يسبق له مثيلٌ ولا شبيهٌ في دياناتٍ أخرى. راحت بكلماتٍ شحيحةٍ وأسلوبٍ يُبعدها عن التأتأة تسرد لهبة حكاياتٍ قرأتها في كتب الأساطير عن الإلٰه تمُّوز والإلٰه أدونيس، ورمزيَّة موتهما لتتجدَّد الحياة وتغتني الأرض ويزهر الزرع. أرادتها أن تعي مفهوم الموت بعدما أربكها رحيل جدَّتها، وأنَّ لكلِّ حزنٍ نهاية، وفي كلِّ نهايةٍ بذور بداياتٍ جديدة. . . أرادت لهبة أن تفكِّر أبعد من مظاهر العيد، وتُدرك بأنَّ لكلِّ شيءٍ أصلًا، وما يمارس من طقوسٍ في قريتها الصغيرة ليس سوى تجسيدٍ

لحكمة الحياة والموت في تناوبهما الدوريّ على الأرض لتذكير الناس بقيم الحقّ والخير والجمال. أرادت لابنتها أن تعي أهمِّيَّة فلاحة الأرض، والتعب ونشر البذار، «وما في أحسن من بابا صالح بحصاد القمح»، فتُدرك أنَّ قيمة الإنسان من قيمة إنتاجه وعطائه الخيِّر... حتى لو غاب.

«إذا بابا بطَّل يزرع، منموت من الجوع؟» بقي سؤال هبة معلَّقًا، بعدما سمعت هيلانة صراخ بوصالح وركضت إلى غرفته لتراه ممدَّدًا على الأرض. صرخت لعفاف، فصعد الأستاذ نبيل قبلها. وهُرع ليجلب الدكتور ناجي الذي سرعان ما قال لهم: «كسر وركه... لازمه مستشفى».

كان عليها أن تبقى مع بوصالح في مستشفى بقاع نبعا طوال فترة علاجه. وقضت يوميْ عيد الفصح في المستشفى. اهتمَّت عفاف بهبة، وكان صالح يتدبَّر أموره وحده. أمَّا الأستاذ نبيل، فلم يوفِّر فرصةً ليزورها حاملًا معه الطعام والفاكهة.

في الليلة الأولى، دخل ممرِّضٌ إلى الغرفة. كانت ممدَّدة على السرير المقابل لسرير بوصالح. نهضت ووقفت تنتظر أن يقول شيئًا.

أومأ لها الممرِّض بأن تستريح. اقترب من بوصالح، ثم همس لها: «نادني... للزحَّافة».

شكرته وعادت إلى السرير. لكنَّ شيئًا ما في الممرِّض لم يكن مريحًا. «نادني للزحَّافة». ما هكذا يُقال لأهل المريض أن يطلبوا المساعدة في حال احتاج مريضهم إلى التبوُّل. قد يكون

اعتاد على عمله، فلم يَرَ حرجًا في طلبه. ومع ذلك، شيءٌ ما في هذا الشابّ مثيرٌ لأسئلةٍ كثيرة.

مرَّت ساعات قبل أن يئنّ بوصالح، صحت لتفقُّده. يتململ في سريره، وعلا صوته متألِّمًا. سألته إن كان يريد التبوُّل. هزَّ رأسه بالإيجاب وأشار بإصبعه إلى الماء. دخل الممرِّض.

ـ كيف بتفوت هيْك؟ قالت له مرتعبة.

توقَّف الممرِّض في مكانه. احمرَّ وجهه. «عععععفوًا... سسسـ... سمعت صراخ العمّ...»

كاد بوصالح أن يتشردق وهي تمسك بكوب الماء وتحدِّق في الممرِّض. عندما اقترب ليساعدها، تركته يعتني ببوصالح، وابتعدت خطواتٍ قليلة.

ـ عمّ... شو رأيك ننبوّل شوي؟

ـ مطوِّل؟ مين مطوِّل؟

ـ نبوِّل نبوّل... نطنطنيّر ميّ...

ـ إيه... خدني عالحمَّام.

ـ خخخ... خليك مرتاح... بببـ... ببـ... بجبلك الزحَّافة.

خرجت هيلانة من الغرفة. لأوَّل مرَّةٍ ترى أحدًا مثلها. صدق حدسها. «نادني للزحَّافة» عبارة تمرَّن عليها الممرِّض ليقولها بلا تأتأة. هو أيضًا يلجأ إلى حيلة الكلمات. لم تفهم ما ينتابها في هذه اللحظة! راحة أنَّ ثمَّة شخصًا مثلها موجودٌ في هذه الدنيا؟ الشبه مريحٌ لمن يتشاركون العلَّة نفسها.

قرَّرت أن تُكلِّمه. لا بدَّ أن تفهم منه كيف يتعايش مع التأتأة. كيف تمكَّن من إكمال دراسته؟ ألم يسخر منه رفاقه؟ كيف قبلوا به في المستشفى؟ هل يعالجه طبيبٌ هنا؟ وكيف يتعامل معه المرضى؟ انتظارها له خارج الغرفة، بدا لها أطول من عمر بوصالح!! ذرعت الرواق ألف مرَّةٍ قبل أن يطلّ عليها وجهه، فتسرع إليه قائلة:

ـ عفوًا... لو سمحت.

ـ الحمد لله... كلّ شيء تمام. ببب.... بب... بوّل ونام.

ـ شكرًا.. ممكن نحكي شوي؟

ـ ... تتت... تفضلي.

ـ أوَّلًا... بعتذر إنِّي حححكيت معك هيك.

ـ ولا يهمّك... بسيطة.... ببدك شي جبلك إيَّاه؟ جوعانة؟

ـ لا... لا... بدِّي بسّ قلك... إنَّك بتحكي... مممثلي.

ـ أها..

ـ بقصد... هيدي أوَّل مرَّة بشوف حدا متلي.

ـ عادي...

ـ لا مش عادي.. معليش. عندي كم سؤال... كيف قدرت تكمِّل دراستك؟ ما تسمخروش عليك بالمدرسة؟ ما بتخفش تحكي مع الغربا؟

ـ خوف لأ. . . بتضايق شوي. بسّ حياتي ما رح توقف.

أرادت أن تقول له إنَّ حياتها توقَّفت في عمر الخامسة.

ـ ما ساعدوك الأطبَّا هون؟

ـ كلُّهم قالوا فشّ علاج.

ـ بتشرب زوفا؟

ـ زوفا؟ قال ضاحكًا.

ـ إيه. . . الحكيم بالضيعة نصحني بالزوفا.

ـ يمكن لأنّ ما بتنامي منيح بالليل. . . يا ستِّي. . . لا تفكِّري بترتاحي.

ـ طيِّب. . . شكرًا. . . وبعتذر إذا زعجتك.

ـ لا، أبدًا. . . تصبحي على خير.

ـ وإنت من أهله.

انسحبت وهي تريد المزيد منه. خافت أن تضايقه بأسئلتها كما تحاصرها عيون الناس وأسئلتهم المكتومة. لكنَّ شعورًا بالرضا غمرها مع الليل. هي ليست وحيدةً في هذا العالم. ثمَّة من تألَّم مثلها وتحمَّل سخرية الآخرين، ويعرف تمامًا مدى العذاب الذي يستغرقه النطق بكلمة. ما أجمل الشعور بالعدالة!

كانت تُطعم بوصالح فطوره عندما دخل فريد مع الأستاذ نبيل في صباح اليوم التالي. سلَّما على بوصالح الذي لم يعد يتعرَّف على الوجوه ولا على الأصوات. أمرٌ واحدٌ فقط عالقٌ في ذاكرته ويعيه جيِّدًا، فإذا سُئِل «كيف حالك؟» أو «هل نمت جيِّدًا؟»، أو «هل تشعر بألم؟» ردَّ ساخطًا: «خدوني عالبيت». هيلانة تتألَّم

لأجله. هي أيضًا تريد العودة إلى البيت، مع علمها أنَّ العناية ببوصالح عاجزًا بالكامل سيقصف ظهرها. على الأقلِّ هنا في المستشفى، ثمَّة من تتقاسم معه همَّها ولا تعرف اسمه حتى الآن.

كانت ساعات النهار طويلةً بعدما غادر فريد ونبيل. لا تعلم إذا كان ذلك بسبب انتظارها لشبيهها الذي لا تعرف اسمه، أم لصالح الذي اشتاقت إلى قدميْه في الماء، وإلى رائحة كوفيَّته، وإلى يده تربِّت على ظهر بغلته، وإلى صوته في الربيع وهو يصف براعم الزهر على أشجار الخوخ، وإلى بريق عينيْه حين يفاخر بأنَّ لأشجاره ذاكرةً ولغةً لا يفهمها أحدٌ سواه، وإلى عناده حين يقارع عمّه بوفؤاد بأنَّ للشجرة قدرةً خاصَّة على شفاء أغصانها الجريحة... ابتسمت حين تذكَّرت تكراره لتلك الحكاية وهو يصوِّر بيديْه كيف تقطع الأشجار الطريق على الغذاء من الوصول إلى الغصن المريض، فيموت من تلقاء نفسه فيما تستفيد الأغصان السليمة من هذا الغذاء لتحيا وتُزهر وتُنقذ الشجرة.

عندما رأته في المساء، أرادت أن تضمّه إلى قلبها علَّه يضخّ حياةً جديدة في أغصان عمرها الجريح! وقف أمام أبيه، قبَّل جبينه، أمسك يده. لم يقل شيئًا. «زرعت العدسات؟» سأله بوصالح. «العدسات والقمحات والفاصوليات» ردَّ صالح حزينًا من يتمه القادم. عجز أبيه زاد في عمره سنوات، وها هو يقف أمامه كطفلٍ انكسر حصانه الخشبيّ.

رافقته هيلانة إلى السيَّارة وهي تطمئنه أنَّ الطبيب سيأتي غدًا ليقرِّر متى يعودان به إلى البيت. حين لوَّح لها بيده مودِّعًا، تمنَّت لو كانت طيَّارةً من ورقٍ معلَّقةً في خنصره.

في المساء، ذرعت رواق المستشفى ألف مرَّةٍ قبل أن تلمح الممرِّض يصل إلى الطابق. رفع يده لتحيَّتها، ودخل المكتب. انتظرت في الغرفة. سألت بوصالح إنْ كان يريد التبوُّل. أومأ بالنفي. بأيِّ ذريعةٍ ستأتي به إلى الغرفة؟ عادت إلى الرواق. رأته يدخل إحدى الغرف. مشت لتقترب أكثر. طال مكوثه في الغرفة. سمعت صراخ أحد المرضى. توقَّفت لتُصغي.

ـ هيدي الإبرة.... رح تريّحك كتير.

ـ الموت بس بيريّحني، صرخ المريض.

ـ بعيد الشرّ... سلامتك.

لم يتأتئ، قالت لنفسها. انتظرته ليخرج. فوجئ بها أمام باب الغرفة.

ـ مرحبًا...

ـ أهلًا... كيف العمّ بوصالح؟

ـ تمام... الحمد لله.

ـ بدِّك شي؟

ـ لا... شكرًا.

استدارت عائدةً إلى الغرفة. كرهت نفسها لأنَّها تتطفَّل مثل أهل ديرزوفا. لعلَّه تجاوز عاهته ولا يريد لأحدٍ أن يذكِّره بمعاناته! وها هي تلاحقه وتترصَّد له لتُرضي فضولها. خرجت من جديدٍ إلى الرواق. مشت باتِّجاه مكتبه. كان منكبًّا على ملفٍّ فوق مكتبه. لم يرفع نظره إليها. سعلت واقتربت أكثر، التفت إليها. ابتسم وأكمل عمله.

ـ مش قادرة تنامي؟

ـ ضجرانة شوي...

ـ معي كتاب حلو... بتحبّي تقري؟

ـ لا... قصدي... قريت كتير... بصراحة... بدّي أحكي معك. بعرف يمكن عم بتقِّل عليك. بس عندي أسئلة كتيرة. ولا مرَّة التقيت بحدا متلي....

نهض من كرسيِّه وهو يقول: وأنا كمان... يمكن وضعك أصعب. بقصد... حضرتك متزوِّجة؟

ـ وعندي بنت.

ـ ما شاء الله... الله يخلِّيها. تزوَّجتِ زغيرة! وهيدا بيِّك أو عمّك؟

شعرت أنَّ الأدوار انقلبت، وأصبح هو من يتطفَّل عليها. وحين أغلق الملفّ واقترب منها، سألته:

ـ بتتذكَّر طفولتك؟

ـ أوقات.

ـ ما نسيتهاش؟

ـ ما حدنش بينسى طفولته... بس بفكِّر بالمستقبل أكثر.

ـ ما تزوَّجتش؟

ـ ما إجاش النصيب بعد. بتزوِّجيني بنتك؟

ـ دخلك ليش مش عم نتأتئ؟

دوَّت ضحكته في الرواق. تنبَّه إلى نفسه. اعتذر وأجاب.

ـ لأنّه وحدنا... ومتل بعضنا.

ـ التأتأة ما أثَّرتش عليك مثلي... بقصد مع الناس. يمكن لأنَّك شبّ؟

ـ تخيَّلي الموقف. أنا مغروم ببنت وبدِّي عبِّر لها عن مشاعري. بوقف بكلِّ ثقة وبقلِّها: ببببب... بب.. بحبِّك. رح تهرب المشحَّرة.

ـ شي بيوجِّع... صحّ؟

ـ لا... عادي. هي الخسرانة. أو إنَّها مش من نصيبي. عفوًا... بس نحنا المسلمين عنَّا إيمان بمشيئة الله «لن يصيبنا إلَّا ما كتب الله لنا».

ـ صحيح... ونحنا كمان منقول: «لتكن مشيئتك..».

ـ «من رضي بقضاء الله أرضاه الله بجميل قدره»... أختي... عفوًا شو اسمك؟

ـ هيلانة...

ـ داعيكِ مرتضى... مين بيعرف؟ يمكن في حكمة من مشكلتنا! نحنا مش متل بقيَّة الناس. بس نحنا ناس عنَّا أحلامنا... عنَّا حياة منستاهل نعيشها. منتأتئ؟ وشو يعني؟ شو بيقول الأعمى؟ والأطرش؟ والمشلول؟

ازدردت ريقها. الكلام المكرَّر نفسه. كأنَّ العاهة قدرٌ لا مفرَّ منه. كلّ صاحب عاهةٍ ينظر إلى من هم دونه ليسعد. لماذا لا يحقّ للناقص أن يتماهى إلَّا بمن يفوقه نقصانًا؟

ـ إنتِ مش معي...

ـ لازم ارجع... شكرًا.

«حتى من هم مثلي متفوِّقون عليّ»، قالت وهي تجرجر خيبتها إلى السرير. تلك الليلة، كرهت نفسها أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. كلّ السنوات التي ظنَّت فيها أنَّ الآخرين يستخفُّون بمعاناتها من عاهتها، لأنَّهم لم يجرِّبوا حشوة القطن في الحنجرة وارتعاش اليديْن وانقباض الرئتيْن وتصلُّب اللسان.. وذلك الخجل القاتل، لا تضاهي لحظة المرارة التي عاشتها أمام هذا الشابّ! يتأتئ مثلها، مرَّ بتجارب الذلّ نفسه، سخر منه رفاقه، تهشَّمت صورته ألف مرَّةٍ أمام الناس، سمع صوته في رأسه آلاف المرَّات وشهد الكلمات تختنق في الحنجرة. كيف لشخصٍ عانى مثلها، أن يفاقم إحساسها بالنقصان!؟ حتى في تعاطفه معها استخفَّ بضعفها. اجترَّت حوارهما في ليلها الطويل، لم يتئتآ معًا. على الأقلِّ هي لم تشعر بأيِّ حرفٍ عالقٍ في حبال صوتها. لعلَّها المساواة التي شعرت بها لأوَّل مرَّةٍ في حياتها، حرَّرتها من رهاب الكلمات! ومع ذلك، كان حزنها يحفر في قلبها سوادًا أشدّ من الليل كما ينقش النحّات الملامح الأخيرة لأيقونةٍ خالدة.

لا تستحقّ أيّ حياة. كلّ شيءٍ كثيرٌ عليها. ستبقى أقلّ من بهيَّة وبوالزلف ومريم، أقلّ من صالح، أقلّ من ديرزوفا كلّها.. والآن أقلّ من الشخص الوحيد الذي يُشبهها في هذا العالم. في الصباح، عندما نظرت إلى الشمس تطلّ في الأفق، رأت نفسها ذبابةً مسحوقة.

في اليوم الثالث، طفح الكيل بها وقرَّرت أن تضع حدًّا للأستاذ نبيل قبل العودة إلى البيت. مجيئه اليوميّ عند الغروب يثقل عليها. لم تعد تحتمل حضوره. عندما غفا بوصالح أومأت له لملاقاتها خارج الغرفة. اقترح عليها نزهةً في الباحة الخارجيَّة للمستشفى، الطقس باردٌ لكنَّها تحتاج إلى هواءٍ نقيّ. رافقته وهي تشحذ الكلمات، ترتِّبها في رأسها. تخيَّلت أنَّها تغربل القمح، ورأت حروفًا تطفو كالحصى والزوان على سطح الغربال. ستتجنَّبها وتُبقي على ما يسعفها من حروفٍ تزرع بذور علاقةٍ أصفى مع جارها.

وقفت قبالته. الهواء يصفِّق باردًا في ظهرها، وشعرها يتطاير من خلف رأسها ليغطِّي ملامحها. مدَّ نبيل يده ليُزيح خصلةً غمرت خدَّها، قبضت على يده كأنَّها أمسكت فأسًا.

ـ لماذا خفتِ؟ شعرك... يغطِّي وجهك الجميل.

ـ معليش... أنا برتِّب شعري.

ـ أعرف أنَّكِ متعبة... كان الله في عونك.

ـ الله يعين الجميع... أستاذ نبيل...؟

ـ عيوني...

ـ يخلِّي عيونك... لللـ... لليبيستحقّها... اسمعني ببترجاك... بتمنَّى توقّف...

ـ أتوقَّف عن ماذا؟

ـ ننن.. نن.. نحنا مش برواية...

ـ لم أفهم.

ـ مبلى ففففهمت... إنت جاري... وأستاذي... ففضلك علينا ككّكك.. كبير... بس ووقّف.

ـ هيلانة... حبيبتي.

ـ أنا مش حبيبتك...

ـ لماذا تتحسَّسين من كلامي؟

ـ انتبه شو بتقول... حبيبتي بتقولها لعفاف... مش إلي.

ـ أتفهَّم أنَّكِ متوتِّرة... لنؤجِّل الكلام.

ـ لا.. أجَّلته كتير... خلينا نكمِّل... فف.....فوق.

لم يكن البرد، الذي جمَّد عظامها، دافعها الوحيد لتغادر الباحة. شعرت أنَّ حنجرتها ستنغلق مع إطلالة بعض الحروف. المشي سيمنحها الوقت لترتِّب كلماتها من جديد.

ـ قدِّيش عمر هالمستشفى؟ سألت لتمتحن نفسها.

ـ خمس... أو ستّ سنوات. النوَّاب هون واسطتهم مع الدولة أكبر...

ـ أهل بقاع نبعا... كلّهم مسلمين؟

ـ ديرزوفا هي القرية المسيحيَّة الوحيدة في المنطقة. كلّنا أهل... ولكنَّ العادات تختلف. والعقليّات أيضًا.

لم تفهم إن كان في كلامه ذمًّا بتلك العقليَّات المختلفة، أو مجرَّد ملاحظة لأستاذٍ لديه علاقاتٌ مع الكثير من أهل القرى المجاورة، ويفهم تركيبة مجتمعاتها. عندما وصلا الغرفة، كانت إحدى الممرِّضات تنادي بوصالح. ارتعبت هيلانة واقترب الأستاذ نبيل ليتبيَّن الأمر.

ـ تقلقوش... كان غافي. ولازمٍ ياخد الدوا.

ـ هل سيمرّ الطبيب هذا المساء؟ سألها الأستاذ نبيل.

ـ طبعًا... ردَّت الممرِّضة بعدما نظرت إلى هيلانة، وكادت تضحك من لغة الأستاذ! باعتقد العمّ رح يطلع بكرا... الحمد لله على سلامته. والتفتت إلى هيلانة ثم للأستاذ نبيل: الله يخلِّيلك إيَّاها... متل القمر.

ـ أنا مش مرته، ردَّت هيلانة فورًا.

ـ عفوًا... أخوكِ؟

ـ أكثر من أخ... ردَّ الأستاذ نبيل.

ـ جاري...

خرجت الممرِّضة، وشعرت هيلانة بحرارةٍ تهبّ في جسمها.

ليست محرَجة ولا غاضبة من تطفُّل الممرِّضة. أغضبها ردّ نبيل. مشت نحو النافذة التي آنست لياليها قرب بوصالح وهي تتأمَّل ديرزوفا من مكانٍ غير بيتها. لم تختلف قريتها التي لم تعرف سواها، لكنَّ تلك النافذة علَّمتها أنَّ اختلاف موقعها ممَّا ألفته، يغيِّر مشاعرها منه. أحبَّت ديرزوفا أكثر عندما رأتها من موقعٍ آخر. التفتت إلى الأستاذ نبيل عندما شمَّت رائحة تفَّاحٍ تعبق في الغرفة. رأته يقشِّر واحدة.

دنت من بوصالح. «بدَّك تفَّاح عمِّي؟». فتح عينيْه قليلًا وعاد إلى غفوته. داعبت جبينه.. شعرت بالوقت ينزل ثقيلًا مع غياب الشمس، ومع أفكارها التي أخذتها إلى أيَّام صعبةٍ تنتظرها في الاعتناء ببوصالح. «رح يشتاق لشجرة الجوز على سطح البيت»، دمدمت.

وقف الأستاذ نبيل وأعطاها قطعة تفَّاح. لم تأخذها.

ـ تأخَّر الوقت... لازم ترجع.

ـ تريدين أن تتخلَّصي منِّي؟

ـ ....

ـ أنتظر الطبيب لأطمئنّ، وأتأكَّد من أنَّه سيخرج غدًا. صالح يريد أن يعرف.

ـ عم نتعبك معنا... شكرًا.

ـ يا هيلانة... نحن أهل...

ـ شكرًا...

ـ المهمّ الآن أن تهتمِّي بنفسك. الآتي أعظم كما يقول

المثل! لكنّي دائمًا موجودٌ لمساعدتك في أيّ شي تحتاجينه. الحمل ثقيل عليكِ وحدك...

سمعتْ وقع خطى في الرواق. أطلَّت من الباب. كان الطبيب يتقدَّم برفقة الممرِّضة. حُسم الأمر. العودة غدًا صباحًا إلى ديرزوفا.

ليلتها الأخيرة في المستشفى كانت الأطول في عمرها كلّه. لم تخرج من غرفتها. تظاهرت بالنوم عندما دخل الممرِّض مرتضى. أرادت أن تبعد عنها طيفه المتعالي. أرادت أن تفهم لماذا لم تستطع أن تقول الكلمات التي فكَّرت بها قبل حديثها مع نبيل. أرادت أن تتخلَّص من صوتها الذي يردِّد لها «جبانة».

«اسمع أستاذ نبيل، أنا بحترمك لأنَّك كنت أستاذي ولأنَّك جار وفيّ، بسّ بتمنَّى تلزم حدودك معي. للكلمات أبعادٌ ومعانٍ... لازم ننتبه إلها لحتى ما تنفهم غلط. الكلمات متل السلوك تمامًا، بتأذي ويمكن تدمِّر حياة الناس. إن كنت هاوي غزل، أنت حرّ. بس إذا مفكَّر إنُّو غزلك رح يوصِّل لمطرح مش منيح معي، فإنت غلطان كتير. بتمنَّى ما أضطرّ صدَّك مرَّة تانية بطريقة ما تخلِّي للصلح مطرح!»

فكَّرت أن تكتب كلّ هذا في رسالةٍ وتدسّها في يده حين يأتي غدًا. لكنْ ماذا لو وقعت في يد عفاف!! ستزيد الأمور تعقيدًا. عجز بوصالح الآن نقطة في بحر عجزها من فكّ أسر تلك الكلمات وإطلاق صوتها في الهواء، في وجه الأستاذ نبيل.. تمنَّت لو أنَّ جراحةً ما تستبدل صوتها بآخر، كأيِّ عضوٍ في الجسم.

عندما صحت في اليوم التالي، فوجئت بصالح مع الأستاذ

نبيل في الغرفة. كانت الساعة العاشرة. لم تغمض لها عينٌ طوال الليل، فالممرِّض جاء أكثر من مرَّةٍ ليساعد بوصالح على التبوُّل. لم تتكلَّم معه بعد تلك المحادثة أمام مكتبه، ولم تنسَ نقصانها أمامه. الفرح برؤية هبة بعد غيابٍ طويل، أنهضها من فراشها لتغادر المستشفى حاملةً جراحها المفتوحة.

* * *

كلّ من جاء ليزور بوصالح في البيت قال له: «لو كانت هيلانة بنتك ومن صلبك ما كانتش رح تعاملك أفضل من هيْك». والنسوة اللواتي كنَّ يأتين للتأكُّد من كلام رجالهنَّ، تمنَّيْن أن يرزقهنَّ الله بكناين مثلها. أمَّا صالح، فأصبح يمضي ساعاتٍ في ملاعبة هبة تاركًا لهيلانة مساحةً للقيلولة كي تشحذ طاقتها لليالٍ كثيرة بلا نوم. هذا الإعجاب في عيون الناس لم يُرضِ غرورها لحظةً، ولم يعطها إحساسًا بكينونتها. ما تفعله لا يختلف عمَّا تفعله بهيَّة. قوَّتها بدنيَّة فقط. غسل بوصالح، والسهر عليه، ووضع الزحَّافة له، وحلب الأبقار، وخَبز عشرات الأرغفة، وتوضيب المحاصيل، وإعداد الطعام وتنظيف البيت، والاعتناء بهبة.. كلّها مهامّ لا تستوجب إلَّا طاقةً جسمانيَّة وعقلًا منظَّمًا. وزاد من حزنها، أنَّها توقَّفت عن زيارة أمّ عادل رغم أنَّ خطَّتها للمساهمة بالحليب ومنتجات الحقل تتمّ بشكلٍ منتظم، بفضل التزام فريد الذي لا شكَّ يعرف ماذا يفعل صديقاه عادل وعارف.

لم يكد شهر آذار يمضي حتى انطفأ بوصالح ذات ليل. هذه المرَّة، لم تخف من طوفان المعزِّين في بيتها. لن تحتاج إلى الردّ على أيِّ سؤال. ليس بذريعة التعب والحزن، بل لأنَّ إعجابهم

بقدرتها الخارقة في الاعتناء ببوصالح شكَّل مادَّةً كافية للثرثرة والدعاء لها بولدٍ يزيِّن البيت. من مأتمٍ إلى آخر، يحمل أهل ديرزوفا حكاياتهم التي تبقى بلا خاتمة. حريق الحرش... مقتل سمير... نهاياتٌ مفتوحة على احتمالاتٍ تغذِّيها ألسنتهم التي تدور في فراغ خيالٍ مفرط!

دخول أمّ عادل لتقديم واجب العزاء أسكت الجميع. كان عارف معها وشابٌّ آخر. «لا بدَّ أنَّه عادل»، قالت هيلانة في سرِّها عندما تبيَّن لها الشبه الكبير مع أمّه. رافق الشابَّان أمّهما إلى مقعدٍ بالقرب من إحدى النساء، ودخلا إلى الغرفة الشتويَّة لينضمَّا إلى الرجال. تأمَّلت هيلانة كيف خيَّم الصمت حين جلست أمّ عادل. النساء قطَّبن أفواههنَّ. وقفت هيلانة واقتربت من أمّ عادل لتجلس بقربها. تحوَّلت كلّ العيون إليهما مستغربةً هذا الودّ. همسات مريبة تتسرَّب. كم ترغب أن تعرف ماذا يُقال الآن. ربَّتت أمّ عادل على يد هيلانة. «الله يرحمه، همست لها، يخلِّيلك صالح وهبة». «تسلمي... يخلِّيلك عيلتك...». استغراب النسوة لمجيء أمّ عادل سرعان ما انسحب على هيلانة. لماذا لم تأتِ إلى عزاء أمّ صالح؟ هل زيارتها اليتيمة لها في ذلك اليوم العاصف شجَّعتها على المجيء للقيام بالواجب تجاه ابنة صديقتها الوحيدة في هذه القرية؟ كانت تراقب نفسها وهي جالسة قرب تلك المرأة. شيءٌ ما يُبقي كتفيْ أمّ عادل من دون انحناء، أنفاسها مستقرَّة ورأسها عالٍ. شعرت أنَّ العيون التي ترمقها تغيَّرت نظراتها. كأنَّ هيبة أمّ عادل انتقلت إليها وغمرتها بهالةٍ خاصَّة.

* * *

عندما قرَّرت هيلانة تنظيف غرفة حمويْها، لم تفكِّر كيف ستستفيد منها. أرادت فقط أن تزيل رائحة الموت. تركت هبة عند عفاف، وطلبت من جريس بوالزلف مساعدتها في حمل المرتبتيْن إلى الشرفة ليتطهَّرا بالشمس. أعطته عصا لنفض الغبار عنهما، فيما غرقت هي في تنظيف الخزانة الخشبيَّة الضخمة التي لم تفتحها يومًا. كانت تضع ملابس حمويْها بعد غسلها وكيِّها على حافَّة سرير كلٍّ منهما. حتى بعدما رحلت أمّ صالح، لم تجرؤ على فتح الخزانة. كانت الرفوف مرتَّبةً بشكلٍ لافت، على كلِّ رفٍّ توزَّعت الملابس فوق رقعةٍ بيضاء طرفها مطرَّزٌ بالكروشيه الناعم. بدت أفضل من خزانتها هي وصالح. كأنَّها بقيت هكذا مذ تزوَّج حمواها. قرَّرت أن تتخلَّص من الملابس. لا شكَّ أنَّ جريس سيفرح بها ويتقاسمها مع أمّه!

جلب بوالزلف أكياس خيش، وراح يعبِّئها كيفما اتَّفق. مرَّةً أخرى يُثير هذا الرجل إعجابها. لم يقل الأشعار ولا الميجانا. المهمَّشون يحترمون الموتى. التفتت تتأمَّله وهو يملأ الأكياس. وإذا به يتجمَّد في مكانه محدِّقًا في غرضٍ يمسكه. اقتربت. رأت صورة. سحبتها من يد جريس، تفحَّصت الوجوه. أمّ صالح وبوصالح؟ هزَّ جريس رأسه وتابع عمله. «هيدي ورديَّة؟ بتعرفها؟»

ـ «ورديَّة الحلوة يللِّي كلّها حنيَّة

بالعيد رح قدِّملها قلبي هديَّة

صدق وبراءة ما إلها وجَّين..

وقامة غزال وعيون عسْليَّة

لمَّا تمشي بالحيّ بينقسم القمر اتنيْن،
والشجر العالي بيركع، وأمّها تصلي الورديَّة».

ـ الله يا بوالزلف...

ـ ورديَّة الحلوة يللي كلَّها حنيَّة!!

ـ بوالزلف... ركِّز معي... كيف احترقت؟ مين حرقها؟

ـ ما في دخان بلا نار... والجمرة ما بتحرق إلَّا مطرحها.

ـ جاوبني... مين حرقها؟

ـ «سوى هالقلب يا حلوة ما عنّا
حرام يضلّ عفراقك معنّى
قلب حيران يتنهَّد مْعنَّى
يشكي وحدته طول الغياب».

يائسةً، تركته يرندح أغنية وديع الصافي ودخلت المطبخ. جلست تتأمَّل الصورة... أمّ صالح وبوصالح واقفان، وبينهما تجلس ورديَّة على كرسيٍّ كأنَّها أميرة. لا بدَّ أنَّ عمرها في هذه الصورة لم يتجاوز العاشرة. عيناها تقدحان ذكاءً. تبدوان ملوَّنتيْن. أنفها الدقيق يعلو شفتيْن خجولتيْن. حاولت أن تلوِّن الصورة في خيالها. فستانها كان مطرَّزًا كفساتين الأعراس. على رأسها شريط يرفع جانبًا من شعرها ليكشف عن جبينٍ وقور. يداها على حرجها كأنَّها تدرَّبت مرارًا على الصورة المثاليَّة.

عادت إلى الغرفة. بحثت أكثر في جوارير الخزانة علَّها تجد صورًا أكثر... ورديَّة في سنٍّ أكبر... مع صالح... في

المدرسة... في العيد... لم تجد شيئًا. خطر لها أن تكون أمّ صالح قد خبّأت فساتين أو أيّ قطعة ثيابٍ لها! كان ظنّها في محلِّه عندما عثرت في أعلى الرفوف على سترةٍ قطنيَّة مطرَّز عليها فراشة بألوان قزحيَّة. شمَّتها... رائحة خزامى... هكذا تحفظ الأشياء الغالية على القلب. طوتها على عجلٍ وخبَّأتها في خزانتها. عادت إلى الصورة. أيّ لغزٍ حملتِ معك إلى القبر؟ أيَّة حياةٍ كانت تنتظركِ في ديرزوفا؟ كيف احتمل جلدك الطريّ النار؟ اشتعلتِ حيَّة... يا له من عذابٍ لا يستحقّه ألدّ الأعداء! مستحيل أن يقوى صالح على إيذاء مخلوقٍ مثلك... العار يعمي أكثر القلوب رقَّة، يُقال... أيّ معصيةٍ ارتكبتِ كي يحرق جمالك بنار شرفه؟

سرقها جرس الباب من دوار الأسئلة... خبَّأت الصورة في عبّها. خرجت لترى إحدى الجارات تناديها لتذهب إلى بيت إلماز.

عاجلت جريس ليحمل الأغراض ويرحل. ركضت خلفه إلى بيت خالتها. لم تكد تفكّر في احتمال أنَّ إلماز وقعت وهي تشطف الدار حتى وصلت لتراها وراء ماكينة الخياطة.

ـ خخخخ... خالتي انقطع قلبي... ففف.. فكَّرت صرلك شي.

ـ حبيبتي... غير هيك مش رح شوفك... شهر يا هيلانة؟ معقول؟

ـ معك حقّ... بعرفش كيف بتمرق الأيَّام.

ـ قرّبي... خدي هالفستان وجرّبيه.

ـ هيدا إلي؟ ليش؟ قصدي... شو المناسبة؟

ـ مش رح تحضري عرس رنا؟ أكيد فساتينك عتقت. من زمان ما خيّطلكش شي جديد.

عانقتها هيلانة قبل أن ترفع الفستان عن الكنبة وتتأمَّله. كان لونه بنفسجيًّا، وعلى خصره شريطٌ مخمليٌّ رفيع من اللون نفسه يُربط بعقدةٍ ناعمة.

ـ ما أجمله! ما بصدِّق... بعشق هاللون...

ـ بيلبقلك... يلَّلا جرِّبيه.

دخلت الغرفة، وقبل أن تخلع فستانها، نادت خالتها ووضعت الصورة أمام عينيْها كما يرفع المحقِّق صورة ضحيَّةٍ أمام متهم.

ـ وين لقيتيها؟

ـ بخزانة أم صالح.

ـ رجِّعيها لمطرحها.

ـ شو كانت حلوة... ما لقيت غيرها... .رح حطّها ببرواز بأوضة الشتي.

ـ ردِّيها عالخزانة. لو بدن يبروزوها كانوا عرضوها من زمان.

ـ صحيح. ليش خبُّوها؟

ـ لحتى ما ينقهروش أكتر.

ـ مش رح أسألك مرَّة تانية. مش رح تجاوبيني... رح ضلّ هيك. متل مريم... خرسا وما بتفهم شي.

ـ رح تزعلِّيني منك... جرِّبي الفستان.

كم تتمنَّى أن تمسك بذراع صالح وتدخل الكنيسة ليراها أهل ديرزوفا تتألق بالبنفسجيّ، فتغار النسوة ويحسده الرجال... لكنَّ تلك الصورة التي تتخيَّلها، تحبّها وتزدريها في الوقت نفسه: «بديش كون متل الشمسيَّة الحلوة بإيد صالح!»... قال لها صوتها وهي عائدة إلى البيت. لا تعلم حتى الآن إذا كان صالح ينوي حضور الزفاف!

عندما عاد في المساء، وقف أمام غرفة والديْه. «الله يرحمهم، تمتم.. مين ساعدك؟»

ـ بوالزلف... ع سلامتو...

جلست معه لتناول العشاء، سألته عن قراره في شأن العرس.

ـ إنتِ بدِّك تروحي؟

ـ بروح إذا إنت بتروح...

ـ هبة رح تنبسط لمَّا تشوف عروس... أيمتى دخلك؟ الأحد الجايي أو يلِّلي بعدو؟

ـ الجايي... أحلى صالح بالعالم. هات بوسة... خالتي إلماز خخيطتلي فستان بيجنِّن... ببيلا ما أعرف. مش رح خلِّيك تشوفه قبل الأحد... وو... طلبت منها.. تتتخيطلك قميص..

ـ وكيف عرفتي إني رايح عالعرس؟

ـ حتى لو ما رحتش... لازمك قميص جديد.

ـ يا عيني... لأنّي موظَّف دولة وكلّ يوم عندي اجتماع!!

ـ قمصانك اهترت...

ـ خدي كيس بطاطا وكم عرنوس ذرة لخالتك، واشكريها عنّي.

ـ من عيوني.

لم تشأ أن تريه الصورة التي وجدتها. ولا سترة الفراشة. خافت أن تعكّر مزاجه قبل العرس. تحتاج إلى فسحة فرح بعد كلّ المآسي التي عاشتها مع أهل ديرزوفا من الخريف حتى الربيع. لا شكَّ أنَّ فادية مدعوَّةٌ أيضًا إلى العرس. ستتصل بها غدًا من هاتف عفاف لتتأكَّد من قدومها.

كان صالح يتكلَّم مع الأستاذ نبيل من الشرفة، كلٌّ منهما يدعو الآخر ليمضي بقيَّة الأمسية عنده. سمعت صوت الأستاذ نبيل يقترب. كان يصعد الدرج، ووقف في منتصفه مشدِّدًا العزيمة على صالح. عندما نظرت إليه، لمحت حيلةً تنمو في ذهنه وسيلفظها في الحال. لن يتوانى عن إيجاد ذريعةٍ ليسحبها مع صالح إلى بيته.

ـ عفاف مزاجها متعكِّر قليلًا... ستستأنس بكِ.

ـ بس هلَّق موعد نوم هبة...

ـ لتنم عندنا... ولو؟ بيت واحد. هيَّا يا جارنا العزيز... إنزل معي لنجلس في الهواء العليل.

ـ هون عليل أكتر... أجابه صالح، بس إذا عفاف مش مرتاحة خلِّينا نزورها.

دخلت مع هبة لتتفقَّد عفاف، فيما وقف الأستاذ نبيل وصالح أمام الحديقة يتحدَّثان.

ـ خير.. سمعت إنَّك مش تمام. شو بكِ؟

ـ تعبانة شوي... أمِّي ومرضها. فوق الجلطة بلَّشت تخرِّف.

ـ يا حرام... سلامتها. والله أنا قصَّرت بواجبي... لازم زورها.

ـ ما حدا بيعتب عليكِ.

سحبت الصورة من عبّها وأرتها لعفاف. ردَّة الفعل نفسها. الردّ نفسه: «ردِّيها لمطرحها».

ـ رح فرجيها لصالح.

ـ يا مجنونة أوعا! بدِّك تخربي بيتك؟

ـ معقول؟ صصصورة رح تخرب بيتي؟ ليش؟

ـ هيلانة... حبيبتي... اعقلي. صالح بيتحمَّلش. أخفي الصورة بسرعة.

ـ ليش؟ هيدي تتتت.. تت... تذكار... إمّه وبيّه وأخته مع بعض بببصورة واحدة.

ـ متل ما بدّك... أنا أنذرتك.

تركت عفاف في المطبخ، ومشت مع أفكارها إلى الخارج.

كان صالح يتبارز مع الأستاذ نبيل.

ـ طيِّب اسمع هيدي... بنيسان اطفي نارك. وافتح شبابيك دارك. واسبح بالشمس لزنّارك.

وسرعان ما يردّ عليه الأستاذ:

ـ نيسان بلا شتي متل العروس بلا حلي... بمناسبة طلَّة هيلانة... والتفت إليها موضِّحًا: نتنافس، من يعرف حِكَمًا شعبيَّة عن نيسان أكتر من الآخر. كسوق عكاظ.

ـ «نيسان لسانه فلتان» ردَّ صالح.

ـ منيحة منك صالح، ردَّت هيلانة لتقهر الأستاذ نبيل. فتحمَّس صالح وأردف:

ـ مطرة نيسان بتحيي السكَّة والفدَّان.

صوت عفاف سبق وجهها الذي أطلَّ ضاحكًا من باب البيت وهي تحمل الفواكه، وترافقها هبة: «بنيسان بتصير الدنيا عروس وبيخفوا الغطا والملبوس».

ـ شو قصَّة العروس عند هالمسا، قال صالح.

ـ بمناسبة عرس رنا الأحد الجايي، ردَّت هيلانة.

تناول صالح صحن الفواكه من يد عفاف، ووضعه أمامه على الطاولة قائلًا:

ـ إن شاء الله ما منشوف إلَّا أعراس. بس والله يا جيران، نيسان بيبشّرش بالخير... رزق الله على أيَّام زمان. تغيَّرت الدنيا... الأرض صارت عنيدة.

ـ الأرض هي الأرض، ردَّ الأستاذ نبيل. مثل الأمّ تُعطي من دون حساب. ديرزوفا بسهولها وحقولها لا تبخل علينا بشيء. خيراتها لا تنضب...

ـ متل الأمّ صحيح يا أستاذنا، بس الأمّ بتزعل من أولادها لمَّا ما يسمعوش كلمتها... مش هيْك؟

ـ خير يا عمّ صالح...؟ سألت عفاف.

ـ شو عمّ صالح هيدي؟ حبيبتي... زوجي ششيخ الشباب.

لمحت بطرف عينها الأستاذ نبيل يداعب هبة كحيلةٍ أخرى من حيله حين يتظاهر بعدم الاكتراث لما يُقال.

ـ أكيد شيخ الشباب... ردَّت عفاف، ما في شكّ... بسّ احترامًا لمقامه ومعرفته.

ـ يلّلي ما بيقدِّر النعمة، النعمة بتنقلب عليه... ردّ صالح.

ـ «احفر أين شئت في الأرض تجد كنزًا، ولكنْ عليك أن تحفر بإيمان الفلَّاح». هذا القول لجبران خليل جبران. إذا فقد الفلَّاح إيمانه تحجم الأرض عن خيراتها.

رفع صالح عينيْه إلى الأستاذ نبيل وهو يقصف رمَّانةً بيديْه، وقال له:

ـ حلو... مزبوط... بس إيمان الفلَّاح الصحّ... الفلَّاحين يللي دايرين يحطُّوا كيماوي بالأرض. شو إيمانهم؟ بدهم يبيعوا سموم للناس؟ ما شفتش بحياتي حشرات بالسهل متل اليوم. بعرفش من وين طلعت... يا ربِّي تنجِّينا! هيدي حشرات

الطمع والعيون الفارغة يلّلي بتشبعش وبترضاش بالنعمة... الأرض بتفهمش؟ الأرض بتفهم وعندها حكمة. مش على كيفنا بتمشي... بدّك تفهمها وتحسّها وتنتبه لمَّا يتغيَّر لونها وتصير تكربج بين إيديك.. .مكتبة سُر مَن قرأ

صالح يحتدّ وشرايين عنقه تزيد انتفاخًا. وتعلو عينيْه عقدةٌ لم ترها هيلانة إلَّا وقت الحريق. شعرت بقلبها بين أصابعه التي تحضن قطعة الرمَّان، وتستعدّ لفرط حبَّاتها والتهامها دفعةً واحدة. أوراق شجرة التوت ترتعش على وقع كلماته، مثلها. لم تعد تسمع ردود عفاف ونبيل. أرادت العودة إلى البيت والاختلاء بعشقه الغاضب للأرض والخالي من السموم.

كادت أن تنهض عندما تقدَّم أحدهم من الدار وسمعت الأستاذ نبيل يدعوه للانضمام إلى الجلسة.

ـ بوفؤاد... جئت بالوقت المناسب، هتف الأستاذ نبيل. ابن أخيك صالح ضدّ الكيماويّ... ما رأيك أنت؟

ـ يا محلا الكيماويّ، ردَّ بوفؤاد وهو يجلس على حافَّة الحديقة... ما عرفتوش شو صار؟ بونايف تقاتل هو وجماعة من بقاع نبعا وتضاربوا وقامت القيامة لحتى نزلوا شباب البلديَّة وأخدوهم عند المختار، وهلَّق تركتهم عنده عم بيتصافوا.

ـ أيعقل ذلك؟ قال الأستاذ نبيل مفلتًا من يده عنقود عنب.

ـ مش أوَّل مرَّة، ردَّ صالح، بتتذكَّر السنة الماضية لمَّا قطعوا الميّ عن بساتيننا. كان رح يصير الدم للركب!

ـ هالمرَّة القصَّة أكبر من هيك، قال بوفؤاد، بدَّك

الدغري... أنا استحيت من أهل بقاع نبعا. لأوَّل مرَّة بيكون معهم حقّ... فارس واعدهم بخمس وعشرين صندوق تفَّاح. وين هالتفَّاحات يا فارس؟ يلَّا بكرا، يلَّلا بعدو... طلع فارس بايع التفَّاحات لنادية أضعاف السعر يلِّلي عرضوه، وجنّ جنونهم... وهجموا عليه هو عم بيقطف الخيارات. كسّرولوا الصناديق وكانوا رح يقتلوه لو ما تدخَّلوا الشباب.

ـ ما حدا بيطلع لأهلو إلَّا الغراب... الله يرحم بوفارس، ردَّ صالح كأنَّه يكلِّم نفسه.

ـ لنذهب ونتبيَّن الأمر... هتف الأستاذ نبيل، لا نريد أيَّ مشكلةٍ مع أهل بقاع نبعا، غدًا يقولون: المسيحي اعتدى على المسلم...

ـ بدَّك تروح إنت روح. أنا سحبت إيدي من فارس... الحكي معو متل دقّ الميّ.

ـ الأستاذ نبيل معو حقّ يا صالح... قال بوفؤاد، بلَّش الحكي يطلع إنُّو المسيحيين بدنُّش يبيعوا للإسلام.

ـ رح ياكلونا الإسلام... تمتمت عفاف.

نهض صالح فوقفت هيلانة. حملت هبة التي راحت تبكي لتنام عند عفاف. وكان لها ما أرادت.

تلك الليلة، لم ينم صالح كعادته. كان يتقلَّب في السرير، فتستيقظ هيلانة. عبارة عفاف ما زالت تطنّ في رأسها، وتستغرب: كيف سيأكلنا المسلمون؟ لا شكَّ أنَّ ظنّها هذا قادها إلى مراسلاتها السرِّيَّة مع أخ نبيل، وواضح أنَّها فشلت في إقناع

نبيل بالهجرة! استعادت حوارها معها في المطبخ. لماذا أخرب بيتي إذا أريتُ صالح الصورة؟ لكنَّ الليل مدَّها بشجاعةٍ غريبة لتقرِّر أنَّها ستُريه الصورة والسترة ذات الفراشة، وليكن ما يكون. لن تسوء حالها أكثر ممَّا هي الآن. أن تخشى الكلام خوفًا من عاهتها شيء، وأن تخشى مواجهة صالح بالكشف عن سرٍّ ورديَّة شيء آخر. هو الضعف بعينه. هذه المواجهة لا بدَّ منها، لتثبت لنفسها على الأقلِّ أنَّها تستحقّ ككلِّ الناس معرفة الحقيقة!

يوم السبت، أشعلت سخَّان الماء، فاليوم يستحمّ صالح. خبزت لثلاثة أيَّام، حلبت الأبقار، وأمَّنت رطليْن لأمّ عادل، ذبحت دجاجتيْن لتحشوهما. ونزلت إلى الحديقة لتجمع البقدونس، وتعدّ التبولة التي تعشقها فادية.

كان الأستاذ نبيل يسقي النعناع والورود التي زرعها في بقعةٍ جانبيَّةٍ من الحديقة. عندما رآها بادرها بالكلام:

ـ صباح الفلّ.

ـ صصصباح النور... عفاف بالبيت؟

ـ تزور أمّها... أين هبة؟

ـ نايمة...

ـ تركتها لوحدها؟! اصعدي وسأجلب لك ما تريدين.

ـ تتعذَّبش. . . دقايق وبيبطلع.

انحنت لتجمع ما يكفي من البقدونس وتعود. وجود هبة لوحدها في البيت، سيوفِّر عليها الأخذ والردّ مع الأستاذ نبيل. . . لكنَّها شعرت أنَّ ما تكتمه من كلام يردّ لها اعتبارها ويصون كبرياءها، يدفع بتلك الحشوة القطنيَّة من جديدٍ لتسدّ حنجرتها. كانت منحنيةً على البقدونس حين وقفت فجأةً، ونظرت إليه وأحسَّت أنَّ روحًا أخرى تسكنها وتتكلَّم بالنيابة عنها:

ـ كلّ يوم بفكِّر لو أنَّك تزوَّجت فادية! كنت رح تصير جارنا؟

بقيت تنظر إليه، على غير عادتها. كان جامدًا في مكانه. رأت ديرزوفا تدور حوله، وتتداخل بيوتها ووجوه أهلها، وخُيِّل إليها أنَّ القرية كلّها تسخر منه.

ـ كنت أتمنَّى مصاهرة عائلتك. . . ما الخطأ في ذلك؟

ـ ولا شي. . . بس ما كنتش عارفة.

ـ ما القصَّة يا هيلانة؟ لماذا تغيَّر سلوكك وكلامك معي؟ هل أذيتك بشيء؟ هل بدر منِّي ما أزعجك؟

نظرت إليه حائرةً في ما تقول. بدا لها بريئًا من كلِّ ذنب.

ـ أحيانًا الإنسان بيأذي بلا ما يقصد.

ـ صحيح. لكنْ قوليلي متى وكيف أذيتك؟

ـ بعرفش يا أستاذ نبيل. إنت بتعرف كتير منيح أأأأ. . . أهمِّيَّة الكككك. . . الكلام. ومرَّات كتير بحسَّك. . . بببـ. . . بتحكي بلا ما تفكِّر.

ـ لا أسمح لك أن تهينيني! أنا أستاذ اللغة العربيَّة. كلّ كلمةٍ تخرج منِّي بعدما أمحِّصها جيِّدًا لأضعها في مكانها المناسب.

ـ وهيدي المصيبة!

ـ لست أفهم مقصدك. إلى ماذا تلمِّحين؟

ـ أستاذ نبيل، كلامك المنمَّق مش دايمًا بمحلُّو. فهمت؟

ـ آسف إن كان الناس لا يفقهون اللغة ومضامينها!

ـ لا منفهم منيح. تخفش. عفاف كمان بتفهمش؟!

ـ اتركي عفاف الآن. قولي لي ما مشكلتك مع كلامي؟

ـ قلتلَّك. . . المفروض نتعلَّم منَّك أصول الحكي. مش ننأز من كلامك.

سمعت صوت هبة. صعدت الدرج ركضًا. دخلت تجمع أنفاسها كضمَّة البقدونس في يدها. شعرت بخفق أجنحتها. صحيح أنَّها هربت خوفًا من أن تغدرها التأتأة فاكتفت بما قالته، لكنَّها شعرت بالرضا. للمرَّة الأولى تقول تمامًا ما تشعر به. لم ترتِّب كلماتها مسبقًا. لم تحضِّر المرادفات. لطالما عرفت أن لا قيمة للحقيقة من دون صوتٍ يجاهر بها. والحقيقة، لا تتأتئ عندما تتحرَّر من الخوف. الخوف من خسارةٍ ما. خسارة تقديرٍ ما، حتى لو كان وهمًا. خسارة صورتها في عينيْه، حتى لو كانت زيفًا. خسارة ذكرى تعلَّقت بها فقط لنسيان مرحلةٍ آلمتها.

ضحكت باكية. ونظرت إلى ظلّها على أرض البيت.

طرْقٌ على الباب. صوت الأستاذ نبيل.

ـ هيلانة... أرجوك. طلّي. أريد أن أكلّمك.

ارتبكت. أطلّت أمامه على عتبة الباب. بدا لها يابسًا كرغيف. أخفض عينيْه، وقال:

ـ لم أتصوَّر في حياتي أن أكون في موقفٍ من هذا النوع! أريدك أن تفهمي لمرَّةٍ واحدة وأخيرة... أنا لم أقلِّل من احترامك ولم أتعمَّد إيذاءك. لا أعرف لماذا انقلبتِ ضدّي فجأةً! ماذا أخبرتك عفاف أو فادية؟... لكنّي لا أكنّ لك سوى كلّ محبَّةٍ واحترامٍ وتقدير. أنت تلميذتي وجارتي... وعلى كلّ حال، أعتذرُ إذا كان بدر منّي كلامٌ ضايقك... أتمنّى أن تراجعي نفسك وتتذكَّري «إنَّ بعض الظنّ إثم»...

حين اختلت بأختها على الشرفة أخبرتها بما حدث، واستغربت جوابها:

ـ المهمّ فشَّيتِ خلقك... بس ما تخربي علاقتك فيه. الزلمي عطول بيخدمكم وبيساعدكم. هلَّق كلامه بيوتِّر الأعصاب، ماشي الحال. تحمَّليه. كلّ العالم بتحكي طالع نازل. خفّفي حساسيّتك شوي.

لم تردّ. يستحيل على فادية أن تفهمها، وهي التي لا تقيم وزنًا لكلماتها قبل النطق بها.

وعندما سألتها إن كانت تودّ زيارة أمّ عادل، تأكّد لها أنَّ

أختها لن تتغيَّر: «دخيلك أختي... بلا بؤس... بدنا شي ونروّح عن نفسنا ونتسلى».

ـ أمّ عادل بؤس؟

ـ بؤس ونصّ... بعدين مش ناقصنا بالضيعة حكي.

ـ بس أنا بحسّ غير لمَّا فوت عبيتها. كأنَّه بترجعلي أيَّام زمان... أيَّام أمِّي... بتعرفي؟ أوقات بحسّ راسي متل نص بطِّيخة. ككك... كك.. كأنِّي ضيَّعت النصّ التاني... كتير بدِّي أتذكَّر يا فادية... طفولتي... فريد... أمِّي... أوقات بشوف بيّ بخيالي.. بتذكَّره بببب.. ببذلة الد.. الد... الدرك... بتذكَّره عم بيعمل قهوة... كككك... كك.. كان يقَّعدني بحضنه... ببب... بتت... بتذكَّر حتى صوت القهوة وهو عم بيشربها... لمحات... وووو... ومضات... كأنَّه حبل وانقطع... وأنا بالنصّ... ريِّحيني وقولي لي ليش بتأتئ؟

نظرة فادية التي ابتعدت لتمتدّ على طول السهل، أعطتها الأمل بأنَّها تستعدّ لتقول كلّ شيء. لعلَّها تفكِّر من أين تبدأ. بقيت تحدِّق بها، وتترصَّد لحظة ينطلق الكلام من فمها كمن يرصد ثعلبًا سيطلّ برأسه من وراء شجرة. فجأةً، سمعت حوافر البغلة تقترب. وصل صالح. انقطع الحبل من جديد.

صباح الأحد، شعرت أنَّ اليوم عرسها هي، وليس عرس رنا. لا بأس أن تتعلَّق بذراع صالح كشمسيَّة، وتنثر البنفسج في ديرزوفا. كم تشتهي أن تراها عيناه في ذلك الفستان! سيلبس

القميص الأزرق الذي خاطته إلماز. كان معلَّقًا في الخزانة بين قمصانه المهترئة كما تُعلَّق التمائم. ما تحلم به، هو أن ترى صورةً أجمل لها في عيون الناس. ستمشي إلى الكنيسة، وستشعر بنشوةٍ حُرمت منها طوال عمرها. نشوة الاعتزاز بنفسها، نشوة كبرياءٍ ضمَّد بعض جراحه.

دقَّت أجراس الكنيسة بعد الظهر إيذانًا باقتراب الموعد. نظر صالح إلى هيلانة: «رح يضيعوا الناس مين العروس». اقتربت منه، وقبَّلته على خدِّه فرِحة بالإطراء، وهمست له: «شيخ الشباب بقميص بيجنِّن». تمدَّد شاربه على كامل وجهه. وسرعان ما تلاشى. لحقت هيلانة عينيْه المذهولتيْن. انخطف من أمامها ليمسك بذراع هبة مردِّدًا:

ـ من وين جبتيها هيدي؟ احكي؟ من وين؟

ـ أنا لبَّستها إيَّاها... ردَّت وهي تقف خلفه. كانت تقاوم خوفها لترى أين سيصل به الغضب. لم تخف على هبة التي انهمرت دموعها على خدَّيْها.

ـ فوتي شلِّحيها إيَّاها هلَّق وبسرعة.

فتح زرّ قميصه كأنَّه يشرِّع نوافذ البيت كلّها دفعةً واحدة. وجهه بلون النبيذ. ألبست هبة فستانًا، وطلبت منها أن تسبقها إلى ساحة الدار، ووقفت قرب صالح على الشرفة:

ـ لقيتها بخزانة مراة عمِّي... ججبرتها على هبة... ططلعت حلوة عليها... هيك ببتبقى ذكراها بالبيت.

ـ قلتلك وقِّفي نبش بالماضي... بعدين مش مفروض تاخدي إذني؟

ـ معك حقّ... بس كان بدِّي إيَّاك تفرح. وكمان لقيت صورة إلها... مع بوصالح وأمّ صالح.

لم يردّ. أقفل زرّ قميصه ونزل الدرج. عندما لحقت به، كان نبيل في سيَّارته ينتظر عفاف. لم تعرف إذا كان يتأمَّلها وهي تتقدَّم صوبه مع صالح! أشاحت بنظرها عنه وانشغلت بهبة. عندما اقتربوا من سيَّارته، لمحت سيَّارة فادية تصل الزقاق. تركت صالح يتحدَّث مع نبيل، عبرت هامسةً تحيَّةً مقتضبة، وأسرعت مع ابنتها للصعود في سيَّارة أختها. ركبت في الخلف إلى جانب ولديْ فادية، ووضعت هبة في حضنها.

ـ ما علّقتيش على فستاني!

ـ بالي مشغول أختي... لازم إنزل اليوم على بيروت. الوضع مش تمام.

ـ شو القصَّة؟

ـ ما سمعتوا الأخبار؟ محاولة اغتيال بيار الجميل...

ـ ما سمعتش راديو اليوم ردَّت، متسائلةً عن سبب توتُّر أختها، لكنَّها انشغلت أكثر بما يدور بين صالح والأستاذ نبيل.

ـ وبوسطة للفلسطينيِّين درزوها بالرصاص بعين الرمَّانة... ونحن بيتنا بفرن الشبَّاك، يعني متل أوَّل ديرزوفا وآخرها.

ـ كيف يعني؟ راح قتلى؟

ـ هيدا همّك؟

صعد صالح في السيَّارة فيما هي تتكلَّم.

ـ اتطمنتي على إبراهيم؟ سألها.

ـ مرقت على السنترال، الخطوط مقطوعة... كنت عم بقول لهيلانة رح انزل بعد العرس عَ بيروت.

ـ ما بنصحك... خلِّيكِ كم يوم لنفهم شو القصَّة.

ـ مش رح يسكتوا الفلسطينيِّي، قالت هيلانة... هيدي جريمة!

ـ الجريمة وجودهم بلبنان.

ـ مش بخاطرهم... بلدهم محتلّ.

ـ مبلى بخاطرهم، إجوا ليخرّبوا لبنان بس. أجابتها فادية مقاطعة...

ـ أكيد الكتائب إيدهم بالقصَّة... بيكرهوا الفلسطينيين. صحّ صالح؟

ـ أختي... من أيمتى بتفهمي بالسياسة؟ الله يخلِّيكِ. وفِّري علينا تحليلاتك...

ـ هيلانة معها حقّ... ردَّ صالح... طول عمرهم بيكرهوا الفلسطينيّي... ومحاولة الاغتيال اليوم حجَّة قويَّة ليقضوا عليهم. الله يستر!

ـ لا والله يا صهري... إنتو هون عايشين بغير عالم... هيدي مش قصَّة بين ديرزوفا وبقاع نبعا.

بعصبيَّةٍ، أوقفت فادية السيَّارة عندما وصلوا الكنيسة، ونزلت

منها. فتحت الباب الخلفيّ وأمرت ولديْها بالنزول. فتحت هيلانة الباب ونزلت من الجهة المقابلة مع هبة. اقتربت من صالح، وهمست له:

ـ شو بها دخلك فقدت أعصابها؟

ـ إنت ناسية إنو إبراهيم مع الكتائب؟ قولي الله يستر... يلّلا لنشوف بهالعرس لمين القرص!

كانت تصعد درج الكنيسة مع صالح وهبة عندما خطفتها أفكارها إلى إبراهيم. لم تشعر يومًا بارتياحٍ في حضوره. شيءٌ ما في هذا الرجل يُبقيها على مسافةٍ منه. هل لأنَّه لا يُبدي أيّ تعلُّقٍ بقريته؟ يزورها كغريبٍ أو سائح؟ هل لأنَّه يتجادل دائمًا مع فريد وينتهي النقاش بفقدانه لأعصابه، فيتدخَّل صالح لينهي الجدل؟ هل لأنَّه يترك فادية تقول ما يحلو لها من غير وازع؟ أم لأنَّه يزور الأخ ألبير؟ في قرارة نفسها خافت عليه... وخافت أكثر على مصير فادية إن حدث له أيّ مكروه.

كان صالح قد ابتعد عنها خطواتٍ ليحيِّي بعض الرجال. حاولت أن تقرأ في ملامحه بقايا غضبٍ أو ذكرى. لو كان قاتلًا لانفعل أكثر عندما شاهد سترةورديَّة، وعرف عن الصورة. هجمت عليها امرأتان. قبّلتاها وهي واقفةٌ كلوحة. كانت النسوة أمام باب الكنيسة يرمقن كلّ شخصٍ من رأسه حتى قدميْه. في الأعراس كما في المآتم، قالت في سرِّها، النميمة نفسها. لكنَّ ألوان الفساتين ـ بعكس لون الحِداد ـ تساعد على التمييز بين النسوة الأكثر تطفُّلًا من سواهنَّ.

على غير عادتها، كانت فادية صامتة، لا تضحك، لا تساير، لا تقذف تعليقاتها الساخرة. تأخَّرت العروس. لا أحد يتململ. الجميع يتسامرون. البعض في السياسة وآخرون في شؤون البساتين. تتعالى ضحكات الأطفال في باحة الكنيسة، بعضهم يتسابق على الزحلقة واختراق الجموع، آخرون يرمقون الفتيات الخائفات من أيِّ حركةٍ تفسد فساتينهنّ. بدأت الهمسات تعلو والكلّ يسأل، أين العروس؟ هل ستأتي على فرسٍ بعد جولةٍ في محيط القرية قبل الصعود إلى الكنيسة؟ أم أنَّها تنتظر سيَّارة مستأجرةٍ لم تصل بعد لسببٍ ما؟ العريس يتعرَّق، مُحاطًا بالإشبين وأقربائه، ينظر إلى ساعته كلّ دقيقة. علا صراخٌ فجأةً، وسُمعت جلبة في محيط الكنيسة. وصل رجلان مع والد رنا، واتَّجهوا صوب العريس. وجوههم واجمة.

أمطرهم المدعوُّون بالأسئلة عن العروس وسبب التأخير. انسحبوا مع العريس إلى زاويةٍ من الباحة. العيون كلّها تترقَّبهم. فادية تتململ.

ـ يا مستعجل وقف تقلّك، قالت بصوتٍ عالٍ.

ـ طوِّلي بالك أختي... أكيد صار شي مع العروس.

ـ يقصف عمري. ما كان لازم إسمع منَّك وأجي على هالعرس. كأنَّ رنا بنت عمِّي! تتزوَّج أو تعنِّس شو دخلني أنا؟

ـ فيكِ تفلِّي... مش مضطرَّة! ردَّت هيلانة وهي متأكِّدة أنَّ فادية لن تفوِّت العرس لو اشتعلت كلّ بيروت!

صالح يقف مع بعض الرجال محاولًا فهم ما يجري. لمحت

الأستاذ نبيل يرمقها. التفتت إلى الجهة الأخرى وهي تفكِّر كيف ستكون علاقتها بجيرانها بعد ما حصل. علت أصوات. العريس يتشاجر مع والد رنا والرجليْن. هجم رجال القرية لفضّ الاشتباك. أكتافٌ تتضارب. أيادٍ تتلاكم. صدورٌ منتفخةٌ ووجوهٌ بلون الدم. صالح ينسلّ بينهم، نحوله يسعفه في التسرُّب بين الحشد. يمسك بذراع العريس، يسحبه من المعركة، ويقف أمامه في مواجهة المجموعة الأخرى.

ـ أهل ببعضنا ولو؟! صرخ بهم. شو في؟ وين العروس؟

ارتبك الأب... رتَّب قميصه وسترته، وزفر أنفاسه مقرِّرًا مواجهة أهل القرية الذين وقفوا مشدوهين أمام مشهدٍ لم يرونه من قبل.

ـ منعتذر من الجميع... قال. فش عرس. شكرًا لحضوركم...

واستدار ليعود من حيث أتى وسط بلبلةٍ راحت تتزايد. لحظة سماعها بإلغاء العرس، انسحبت فادية مع ولديْها واعدةً أختها بطمأنتها عبر الهاتف حالما تصل إلى بيروت. وقفت هيلانة حائرةً بنفسها. فكَّرت أنْ تمشي مع ابنتها إلى البيت. لم تستطع أن ترى صالح لتتَّفق معه على القرار الأنسب. تغادر أم تنتظره؟ لماذا أُلغي العرس في اللحظة الأخيرة؟ الكلّ يتساءل، لماذا دبَّ الخلاف بين الأب والعريس؟ بالأمس، كانت السهرة عامرة في المنزليْن، والبعض اشتكى من صوت الموسيقى التي لم تهدأ حتى منتصف الليل. وبدل أن تتفرَّق الجموع ويعود كلٌّ إلى بيته، تجمهرت

النساء وتحلَّق الرجال، وراح كلٌّ واحدٍ يدلي بتكهُّناته.

مشت هيلانة باتِّجاه درج الكنيسة ممسكةً بيد هبة. وقفت تتأمَّل ما يجري. كلّ هؤلاء كانوا في عيد السيِّدة يدبكون ويغنُّون ويتسامرون. لمحت أمّ فارس تنزل الدرج مغادرةً. اقتربت منها لتساعدها.

ـ يا حبيبتي... أحسن شي عملتيه. بلا هالفوضى والشوشرة.

ـ شو صار؟ سألتها هيلانة.

ـ بيقولوا هربت العروس.

ـ هربت؟ لوين؟

اقتربت منها أمّ فارس، وهمست:

ـ كانت تحبّ شبّ مسلم... هيك سمعت. بيقولوا خطفها قبل العرس بنصّ ساعة. والله كان الفار يلعب بعبِّي، لمَّا عرفت إنَّها خطبت؛ قلت لأمّ بيار هيدي البنت مش لهالشبّ... هو مهذَّب وخجول بس هي... يا ربِّي تنجِّينا!! يلَّلا خلِّيني روح يا بنتي... تعبت. باقية هون حبيبتي؟

ـ بعرفش، بدِّي شوف صالح... الله معك.

ـ العذرا مريم تكون معك. يخلِّيلي هالوجّ الحلو. تسلميلي ما أحلاكِ. بخاطرك يا عمري...

رفعت هيلانة يدها محيِّيةً أمّ فارس، والتفتت من جديد إلى باحة الكنيسة تبحث عن صالح. وإذا به يومئ لها بالذهاب إلى البيت. وكسجينٍ أُخلي سبيله، أدارت هيلانة ظهرها للجمع

وراحت تمشي مستعجلةً الوصول إلى بيتها، لتصغي إلى أخبار بيروت عبر الراديو. لكنَّ هروب رنا يشغلها.. كانت متأكِّدةً أنَّ الألسن ستلوك قصَّتها إلى أن تقع حادثةٌ أخرى فتشغل مكانها على ألسنتهم، كمن يستبدل حبَّة سكاكر بأخرى ذات طعم مختلف. تذكَّرت هيئة رنا بحمرتها البرتقاليَّة. لم يخب ظنّها بها. لكنَّها لم تتوقَّع أن تعود إلى شابٍّ تحدَّثت عنه بمنتهى الجفاء. أقوال الناس لا تطابق أفعالهم، وأفعالهم تناقض نواياهم ـ قالت لنفسها. تذكَّرت إطراء صالح لها. فرحت لأنَّه أحبَّها بالفستان البنفسجيّ. لكنْ ماذا لو كان مثل أهل ديرزوفا، يقول عكس ما يفعل، ويفعل عكس ما يقصد؟ ماذا لو كانت شكوك فريد في محلِّها؟ كيف لها أن تعرف إذا كان هو من أحرق ورديَّة؟

* * *

هروب رنا أطلق شرارة صراعٍ دامٍ بين ديرزوفا وبقاع نبعا. منذ ذلك اليوم المشؤوم من نيسانٍ، لمْ يرها أحد، ولم يظهر أيّ أثرٍ «لخاطفها المسلم»، كأنَّ جنِّيَّةً أخفتهما، وأفلتت عصاها لتُشعل عداءً بين العائلتيْن سرعان ما شمل القريتيْن، ليتمظهر في حرق الحقول وإتلاف المزروعات...

أمَّا في بيروت، فاشتعلت صراعاتٌ أكبر.. أُغلقت الطرق، وساد صوت الرصاص في الأحياء. حكاية البوسطة تفاعلت... وأفرغت أحقادًا دفينة، وولَّدت أحقادًا جديدة.

صالح لم يهدأ منذ ذلك اليوم. بعد مجيئه من الحقل، كان يغتسل ويتعشَّى ويُسرع إلى بيت المختار. هناك يتجمَّع الرجال

بحثًا عن حلٍّ بين العائلتيْن. منه عرفت هيلانة أنَّ أهل الشابّ في بقاع نبعا لا علم لهم بما فعل ابنهم ويتبرَّأون منه، واعدين أهل رنا بإبلاغهم عن أيِّ خبرٍ يصلهم منه، لكنَّهم اتَّهموا رنا بالتلاعب بعواطف ابنهم... النفوس لم تهدأ والحرائق لم تتوقَّف في الحقول بانتظار أن تنجلي الحقيقة.

ـ البنت يلِّلي ما بتفكِّر أبعد من منخارها ألله لا يردّها. بدها حرق، قال لها صالح ذات مساء وهما في السرير يستعدَّان للنوم.

ـ صالح.... مين بتقصد؟

ـ كلّ بنت بلا مخّ... مصيبة.

ـ ورديَّة كانت بلا مخّ؟

ـ آآآخ منك آخ! مش رح توقّفي؟ وردِيَّة طفلة... مش بنت.

ـ شو طفلة؟ أنا كنت بعمرها تقريبًا لمَّا تزوَّجتني.

ـ إنتِ أكبر من عمرك...

ـ إذًا خبِّرني... ريِّحني. شو صرلها ورديَّة؟ يا صالح عايشة معك كلّ هذا العمر وما بتخبّرني عن أختك الوحيدة! ما بتوثق فيِّي؟

ـ قلَّة الحكي بتبرِّد الجمر... نار الدنيا ما بتحرق ذكراها بقلبي.

ـ ما في إلَّا الحكي بيريِّح، اسألني أنا... وأخرجت الصورة من عبّها، وأعطته إيَّاها قائلة: كانت حلوة كتير.

حين أمسك الصورة، ترنَّح بوصالح وأمّ صالح من مكانيْهما،

وكادت وردِيَّة تهوي عن الكرسيّ... عجزه عن إحكام قبضته على هذه الورقة الرقيقة من ماضيه، يشي بعمرٍ أفلت منه على غفلة. قال وهو شارد العينيْن:

ـ طفلة... ما لحقَّتش تكبر! كانت تحبّ الأرض والفلاحة. تحكي مع الفراشات. وسمَّت البغلة عبلة... شو ما مسكت بإيديها بيصير أخضر. هي زرعت البقدونسات والنعنعات بالجنينة. كانت تآمن أنّه يسوع بيستجيب لصلواتها بالمطر والثلج.... ما مرضتش ولا يوم. كانت تختفي. نلاقيها بالجنينة عم تراقب النمل... بتاكلش إلَّا فواكه. بتكتب رسايل للقمر... موجودة وغايبة... ما حبّتش المدرسة. تطلع عالسطح وتضلّ فوق طول النهار، وترجع لما تخلص المدرسة. عفشتها أمّ صالح هونيك يوم، وضربتها. ضربتها كتير... ما بكيتش. بس من يومها صارت غريبة.

ـ كيف غريبة؟

ـ منحكيها ما بتردِّش... بتطلَّع عالسطح. وأوقات بتروح عند مريم وتضلّ عندها كلّ النهار.

ـ حتى معك ما كانتش تحكي؟ ويوم أخدتها عالحقل؟

ـ أخدتها بركي بترجع متل ما كانت... تضحك وتلعب وتغنِّي للعصافير، وتخبِّر الشجر حكايات عجيبة... بس وردِيَّة بطَّلت وردِيَّة. قعدت عالأرض ساعات وما تحرَّكتش... غلبت فيها.. احكي.. كلي... غنِّي... اقطفي معي التينات... أبدًا كأنَّها صنم... تركتها لأفلح الأرض ودير الميّ... غفلتني...

ـ ولَّعت النار بحالها؟ انتحرت؟

ـ . . .

ـ ما قدرتش تخلّصها؟

ـ ما خطرش ببالي إنَّها رح تجنّ. . . والنار غدرتني.

ـ صالح. . . حبيبي. . . من وين بدَّك تعرف.

عاد ينظر إلى الصورة.

ـ البلوزة كانت حلوة على هبة. . . . يوم لبستها ورديَّة، أخدتها معي عل كنيسة.

ردّ لها الصورة. نهض وخرج من الغرفة. سمعته يدخل الحمَّام. ضمَّت الصورة إلى صدرها. «الله يرحمك»، تمتمت. «فش أسهل من تلفيق الكلام. كنتِ تحكي مع القمر وتسكتي مع الناس لحتى فهموك غلط».

* * *

ـ كيفك فادية؟ شو أخباركم؟

ـ زفت...

ـ كيف إبراهيم والأولاد؟

ـ ما منعرف شي عنه... الأولاد رح يجلطوني.

ـ ما فيكن تجوا لهون؟

ـ صوت الرصاص مش عم بيوقف، أختي... قنص من حيّ لحيّ.

ـ بدِّك شي؟ عايزة شي؟

ـ وإذا بدِّي، بتبعتيه بالبوسطة؟ مش قادرة تفهمي شو صاير فينا هون!؟

ـ ففهامة... بببعرف إنُّو بوسطة الضيعة مش عم تنزل عبيروت. وبببعرف إنَّك متوتِّرة بس فش لزوم تتمسخري! كككنت

عم ببيتطمَّن عليكِ. . . انتبهي لحالك ع الأولاد. ببخاطرك.

ـ بسيطة حبيبتي، قالت عفاف. وضعهم صعب. تزعليش منها.

ـ فشّ كلمة متل الخلق بتقولها. كلّ كلمة رصاصة. . .

ـ شو بدِّك تغيِّري بإنسان مصدِّق إنُّه العلَّة دايمًا بغيره، مش فيه!

ـ صعب يقبل حدا إنَّه عنده علَّة، همست هيلانة.

ـ حسب شو العلَّة. . . في عيوب بتخلق معنا وعيوب منخلقها فينا. هيدا نبيل وصل. . . وفريد معو. . . خير إن شا الله.

ـ عرفتوا شي عن رنا؟ سألت عفاف.

ـ كان ناقصنا قصَّة رنا! ردَّ فريد.

ـ المختار ورئيس البلديَّة يعملان على تطويق الأزمة بين العائلتيْن. . . قال نبيل.

ـ معقول هالفصل يللي عملته؟ بكرا بيطلِّقها وبيرجِّعها عند أهلها. الإسلام هيك. . . بتفرقش معهم.

ـ عفاف. . . مع احترامي إلك، ممكن تروح خطيفة مع مسيحي ويطلع ابن حرام. شو خصّ؟

ـ لأ خصّ، أجابت عفاف. . . يلِّلي بياخد من ملّة غير ملّته بيوقع بعلّة غير علّته.

ـ يعني بدِّك تقوليلي ما شا الله عنَّا كلّ المتزوِّجين عايشين

بهناء وثبات؟ عنَّا مَصايب بالضيعة، وفهمك كفاية.

ـ أؤيِّد كلام فريد، ردَّ نبيل عابسًا في وجه عفاف. للأسف «هذا هو الإنسان، يشكو من حذائه والعلَّة في قدمه».

ـ صالح بيقول دايمًا «دود الخلّ منُّه وفيه». ردَّت هيلانة ووقفت لتغادر هامسة لأخيها أن يلحق بها.

* * *

أعدَّت لفريد فطورًا سريعًا، وتحمَّست لتُخبره حقيقة ما جرى لورديَّة. لكنَّه بدا مشتَّتًا وعلى عجلة من أمره. قبَّلها على جبينها، ولاعب هبة قبل أن يضع في يد هيلانة مفتاح بيته قائلًا: «إذا ما جيت بعد شهر، اهتمِّي بالبيت». وغاب تاركًا إيَّاها في قلقٍ وتوجُّس. حين شاركت صالح مخاوفها، كان ردُّه: «فريد قبضاي. تخافيش عليه».

ـ وين قولك راح؟

ـ راح يعمل واجبه.

ـ راح يحارب؟ يا دلِّلي أنا. . .

ـ إذا هو بدُّوش يحارب يبقى فش أمل بالبلد.

ـ يعني نزل عَ بيروت؟

ـ تخافيش. . . المهمّ الحرب ما تتوسَّعش.

ـ قولك الكتائب معقول يعملوا شي للضيعة؟

ـ كلّ شيء معقول. . . لنشوف شو بيقول رئيس البلديَّة والمختار اليوم. نامي، تنطرينيش.

لم تسهر على الشرفة بانتظار أن يعود. كان الجوّ باردًا وصوت التلفاز عند عفاف يشوِّش عليها أفكارها. جلست في الغرفة الشتويَّة، تستمع إلى الراديو. كان الصوت يتقطَّع فأطفأته. فكَّرت بفريد، وتذكَّرت ما قاله مرَّةً عن إبراهيم الذي يختلف معه «للعظم» في السياسة. كلّ منهما قرَّر الدفاع عن وطنٍ على قياس حزبه. خافت وفرحت في آن. بغياب فريد، شعرت برابطٍ أقوى يشدّها إليه. أحسَّت بالفخر، لأنَّه على عكس ما تصوَّرت طوال السنوات الماضية. تلك الرصاصة الطائشة التي قتلت صديق طفولته، لم تقتل فيه إرادة الحياة. ربَّما، قرَّر أن ينتمي لقضيَّة حقّ بعد تلك الحادثة!

عاد صالح. نهضت لملاقاته. بدا مرهقًا. لكنَّها لن تدعه ينام قبل أن يطمئنها ويحكي لها تفاصيل اللقاء في بيت رئيس البلديَّة. اختصر قدر الإمكان لتتركه ينام. قال لها إنَّ لجانًا شعبيَّةً ستتشكَّل لدعم القرى والحرص على السلم بينها. تحمَّست للانضمام إلى تلك اللجان. شجَّعها على الاهتمام بالأمَّهات القلقات على مصير أبنائهنَّ في بيروت. «إنت شاطرة بتهداية الخواطر»، قال لها قبل أن يغفو ويحثّها على النوم، لأنَّ غدًا يوم البيطرة.

كانت قد نسيت تمامًا ذلك الموعد. لم تخبز في الصباح. حلبت الأبقار، وشطفت الدار بمساعدة عفاف. اليوم ستحتلّ البغال والأبقار الساحة، ليكشف عليها بيطريٌّ آخر بغياب فريد. لم تنسَ ما حصل في العام الماضي، عندما علت أصوات الرجال، وكادوا أن يتعاركوا لولا تدخُّل صالح وفضّ الاشتباك. كلّ واحدٍ أراد من البيطريّ أن يبدأ ببغلته، فيقصّ حوافرها

ويتفحَّصها قبل أيَّة بغلةٍ أخرى. عندما جلست مع عفاف في استراحةٍ قصيرةٍ قبل الموعد، هيَّأتها لليوم الكبير الذي يتجمَّع فيه الذباب والبرغش، وسط روائح لن تنساها في حياتها. حاولت أن تنقل لها ما سيجري من مزايدات بين الرجال: «بغلتي أحسن من بغلتك»، «بغلتي صحَّة وشباب»، «بغلتك كسلانة ومايعة». . . فرحت بقدرتها على إضحاك عفاف. للمرَّة الأولى، تحسن رواية الطرائف. تدرّبها الطويل على تقليد أصوات المذيعين أثمر أخيرًا في تمكُّنها من تقمُّص شخصيَّة بومليْح، وسليم حنان، وجريس المكاري. . . وعندما وصلت إلى تقليد صالح، لم تقوَ عفاف على تمالك نفسها من الضحك حتى تشردقت وانتابها سعالٌ استوجب التوقُّف عن رواية النوادر ومواصلة تحضير الساحة لمسرحيَّة يوم البيطرة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ «الله يعطينا خير هالضحكات»، قالت لها عفاف بعدما انتهى يوم البيطرة ونظَّفتا معًا رواسب الروث، وجلستا تحتسيان القهوة.

ـ ععععفاف... لازم أترك هبة معك ببكرا... ساعتين مش أكثر.

ـ بتعرفي إنُّو فش لزوم تسألي... هبة بحطّها بقلبي. بس وين رايحة بلا حشريَّة يعني؟

ـ صصـ... صالح طلب منّي زور أأأمّ يوسف وأمّ بيار. اتطمَّن على أحوالن بغياب اولادن.

ـ حلو...

شعرت هيلانة أنَّ عفاف شاردة. فعندما تعلِّق بكلمة «حلو»، هذا يعني أنَّ أشياءَ أخرى تشغل تفكيرها.

ـ زعلتِ من فريد أو من الأستاذ مبارح؟ سألتها.

ـ بيفكُّروا إنُّو النسوان بيفهموش! إنُّو بشرفك من وين عم تجي المصايب علينا إلَّا من أهل بقاع نبعا؟! على رأي المثل: رضينا بالخرا والخرا ما رضي فينا.

ـ ولي. . . منيح يلِّلي الأستاذ مش هون.

ـ إذا قلتها بالفصحى ما عنده مشكلة. كأنَّه الخرا بتتغيَّر ريحته.

ـ إنتِ اليوم فظيعة! ولا أهضم من هيك!

ـ عاملة متل التلاميذ لمَّا يطلع الإستاذ من الصفِّ.

وكعادتها، قلبت الفنجان استعدادًا «للتبصير»، ثم التفتت إلى هيلانة وسألتها:

ـ قدِّيش بيتمسخروا عليه لنبيل بالمدرسة؟ بتتذكَّري؟

ـ أنا ما كنتش أتمسخر. . . بالعكس.

ـ انتِ حالة خاصَّة. . .

ـ شو قصدك؟

ـ والله يا هيلانة بعد البحث والتدقيق، تبيَّن أنَّه مش مهمّ كيف منحكي، المهمّ شو منقول.

ـ بتقولي هيك. . . لأن بتعرفيش قدِّيش صعب واحد يقول تمامًا يللِّي بيفكِّر فيه.

ـ إنُّه فكرك يللِّي بيحكوا منيح. . . كلامهم صحّ؟ على رأي أمّ صالح الله يرحمها: «خدي الفارس وما تاخديش الدارس».

لا شيء سوى إلحاح هبة على طلب «سندويشة لبنة»، استطاع أن يوقف عفاف عن الكلام. تركتها هيلانة مطمئنَّةً، وخرجت قاصدة بيت أمّ بيار. حملت معها كيسًا من الخضار الطازجة وعبرت الساحة لتدخل زقاقًا يفضي إلى بيوت عائلة بوخاطر. سمعت الكثير عن هذه العائلة التي يتزوَّج أفرادها من بعضهم بعضًا، كأنَّهم أقلِّيَّة تخاف على تاريخها من الاندثار! تذكَّرت كيف كانت أمّ صالح تنام أكثر من ساعة بعد زيارة أمّ بيار لها. سمعتها مرارًا تقول: «يبعتلها حمّى... هالمراة بتصيب بالعين. مدري شو بيصرلي لمَّا تجي... كأنَّها بتخدِّرني..». اطمأنَّت أنَّ أمَّ بيار ستتولَّى الكلام كلّه. أمَّا هي، فستقوم بواجبها في السؤال عن أحوالها واحتياجاتها بغياب بيار.

لمحتها تشطف الدار، تحرِّك المكنسة في يدها بضرباتٍ منتظمة، كأنَّها تطرد مع الأوساخ أفكارًا سوداء تخطر في بالها... «العوافي» هتفتْ لها. ردَّت عليها أمّ بيار وهي تكمل عملها، فهذه الكلمة يقولها كلّ عابرٍ من غير أن يكون قاصدًا زيارتها. وحين سألتها هيلانة: «بتستقبليني عالقهوة؟» توقَّفت عمَّا تفعله، ورحَّبت بها:

ـ تواخذنيش ما عرفتش صوتك... يا حبيبتي فوتي فوتي... خلصت.

دخلت معها إلى البيت. صوت الراديو يصدح بأغنية «بحبك يا لبنان»... سارعت أمّ بيار لتطفئه وهي تقول بحسرة: «بتسأل شو بني... وشو يلِّلي ما بني..».

ـ اتطمنَّتِ على بيار؟

ـ آآآخ. . . من وين بدّي أتطمَّن! لا في تلفون ولا في شحار. ما غمضتش عيني من يوم ما راح. . . قلتله يا ابني كلّ عمرنا نمشي مع الحيط طالبين الستر. لوين رايح؟ الإيد ما فيك ليها، بوسها وادعيلها بالكسر. . . أبدًا. . . شمَّر عن زنوده وحمل سلاحه وفلّ. وهيداك وجّ الضيف. . . لا حسّ ولا خبر. . . الله يقصف عمرن.

لم تعرف هيلانة من تقصد بهذا الدعاء، ولم تشأ الاسترسال أكثر. . . ستقضي مهمَّتها وتمضي، كما أوصاها صالح: «تهدئة الخواطر». لكنْ عندما ردَّدت أمّ بيار الدعاء نفسه أكثر من مرَّة، شعرت باستفزازٍ ذكَّرها بأثر كلمات فادية، فسألتها:

ـ يقصف عمر مين؟

ـ هالفلسطينيّي. . منين إجونا؟ شو بدّن بربَّنا؟

ـ ولو يا أمّ بيار. . . هودي ناس متلنا متلن. فكرك بدُّنش يرجعوا ع بلدن؟

ـ متلنا متلن؟ لا يا عيني. . . أبدًا. . . وين نحن ووين هنِّي؟ قال متلنا متلن قال. . . أنت زغيرة وبتعرفيش بهالقصص.

ـ وأنت عقلك أكبر من هيك يا أمّ بيار. . . ردَّت هيلانة بحدَّة استغربتها هي نفسها.

زفرت أمّ بيار أنفاسها، والتفتت إلى الكيس الذي تحمله هيلانة وسألتها: «شو معذِّبة حالك؟»

ـ شويَّة خضرا. . . فشّ شي مهمّ. وناولتها الكيس، ووقفت لتغادر.

ـ لوين؟ بدكّيش قهوة؟

ـ لا. . . بدّي سلامتك. حبّيت اتطمَّن عليكِ. . . إإإذا عايزة شي بغياب ببيار.

ـ إيه، ألله يسلِّم عمرك حبيبتي. . . دخلك؟ سمعتِ شي عن هالمقصوفة العمر رنا؟ صالح خبَّرك شي؟

ـ لا. . .

ـ من وين بدها تجي راحة البال؟ بشو بدنا نفكِّر؟ قليلة هالفصل يللي عملته؟ يا عيب الشوم عليها! شباب الضيعة بيسووش؟ شو علَّقها بهالمقصوف الرقبة؟

دنت منها هيلانة وربَّتت على كتفها. «خلّيكي بهمِّك. . . ويا ربّ تتطمَّني على بيار قريبًا. . . بخاطرك».

خرجت قبل أن تسمع ردّ أمّ بيار التي بقيت واقفةً من دون حراك. لم تفهم المشاعر التي انتابتها في تلك اللحظة. تشفق على أمّ بيار، وتزدري ما قالته في الوقت نفسه. كيف لأمٍّ لا علم لها إذا كان ابنها حيًّا أم ميّتًا، أن تنشغل بقصَّة عروسٍ هاربة!؟ أهكذا يتعامل الناس مع مخاوفهم، فيجدون في سِيَر الآخرين مواساةً لهم؟ ومن أين يتغذَّى هذا الحقد على الفلسطينيِّين والمسلمين في ديرزوفا؟ كيف لامرأةٍ مثل أمّ بيار، لم تدخل المدرسة ولم تخرج من حدود قريتها أن تميِّز بين شعبٍ وآخر؟ هيلانة واثقة من أنَّ أمّ بيار لم ترَ فلسطينيًّا في حياتها. . . «الإنسان عدوّ ما يجهل» على رأي فريد، ردَّدت وهي تمشي في القرية وتحيِّي المارَّة من دون تمييزهم. لن تزور أمّ بيار مرَّةً

أخرى. ستُخبر صالح بما حصل. لو كان لديها بعض الوقت لمرَّت على أمّ عادل، وتزوَّدت ببعض الحكمة من وعي تلك «المرأة ـ الجبل». لا شكَّ أنَّ أمّ عادل لديها رأيٌ مغاير بما يحدث في بيروت، وسيرة رنا سيكون لها تفسيرٌ آخر. . .

* * *

السابعة والنصف مساءً. هيلانة تخرج إلى الشرفة كلّ عشر دقائق. من عادة صالح أن يصل قبل نزول العتم. ما الذي أخَّره اليوم؟ نزلت مع هبة عند عفاف. رأت نبيل يتعارك مع التلفزيون، يضرب بكفِّه على كلِّ جوانبه الخشبيَّة، صورٌ مشوَّشة تظهر وتختفي، ونبيل مستمرٌّ في الضرب. لم ينتبه لها وهي تدخل. أكملت طريقها إلى المطبخ تنادي عفاف. دعتها لتدخل.

ـ طوشني بهالتلفزيون! سمعنا ألف مرَّة نشرة الأخبار، وبدو بعد. . . وبدو يتعشَّى هلَّق!. . . شو بكِ؟

ـ صالح. . . ما رجعش بعد. . . مممم. . . مشغول بالي. رح إتمشَّى بالضيعة. . . ببب. . . بـ. . . بركي التقيت فيه.

ـ وين هبة؟

ـ تركتها بالأوضة. عم بتنام.

ـ كيف؟ بركي وعيت. . . رح ترتعب إذا ما لاقتش حدا بالبيت. اطلعي اطلعي. . . شو رح يفيدك تروحي عالطريق؟ أكيد في شي أخَّره. انطري شوي وبعدين منشوف شو منعمل!

ـ مش قادرة أنطر. . . رح أتمشَّى صوب الحقل.

ـ صوب الحقل؟ بهالعتم؟ حبيبتي، انطري شوي. . . إذا ما

رجعش، منروح بسيَّارة نبيل، تقلقيش.

ـ طيِّب... رح ارجع عالبيت هلَّق... وإإإإذا ما رجعش ببيب... بعد نصّ ساعة رح انزل.

عندما خرجت ومرَّت من أمام الصالون، قرَّرت أن تكتفي بسلامٍ سريعٍ لنبيل وإكمال طريقها إلى البيت. تمنَّت أن يأتي صالحٌ فلا تحتاج إلى مساعدة جارها. كان الصالون فارغًا إلَّا من صوت التلفزيون وشاشته المشوَّشة. لعلَّ الأستاذ نبيل صعد كعادته إلى السطح ليحرِّك الهوائيّ فتعود الصورة إلى الشاشة.

وقفت أمام الباب، والتفتت إلى الزقاق. شاهدت مريم أمام بيتها. أومأت لها لتأتي. صعدت معها إلى البيت وأفهمتها أن تبقى فيه حتى تعود. وخرجت إلى ساحة القرية.

اتَّجهت نحو الطريق الذي يسلكه صالح كلّ يوم. صادفت بعض الرجال ممَّن يأتون دائمًا إلى بيتها. سألتهم إن كانوا لمحوه. استغربوا هم أيضًا غيابه حتى هذه الساعة. سألتهم عن بيت بوفؤاد، لم يقبلوا أن تذهب إليه في هذا الوقت، فالمسافة طويلة إلى الحارة التحتا. وعدوها بأن يبحثوا عنه ويطمئنوها. لم يهدأ قلبها. الساعة تجاوزت الثامنة. عندما تواروا، أكملت سيرها باتِّجاه الطريق المؤدِّية إلى الحقل. التقت بأمّ فارس. حيَّتها بسرعة، وحثَّت خطاها لتبتعد عنها. العتم هبط تمامًا، ولا شيء يُرى من بعيدٍ غير أضواء القرى المواجهة لديرزوفا. بدت لها كأشرطة الأضواء الملوَّنة في ليلة العيد. وقفت أكثر من مرَّةٍ لتستريح وتستعيد أنفاسها. «وينك يا صالح؟ شو يللي مخلِّيك بالحقل لهلَّق؟»

الطريق خاوية تمامًا من أيِّ مخلوق. عواء الكلاب في البعيد يدفع بقدميْها إلى الأمام. وصلت إلى مفترق النبع. كيف ستمضي إلى هناك وسط الأشجار؟ لن تتعرَّف على المسار المفضي إلى الحقل. «يا ريت رحت معه شي مرَّة عالحقل. . . كنت حفظت الطريق». تعثَّرت بالحصى وكادت أن تهوي. راحت تتبع صوت الماء. رائحة الوزَّال تشقّ القلب. كلّ الروائح تشتدّ حدَّةً في الليل. دقَّات قلبها تتسارع. ها هو النبع بات قريبًا، ولكنْ ماذا بعده؟ كيف الوصول إلى الحقل؟ ستستريح قرب إحدى القنوات التي تتراءى لها تحت عمود الإنارة. جلست. ثم وقفت من جديد. التفتت في كلِّ الاتِّجاهات. لا شيء سوى العتم. راحت تهتف اسم صالح. خافت من صدى صوتها يتردَّد في النبع والشجر. وكان خوفها يدفعها للصراخ أعلى. سمعت حركة. جفلت. قفزت لتقف على حافَّة القناة. شهقت عندما عبرت قطَّةٌ من أمامها هاربةً من أخرى تعدو وراءها، وتموء بطريقةٍ مخيفة. عادت لتصرخ اسم صالح حتى انهارت بالبكاء، وقرَّرت أن تعود أدراجها. «الطريق للبيت دايمًا أقصر»، هكذا يقول عجائز ديرزوفا. «يا صالح. . . يا حبيبي وينك؟» «يا عبلة بترجَّاكِ طلِّي». لا تعلم إذا كانت ترغب بالبكاء أم الضحك على حالها وهي تنادي البغلة، وتهيم على وجهها في هذا الليل. أيّ فكرةٍ غبيَّةٍ أن تلحق به إلى الحقل؟ ردَّد لها صوتها. ماذا لو لم يسلك الطريق نفسه اليوم؟ ماذا لو وصل البيت؟ لا بدَّ أن يغضب منها لتركها هبة مع مريم، واللحاق به إلى حقلٍ لا تعرف من أين يبدأ وأين ينتهي. مستعدَّة لمواجهة غضبه، المهمّ أن يكون بخير. شعرت

بشيءٍ لزجٍ تحت قدمها. رائحةٌ كريهة مألوفة. رفعت قدمها. روث بهيمةٍ علقَ في حذائها. لا بدَّ أنَّ عبلة مرَّت من هنا. رفعت قدمها إلى حافَّةٍ مرصوفةٍ بالحجارة، ومرَّرتها عليها عدَّة مرَّات لتزيل بقايا الروث عن حذائها. عندما خرجت من مسار النبع، استعادت أنفاسها، فالقرية أصبحت على بعد خطواتٍ قليلة. حاولت أن تركِّز نظرها على ساحة القرية علَّها تتعرَّف على الأطياف التي تتراءى لها من بعيد. لمحت مجموعاتٍ متفرِّقةً من الناس. أسرعت لتصل إلى أيٍّ منها فتسأل عن صالح. لعلَّ بوفؤاد يقف معهم فيطمئنها عليه. كلُّهم لم يروه. وصلت خائبةً إلى زقاق بيتها. سمعت أصوات رجال. وحين بلغت الدار، كان بوفؤاد وفارس وبو بيار وغيرهم واقفين مع نبيل.

ـ إلى أين ذهبتِ في هذا الليل؟ أجننتِ؟ بادرها نبيل أمام الجميع.

لم تسعفها أنفاسها المتقطِّعة على الردّ. جلست على أحد أحواض الزهر لتقول: صالح صرله شي. أنا ممم. . . متأكِّدة. عرفتوا شي؟ حدا شششش. . شافه؟

ـ هل تصعدين إلى بيتك وتتركي لنا الموضوع؟ سنذهب الآن للبحث عنه.

ـ ببب. . . بروح معكم. ببب. . بب. . . بدي روح. . .

ـ عفاف، يااا عفاااف تعالي بسرعة، صرخ نبيل.

ركضت عفاف مرتعبةً من صراخه، فوجئت برؤية هيلانة. ساعدتها على الوقوف والعودة إلى البيت وهي تؤنِّبها على ترك هبة

مع «الخوتا» مريم... فيما ركب نبيل سيَّارته مع الرجال، وانطلق مسرعًا في الزقاق.

ساعتان، ثلاث ساعات مرَّت ولا أحد عاد. لا صالح ولا نبيل ولا الرجال. هبة تستيقظ كلّ ساعةٍ باكية. الأطفال كالقطط يستشعرون الخطر قالت لها عفاف. مريم غادرت بعدما أوصتها هيلانة أن تعود إلى البيت وتنام. رأت في عينيْها خوفًا أرعبها. لا تحتمل أن تسمع صيحاتها الآن، يكفيها وحشة هذا الليل. وقفت على الشرفة، عيناها مرصودتان على الزقاق. كلّ ملامحها غابت. كأنَّ وجهها اختفى مع صالح. عفاف تفرك يديْها. تنهض لتنظر إلى الرواق. تذرع الشرفة بالطول وبالعرض. زفير أنفاسها يتصاعد كأنَّه يطرد أفكارًا تخطر في رأسها.

ـ مش معقول يغيبوا كلّ هالوقت!؟ هتفت عفاف فجأةً. المسافة للحقل بتاخدش أكثر من ساعة... وينن لهلَّق؟ قلبي مش متطمِّن... كلُّن اختفوا! مش قادرة انطر... بدِّي أتمشَّى عالساحة...

ـ لا... أنا بروح. خلّيكِ هون. مش رح أقدر هدِّي هبة إذا وعيت.

ركضت، ونزلت الدرج كأنَّها أفلتت من قفص. هُرعت إلى الساحة. خواء. صوت صراصير الليل. قططٌ سارحة. بيوتٌ مغلقة الأبواب. ريحٌ خفيفة تحمل روائحَ غريبةً تختلط مع رائحة الروث في حذائها. اقشعرَّ بدنها. أهكذا تكون ديرزوفا في الليل؟ أم هذه الليلة فقط؟ وقفت طويلًا، وحدَّقت في كلِّ الاتِّجاهات.

القرية مهجورة. ستبقى واقفةً إلى ما لانهاية. لا بدَّ أن يطلّ أحد. يبست من البرد. مشت بالطول وبالعرض. حرَّكت ذراعيْها يمنةً ويسرةً علَّ الدم يعود إلى شرايينها. لن تمشي باتِّجاه النبع في هذه الساعة، لكنَّها لن تغادر مكانها مهما حصل.

كم عشقت الليل قبل هذه الليلة! العراء مخيف. صالح في سريره يعني العالم كلّه بخير. من أين له تلك القوَّة بالقبض على الوحشة ومعسها كحشرة؟ أفكارها تلسعها ببردٍ أقسى. الدقائق دهر. هدير سيَّارةٍ من بعيد. هل تهذي؟ أم أنَّ نبيل عاد؟ أضواء السيَّارة تنطفئ وتُضاء كالغمزة كلَّما اقتربت منها. أحصت عدد الأشخاص فيها. لم يزيدوا. «وين صالح؟» هتفت عندما أوقف نبيل السيَّارة أمامها. فتح الشبَّاك ودعاها لتعود إلى البيت. مشت خلف السيَّارة، شعرت بقدميْها كأنَّهما ترجعان بها إلى الوراء. ما إنْ وصلت حتى رأت عفاف تُهرع لملاقاة نبيل.

ـ لا أدري ماذا أقول... بادر نبيل، لم نترك بقعةً إلَّا وبحثنا فيها!

ـ ... حتى البغلة اختفت، قال بوفؤاد.

ـ ما زال شباب البلديَّة يبحثون في الحقول المجاورة. وصلنا إلى حدود بقاع نبعا، ثم فقدنا الأمل. ليل وعتم. لولا فانوس بوفؤاد لما استطعنا أن نرى أمامنا. حتى القمر غاب.

ـ فش حدا... كيف اختفى هيْك؟ همس بوفؤاد محدِّثًا نفسه.

ـ نبيل... صالح بيختفيش هيْك... ردَّت هيلانة. ما

شفتش ككككـ. . . كوفيته؟ زوَّادته؟ ممممـ. . . مطرة الميّ؟ ععععبلة؟ أيّ شيءٍ بيخصّه؟ مستحيل. . . ما حدنش بيختفي هيْك. . . قلتوا للمختار؟

ـ أخبرنا الجميع. . . المختار ورئيس البلديَّة ببيروت. وشباب القرية توزَّعوا في الحقول. لا أحد عاد بخبر عنه. تركنا بعضهم في السهل، وقلنا لنعد ونخبركما على الأقلِّ أنَّنا ما زلنا أحياء.

ـ وهلَّق شو؟

ـ الاتِّكال على الله، ردَّت عفاف. اطلعي عالبيت. الصباح رباح. . .

وقفت تتأمَّل نبيل وبوفؤاد. خطر لها أنَّهما يخفيان عنها شيئًا. اقتربت من بوفؤاد، وسألته:

ـ إذا كنت بتعرف شي قوله هلَّق. هالمرَّة مش لدغة عقرب. . .

ـ وحياتك يا بنتي، أنا متلك مصدوم. . . كيف بيختفي هيْك؟ صدِّقيني، الشباب مش رح يناموا قبل ما يلاقوه.

ـ هيلانة، حبيبتي. سمعتِ بوفؤاد. . . اتطمّني، أكيد الصبح بيكون بيَّن شي. تعي معي.

أذعنت لعفاف ومشت معها. أحسَّت بكلِّ حواسِّها تنطفئ دفعةً واحدة. وحده العطش يشعرها بطعمٍ مرٍّ في حلقها. بردٌ لفّ عظامها حين دخلت البيت. غسلت وجهها. شربت وجلست على كنبة المطبخ. مدَّت يدها إلى حيث يجلس صالح، وأشهقت بالبكاء.

السرير من دون صالح قبر... حملت غطاءً صوفيًّا، وتمدَّدت على كنبة في الغرفة الشتويَّة. كلَّما أغمضت عينيْها تخيَّلته جالسًا قبالتها. شاربه يتمدَّد ويتقلَّص وهو يروي ما حصل معه. يداه ترسمان الطرق والتلال والوديان، وعيناه تلاحقان الغضب في حوافر عبلة. تفتح عينيْها على الفراغ... ظلالٌ قاتمة تلفّ الجدران. أين تُراه يكون في كلِّ هذا العتم؟ أغلق الخوف عينيْها حين تخيَّلت بيتها من دون صالح. صفَّق قلبها كبابٍ أغلقته الريح، عندما راودتها هواجسُ عن غيابه. لم تجرؤ على الاستغراق في صُورٍ عبرت في بالها... صورِ صالح مقتولًا، يسبح في دمه. البغلة منحورةٌ من عنقها. نهضت مرتعبة... خرجت إلى الشرفة. ارتمت على الأرجوحة. وعلَّقت عينيْها في النجوم حتى انطفأ الليل.

ـ اربطها حدّ الحوْض.

ـ سبحان الله!

سمعت هيلانة هذه الكلمات، فظنَّت أنَّها تحلم. لكنَّ الشمس كانت تتمرجح على عينيْها، فأدركت أنَّها نامت على الشرفة حتى الصباح. نهضت، كانت هبة واقفة أمام الدرابزين. نظرت من الشرفة، فرأت عبلة في الدار. كرجت على الدرج.

ـ وين صالح؟ صرخت كأنَّها تسأل البغلة.

ـ سمعتُ صوت حوافرها... ردّ نبيل، قلت عاد صالح... خرجت فرأيتها وحدها.

ـ بس... كككككيف ما حدنش لاقاها مبارح؟ وين ككككك... كانت كلّ الليل؟

ـ لو أنَّها تتكلَّم لكنَّا عرفنا!

تمنَّت لو تصفعه. اقتربت من عبلة تتفحّصها. «وين البردعة؟» همست. دارت حول البغلة تبحث عن علامةٍ ما، عن جرح. عبلة متَّسخة.

ـ سألبس وأذهب لأرى الشباب، قال نبيل، أرجوكِ لا تلحقي بنا. لن نتأخَّر.

ـ رح روح معك. ما تناقشنيش. أأأأأ... أعصابي انهارت. عععع... عفاف... انتبهي على هبة الله يخلِّيكِ.

هُرعت هيلانة إلى البيت طالبةً من نبيل انتظارها.

ـ طوِّل بالك عليها، قالت عفاف فيما عادت هيلانة ركضًا لتركب في سيَّارة نبيل.

عندما خرجت السيَّارة من الزقاق، توقَّف نبيل ونظر في الاتِّجاهين كأنَّه يتساءل من أين يبدأ.

ـ خود طريق النبع... قالت له.

ـ ربَّما الأفضل أن نرى شباب البلديَّة.

اختار الاتِّجاه المعاكس. كان بعض الرجال يعبرون، فيتوقَّف أمامهم، ويخبرهم أنَّ البغلة عادت. هيلانة تفتح الشبَّاك كلَّما صادفت امرأةً تقترب: «شفتي صالح؟» وتغلق الشبَّاك عندما لا يأتيها الجواب الشافي، فتقطع على المرأة ثرثرتها. ما إن وصلا مبنى البلديَّة حتى ركض أحد الشباب نحوهما. أحنى رأسه

ليحيِّيهما قائلًا: «صباح الخير. ما رجعش؟ نزل خيِّي من بكِّير مع كمّ شبّ بجولة جديدة. ما رجعوش بعد... انزلوا نشرب قهوة».

ـ البغلة عادت، قال له نبيل.

ـ إشارة سيِّئة، أجاب وسرعان ما ندم عندما انتبه لوجود هيلانة.

ـ شو قصدك؟ هتفت.

ـ زوجته، أردف نبيل، الستّ هيلانة... بالها مشغول عليه.

ـ بعرفها. تشرَّفنا ستّنا.

ـ ليش ققق... قلت إشارة سسسـ... سيِّئة.

ـ لا ولا شي... عادة... البهايم بتبعدش عن صحابها. إلَّا إذا...

ـ إلَّا إذا شو؟

ـ بالتأكيد، حصل أمرٌ ما اضطرّ صالح للابتعاد عنها، قال نبيل.

ـ بالزبط... تقلقيش ستّنا. الغايب عذره معه. إن شاء الله منلاقيه أو بيرجع لوحده!

ـ الريِّس هنا؟ سأل نبيل.

ـ ببيروت... اتَّصلنا فيه، قال الأوضاع من سيِّءٍ لأسوأ.

ـ خلِّينا نمشي، قالت هيلانة بعدما نفد صبرها.

ـ طيِّب... شكرًا لك. إذا بلغك أيّ خبر، أرجو الاتِّصال بي في البيت.

عندما انطلق بالسيَّارة من جديد، بدا حائرًا أيّ اتِّجاهٍ يسلك. «خدني عالحقل»، قالت له، «انزل من هون بتوصل عالنبع». ضحك، وواصل طريقه صامتًا.

ـ ليش عم تضحك؟!

ـ أضحكتني تعليماتك المروريَّة. يا هيلانة، اهدأي. التوتُّر لا يفيدك.

ـ ممكن تعجِّل شوي؟

ـ هذا يوسف، لنرى إن كان يعلم شيئًا. عديني أن تهدأي لنكمل هذا اليوم على خير.

لم تجب. كان يوسف عسكريًّا طويل القامة في العشرينيَّات من عمره، يمشي باتِّجاه ثكنة الجيش المتاخمة للبلديَّة.

ـ صباح الخير أستاذ نبيل... كيفك؟ كيف الصحَّة؟ وكيف الستّ عفاف؟

ـ هلا يوسف، كيفك أنت؟

ـ والله متل البلد...

هيلانة تزفر أنفاسها متململة من إصرار نبيل على اللياقات الاجتماعيَّة. تخفض رأسها لتكلِّم يوسف:

ـ شفت صالح؟

ـ سمعت من الشباب اليوم الصبح عم بفتّشوا عليه...

ـ هل يمكنك أن تسأل الضابط المسؤول إن كانت وصلته أيّ معلومات؟ ردَّ نبيل.

ـ الضابط ما وصلش بعد. . .

ـ اتّصل فيه، قالت هيلانة بلهجةٍ آمرة.

سكت يوسف، وراح ينظر إلى البعيد كأنَّه تورَّط في أمرٍ لا يريده. «رح شوف شو فيِّي أعمل».

ـ اعذرنا، ولكنَّنا قلقان عليه. أبٌ لطفلةٍ عمرها خمس سنوات. . . تعرف صالح، لا يؤذي نملة.

ـ مفهوم. . . ولو؟ بس بتعرف، الأوضاع هلَّق تعبانة وين ما كان. بردّ عليك خبر إذا عرفت شي.

ـ ليش ما منرحش عند المختار؟ قالت هيلانة وهي تومئ لنبيل بأن ينطلق بالسيَّارة.

أدار المحرِّك وهو ينظر إلى التلال والهضاب المحيطة بالقرية، كأنَّه يبحث عن ظلّ صالح. الشمس غمرت الحقول، ومنحت دفئًا غريبًا لهذا الصباح المريب. قاد السيَّارة ببطءٍ شديدٍ ليجول بعينيْه على أطراف الوادي والسهول علَّه يلمح حركة تشي بأملٍ في العثور على صالح. هيلانة إلى جانبه، تنظر في كلِّ الاتِّجاهات ولا ترى شيئًا، تعلم أنَّ حادثًا خطيرًا وقع لصالح. لو تعرَّض للسعة أفعى أو لدغة عقربٍ لوجده الشباب بالأمس في مكانٍ ما يصارع ألمه. لا يمكن أن يتعرَّض للسرقة مثلًا، فلا شيء ثمينًا لديه سوى بغلته. «صالح مش بديرزوفا»، تمتمت. «وإلَّا كان رجع مهما حصل».

ـ لنتفاءل بالخير. . . التفكير بالأسوأ لا يُجدي. لنمرّ على المختار قبل الذهاب إلى الحقل.

ـ مين بيهمّه فلَّاح اختفى؟!. . . لو شي ابن حدا من الحارة الفففف. . . فوقا كانت كككك. . كلّ ديرزوفا والمنطقة استنفرت!

ـ حرام عليكِ. . . كلّ الشباب كانوا في السهل حتى الفجر. وفريقٌ آخر قام بجولةٍ صباحيَّة. . . لا تسيئي الظنّ بالآخرين.

نظرت إليه طويلًا وهي تفكّر بإصراره على دور الأستاذ. لماذا ليس قلقًا مثلها؟ لماذا يتباطأ ولا يقيم الدنيا ويقعدها لإيجاد صالح؟ لعلَّه في قرارة نفسه لا يريده أن يعود؟ أيعقل أن يكون سيِّئًا إلى هذه الدرجة؟ أم أنَّها تبالغ في شكوكها وتخطئ الظنّ به؟ أشاحت بنظرها عنه عندما مرَّا في ساحة القرية. الوجوم يلفّ الوجوه، أو هكذا تراءى لها عندما رأت الناس يحدِّقون بها. كأنَّهم يشفقون على حالها، أو أنَّهم يعلمون أمرًا تجهله حتى الآن.

وصلا بيت المختار. كان بعض الشباب متحلِّقين حوله وهو يتحدَّث إليهم كأنَّه يخطب فيهم. أحسَّت بالبرد يسري في أطرافها. ركن نبيل السيَّارة. سبقته إلى النزول منها، وتقدَّمت نحو الجمع.

ـ صصصد. . . صباح الخير. . .

ـ يسعد صباحكم شباب، أردف نبيل.

ـ صباح النور. . . ردُّوا جميعًا.

ـ أهلًا. . . تفضَّلوا، قال المختار بوجهٍ عابس.

ساد صمت. كلّ واحدٍ من الرجال ينظر إلى الآخر. هيلانة تتفرَّس في وجوههم.

ـ شو بكم؟ وين صالح؟

ـ خلِّينا نفوت ونحكي على رواق، قال المختار موعزًا إلى الشباب بالمغادرة.

مشت هيلانة مع نبيل وراء المختار الذي قادهما إلى الشرفة الملاصقة لمدخل البيت.

ـ اعملوا لنا قهوة، هتف كأنَّ في الداخل خدمًا غير مرئيِّين. اعتدل في جلسته، سعل مرارًا واستمرَّت الكحَّة وقتًا كافيًا لتبدأ هيلانة بالتململ وسط دعاءات نبيل بالصحَّة والعافية للمختار ونصائحه له بالإقلاع عن التدخين.

ـ بعرفش شو بدِّي قول... الشباب من مبارح ما ناموش... واليوم من قبل الضوّ طلع فريق تاني. فتَّشوا الأحراج كلّها. التلال، السهول... وصلوا لحدود بقاع نبعا. التقوا بمزارعين من الضيع التانية... سألوهم إذا شافوه. أبدًا... لا مين شاف ولا مين دري. داب متل الملح... خبَّروني أنُّه البغلة رجعت.

ـ أجل... فوجئنا بها في الدار صباح اليوم، ردَّ نبيل فيما المختار يحدِّق بهيلانة وهي تُحدِّق به.

ـ احكيلي يا بنتي. قلِّك شي؟ حِكي معك بشي موضوع شاغل باله؟ خبَّرك إنُّه التقى مع حدا من برَّات الضيعة؟

ـ لا يا مختار... عادي. متل كلّ يوم حكينا بقصص عاديَّة. الأرض والزرع... والعيلة...

ـ تواصل مع إبراهيم أو فريد؟

ـ تواصل؟ ششش... شو قصدك؟ إبراهيم ببب... بيروت... وففف... فريد مش هون. قالت هيلانة وبدأ الخوف يغمر قلبها.

ـ اسمعيني منيح يا بنتي، والأستاذ نبيل هوْن شاهد. مش رح نوفِّر أيّ جهد لنلاقي صالح. صالح غالي على قلوبنا وعلى قلوب الكلّ بديرزوفا. كلّ شي بطلبه منك إنَّك تبقي بالبيت وتهتمّي ببنتك. وإذا تذكَّرتي أيّ شي خبّرينا...

ـ مش عم بفهم عليك يا مختار! شو معقول يكون صار مع صالح؟ وليش سألت عن إبراهيم وفريد؟

ـ الحمد لله خلصت القهوة... قال المختار لصبيَّة دخلت واتَّجهت فورًا صوب هيلانة لتقدِّم لها القهوة. هيدي بنتي الكبيرة، زينة.

ـ ما شاء الله، تلميذتي النجيبة ردَّ نبيل. رمقته هيلانة لترصد نظرته إلى الفتاة التي أسرعت في توزيع الفناجين عليهم، وضمَّت الصينيَّة إلى صدرها ودخلت البيت.

ـ مختار، أنا متأكِّدة... صصص... صالح مش بالضيعة.

ـ وأنا كمان... أجاب وسط دهشتها. بتمنَّى كون غلطان. بس لو كان بالضيعة كنَّا لقيناه... جريح أو... أيّ شي.

ـ ولكنْ، لماذا يغادر صالح القرية؟ سأل نبيل.

ـ يمكن ما تركش الضيعة بخاطره... يمكن... غُودر. هالكلمة موجودة باللغة العربيَّة أستاذنا؟

ـ غُودر؟ ردَّت هيلانة... قصدك انخطف؟

ـ من سيخطف فلَّاحًا؟ ولماذا؟ سأل نبيل...

ـ أستاذ نبيل، سلامة فهمك، قال المختار وهو يرتشف قهوته كأنَّه يبلع معها كلامًا لا يريد قوله.

ـ لا أعتقد أنَّ هذا الاحتمال وارد، ردَّ نبيل. اعذرني مختار. لكنِّي لا أجد أيّ منطقٍ في خطف فلَّاحٍ من أرضه.

ـ خطف فلَّاح غير خطف صالح. على كلِّ حال، اتركوا الموضوع عندي. رح أعمل اتِّصالاتي وبلِّغكم بكلِّ جديد.

ـ مش رح يهدا بالي مختار... ققق.. قبل ما تتت.. تشرح فف... فكرتك أكثر.

ـ هي شكوك مش أكثر... ليش صالح مش غيره؟ مين قرايبه؟ وينهم؟ بركي خطفوه ليوصلوا لغيره...

ـ قصدك.. إبراهيم؟

ـ معقول؟ قال نبيل... إلى هذه الدرجة وصلت الأمور؟ من بيروت إلى ديرزوفا؟

ـ الحرب يا أستاذنا... لمَّا بتولع ما بتعود تعرف طريقها. عنف بيقابله عنف. أحقاد بتولِّد أحقاد. بتضيع البوصلة، وبيروح الصالح بعزا الطالح متل ما بيقول المتل.

عادت إلى البيت أكثر خوفًا من لحظة مغادرتها له في الصباح. كانت مريم في حالة هياجٍ لم تستغربها هيلانة. فمريم تعرف كلّ شيء، وصراخها اليوم مُحمَّلٌ بعويلٍ يشي بأنَّ اختفاء صالح لا يحتمل فرضيَّةً أخرى سوى الخطف. ذهبت أبعد في شكوكها، فتخيَّلته مقتولًا. هالها كيف يمكن للخيال أن يتوحَّش

ويصوِّره لها مطعونًا بسكِّين، أو يسبح في دمه وعيناه مفتوحتان في وسطهما طلقة رصاصة.

كان الليل يرتجف مثل قلبها حين سهرت على الشرفة مع دفترها الصغير وكتبت:

صالح حبيبي... أينك؟ هل يطعمونك؟ هل تشتاق إلى رغيفي ولبَني؟ أين يداك تمرِّغان لي السمن والسكَّر في شتاء العواصف؟ تقطفان لي التين الذي أحبّ؟ تمسِّدان ظهر عبلة كلَّما طاوعتك؟ وحدهما يداك أخمدتا جوع النار... كيف لم يتسنَّ لك ضرب خاطفيك بهما؟ وأين كان معولك من وجوههم، من أكتافهم، من أقدامهم؟ كيف تمكَّنوا منك؟ في أيِّ لحظة بالذات؟ عند استراحتك لالتهام الزوَّادة؟ أو عند غفوتك قرب نهر التعب؟

أين عيناك يا صالح؟ هل عصبوهما كي لا ترى للعودة سبيلًا؟ ألم تقل لي إنَّك تعرف الطريق «ولو عميت»، وأنَّ رائحتي كجرس النسيم تقودك إليَّ مهما ابتعدت؟ أتراهم يعرفون هذا السرّ... وبدل أن يعصبوا عينيْك كمَّموك، كي لا يزأر صوتك فوق الغيم ويفضحهم؟

كم من ليلٍ وترابٍ مرَّا على قدميْك! الماء اشتاق إلى صوته على أصابعك، والطشت صدأ... يا صالح. يا روح صوتي وصوت روحي. من؟ ولماذا؟ يحاصراني كأنَّني بين قوسيْن. من أراد لك أن تختفي عن وجه الأرض؟ ولماذا؟ غيابك عنِّي، عن حقلك وخضرتك، عن سريرنا... قطع الماء عن الأرض. من بعدك كلّ شيءٍ ضحل، يابس... قابل للاشتعال.

أنا الآن صنوبرةٌ محترقة، كتلك التي أوعزت إلى أهل القرية بتركها في الأرض لتُعيد الحياة إلى المطلّ. . . أتذكرُ كم تألَّمتَ وغضبتَ حين سرقوها للتدفئة!؟ لو أنَّك تشهد الآن احتراقي! أيّ حياةٍ أعطيها لهبة من رمادي؟

يا صالح. . . . يا شبابي الهرِم، كلّ صباحٍ أسائل نفسي: هل سيتسنَّى لك الهرب؟ لتمتشق شجرةً أو تلوذ في بئرٍ أو تهرول في حقل ذرة؟ أنت الأخفّ من سنبلة، الأصلب من عقيدة. ضحكاتك على عريشة العنب تذوي، وسعالك يبتعد كرسول المطر في آذار. . .

أخالك أمامي كلّ لحظة. . . كخيطٍ من غبار شمس. أتلاشى معه كهلالٍ يتناقص. هل يأتيني الرعد بك؟ أم يجرفني المطر إليك؟ أريد لكلِّ السماء أن تقع أرضًا لتدلّني النجوم إلى طريقك، وليوشوشني الله عن مأواك. . .

في صباح اليوم التالي، لم تستطع أن تُجيب على سؤال هبة المتكرِّر عن أبيها. نزلت بها عند عفاف، واتَّجهت فورًا وبلا مقدِّمات نحو الهاتف، وطلبت من عايدة السنترال أن تحاول الاتِّصال بفادية. جلست تحدِّق بالهاتف يدها فوق السمَّاعة، كأنَّها تزوِّده بالحرارة وتستعجله للرنين. كان صوت هبة يتناهى إلى مسمعها وهي تكركر بالضحك مع عفاف. نبيل على الكنبة المقابلة لها، يمسِّد خدَّيْه كأنَّه يجترّ أفكارًا متناقضة فيما هي تجترّ كلّ ما حصل صباح أمس. رنَّ الهاتف، فشهقت مرتعبةً من ارتداداته على يدها وفي قلبها.

ـ آلو... آلو... فادية؟... حبيبي بول... كيفك يا قلبي؟ أنا هيلانة... وين الماما؟

انتظرتْ قليلًا... خافت أن تكون فادية تستحمّ أو نائمة. لكنَّها اطمأنَّت عندما سمعت وقع خطاها يقترب.

ـ آلو؟ فادية... كيفك أختي؟

ـ هلَّق طلعنا من الملجأ، لنتحمَّم وناخد كم غرض ونرجع... القصف ما وقف من يومين.

ـ وين إبراهيم؟

ـ الحمد لله... اتطمَّنت عليه، بس مش رح يجي عالبيت هلَّق.

ـ أختي... صصصص... صالح مخطوف... المختار قال إنُّو خطفه إلو ععع... علاقة بببب بإبراهيم.

ـ مخطوف؟ صالح؟ شو هوِّي بيار الجميِّل؟ وشو دخل إبراهيم؟

ـ ببيعرفش...

ـ آلو؟

ـ آلو... عم بسمعك.

ـ آلو؟ هيلانة... آلو...

طلبت من عايدة السنترال الاتِّصال بالرقم نفسه من جديد، لكنَّها انتظرت أكثر من نصف ساعةٍ حتى نفد صبرها ويئست.

عادت إلى البيت تاركةً هبة في الحديقة مع عفاف. لا طاقة

لها على فعل أيِّ شيء. رأسها مطحنةٌ تدور بأفكارٍ لا رابط بينها. كلام المختار بعث فيها الهواجس، وصيحات مريم أطبقت على صدرها حتى كادت تنهار وتفقد وعيها. شيءٌ واحدٌ تريد أن تفعله الآن وبقوَّة. اتَّجهت نحو الراديو. حملته. رفعته إلى أعلى ما تستطيع، وأفلتته. لم يتكسَّر كما تمنَّت. قرفصت وحملته من جديد لتضربه مرارًا، لكنَّ الخشب الذي يُحيط به أحبطها. اتَّجهت نحو غرفتها. فتحت جارورًا سفليًّا يحتوي على مطرقةٍ ومفكَّات براغ. أمسكت المطرقة وعادت إلى الراديو لتضربه بعنفٍ هذه المرَّة، فيتهشَّم وتتشظَّى أجزاؤه. جلست منهارةً تحدِّق بالجهاز. في تلك اللحظة، تردَّد صدى صراخها في الحيّ كلّه... كأنَّما الرعد أفلت من شرايينها لحظةً وأبرقت السهول بوجه صالح.. وأقفرت الأرض!

* * *

مرور أسبوعٍ على غياب صالح، أكَّد فرضيَّة خطفه. وما سمعته في بيتها من همساتٍ ووشوشاتٍ بين الرجال والنسوة أكَّد لها أنَّ أهل ديرزوفا لن يتغيَّروا مهما مرَّت عليهم أزمات... مولعون باختلاق القصص وتلفيق الحكايات التي لا منطق فيها إلَّا لتحريك مستنقع حياتهم التي تجترّ نفسها كلّ يوم. لكنَّها لم تتوقَّع أن يصل الأمر إلى حدِّ الشكّ بصالح... واتِّهامه بتهريب الأسلحة... والارتياب منها، كأنَّها تُخفي سرًّا! أخوها فريد في الحزب القوميّ، وصهرها كتائبيّ. هل صالح كبش فداءٍ أم عميلٌ مزدوج! من أين لهم هذا الخيال الخصب؟ شعرت أنَّها مُحاطةٌ بالجواسيس. الكلّ يسألها لا ليطمئنّ عليها، بل ليستدرجها إلى كشف ما قد يؤكِّد شكوكه. تذكَّرت قصَّة نعيم وسمير... رنا والشابّ المسلم... أمّها ورواية غرقها...ورديَّة وكل الغموض الذي أحاط بحكاية احتراقها... والآن

صالح!! كيف يسطو الغيب على الحقيقة؟ كيف يسيطر الخيال على العقل؟ لو كان صالح هنا، ماذا كان سيقول؟ لن يقبل بسماع الترَّهات. قد يطردهم جميعهم؛ أو لعلَّهم لن يجرؤوا على البوح بشكوكهم لأنَّهم يهابونه. أمَّا هي، فالكلّ يستضعفها! وحيدة مع ابنتها. أخوها غائب. زوجها اختفى. يتيمةٌ وتتأتئ!

* * *

ـ كم مرَّة بتصلِّي؟

سألها عاقدًا حاجبيْه الأشيَبيْن. لم تتخيَّل أن ترى أمامها كهلًا يشبه صور القدِّيسين. لحيته بيضاء طويلة. هامته بطول هبة. في صوته صدى أوديةٍ عطشى. لم تنتظر طويلًا لتدخل إلى غرفته. من شبَّاكٍ وحيدٍ تبدو السماء أقرب. شعاعٌ طفيفٌ يضيء زوايا تجمَّعت فيها تماثيل كلّ القدِّيسين، تتوسَّطها مزهريَّات وشموع. على درجةٍ أعلى وفي الزاوية نفسها، تمثال المصلوب. كأنَّه يتلو كلماته الأخيرة أمام جميع القدِّيسين. على الزاوية المقابلة، تمثالٌ آخر للعذراء بثوبها الأزرق، خافضة العينيْن فاتحة كفَّيْها. الأخ ألبير يتمتم كلماتٍ مبهمةً وهيلانة تتساءل كيف وصلت إلى هنا.

ـ جيت إسألك عن صالح. . .

الأخ ألبير يستمرّ في التمتمة. يرفع نظره نحو الشبَّاك. وكقطَّةٍ لمحت غريمتها، تتسمَّر حدقتاه في الفراغ، ويقول: «بعيد وقريب. . . مهموم وتعبان. . .قوَّة الله بإيديه. . . ويللي ما

بيعرفه بيجهله».

ـ رح يرجع؟

ـ ما راح لحتى يرجع... صلّي يا بنتي...

وقف واستدار، فرفل ثوبه الأسود بحفيفٍ اقشعرَّ له جسمها. تقدَّم من خزانةٍ خشبيَّةٍ عتيقة، وعاد بقارورةٍ صغيرةٍ أعطاها لهيلانة قائلًا: «اشربي نقطتيْن الصبح ومساء بعد الصلاة... الله معك». رسم أمامها إشارة الصليب واتَّجه صوب زاوية القدِّيسين. أغمض عينيْه ورفع ذراعيْه. فهمت أنَّ جلستها انتهت. فتحت باب الغرفة بهدوء. كانت صبيَّةٌ تقف أمام الباب تحمل صندوقًا خشبيًّا على سطحه فتحة صغيرة. وعندما ابتسمت الصبيَّة فهمت هيلانة الإشارة. بحثت في جيب فستانها عن نقود... ووضعت بضع ليراتٍ في فتحة الصندوق، وخرجت أكثر خجلًا من يوم مغادرتها المدرسة إلى الأبد. خذلتها نفسها للمرَّة الألف... أن تزور الأخ ألبير يعني شيئًا واحدًا فقط: الغباء سرى في دمها أيضًا وانتشر.

طريق العودة إلى القرية أصعب من مغادرتها. أو أنَّ هرولتها لزيارة الأخ ألبير أعمتها عن التعرُّجات والأزقَّة الملتوية التي تربط القرية بديْرها. أشواكٌ عاليةٌ تُغرز في فستانها وهي تحاول اختراق هذه المتاهة المسقوفة بأشجارٍ لم يقلِّمها أحدٌ منذ عقود، وحُجبت عنها الشمس كأنَّها كهف! مشوارها هذا قطع الشكّ باليقين: أمّ صالح لم تكن تزور الأخ ألبير كلّ أربعاء. وتعزَّز يقينها أكثر عندما وصل بها زقاق معتم إلى ساحة

المقابر. هنا مدفن عائلة صالح. ومدفنها ذات يوم... اقتربت وراحت تبحث عن شاهدة القبر. السماء فوقها انقشعت. العصافير تتنقَّل من قبرٍ إلى قبر. حزم الوزَّال شقَّت طريقها بشكلٍ عبثيّ. كم تعشق هذه النبتة البرِّيَّة التي تختزل كلّ عبقريَّة الطبيعة في طرد الروائح الكريهة! عبرت ثلاث مقابر قبل أن تصل وتتوقَّف أمام شاهدةٍ تحمل أسماءً تقرأها للمرَّة الأولى:

نجيبة عون فرح

توفيق رؤوف فرح

ورديَّة توفيق فرح

بهيَّة غنَّام فرح (أمّ صالح)

رؤوف توفيق فرح (بوصالح)

أوَّل ما خطر في بالها: لماذا لم يسمَّ صالح على اسم جدِّه توفيق؟ جلست على حافَّة القبر. تلمَّست برودته. وضعت يدها على بطنها... برودة ما بعد الإجهاض. انتفضت فهبّ سرب من العصافير عن الأشجار. خفق أجنحتها أنزل رعبًا في قلب هيلانة. ركضت كأنَّ أشباحًا تطاردها! ولم تكد تصل الطريق المؤدِّية إلى القرية حتى استكانت فجأةً كأنَّ روحًا أخرى سكنتها.

كانت نادية الصهباء جالسةً أمام دكَّانها تحمل مروحة يدٍ تطرد بها حرّ الصيف، وفي اليد الأخرى غليون سيجارتها. أحسَّت أنَّ عمرًا مرَّ منذ زيارتها لهذا الدكَّان ولقائها برنا.

عاودتها ذكرى خوفها من انكشاف عاهتها. اليوم، هي ناقصة أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. غياب صالح يملأها حزنًا وارتيابًا وغربة، لكنَّه يمدّها بشجاعةٍ ظنَّت لسنواتٍ أنَّ شخصًا مثلها لا يستحقّها.

حين وصلت بيت المختار، هتفت له من أمام الشرفة. أطلّ على كتفه منشفة.

ـ كنت رح مرّ عليكِ. جيتِ بالوقت المناسب. فوتي.

دخل ليعود مرتديًا بذلةً رسميَّة.

ـ خير يا مختار...

ـ كلّ خير إن شاء الله. رح زور نوَّاب المنطقة. ونشوف شو فينا نعمل، وكيف فينا نحمي الناس بهالظروف! بتعرفي... كتير من شبابنا بالأحزاب. وعم بيقاتلوا. تسأليني عم بيقاتلوا مين!... بلد بألف راس، كيف بدُّوش يخرب؟!

ـ رح تسألهم عن صالح؟

ـ أكيد... قوليلي، فش أيّ خبر عن فريد؟

ـ للأسف لأ. قلتلَّك... ودَّعني هيداك اليوم وما قاليش لوين رايح. صالح قلِّلي رايح يقاتل...

ـ اممم... وصالح شو عرَّفو وين راح؟

ـ شو علاقة خطف صالح بفريد أو... إبراهيم؟ ككك... كيف ممكن حدا يخطر عععع... عباله إنُّو ففففلَّاح إلو علاقة

بأيِّ حزب؟

ـ يا بنتي بدنا نفهم شو القصَّة! ليش صالح مش غيرو؟ صدفة أو مش صدفة؟ إذا مش صدفة شو المطلوب؟ لازم نعرف. . .

وقف وأقفل زرّ سترته. وقفت هيلانة تحاول الربط بين صالح وفريد وإبراهيم. وعدها المختار أن يمرّ عليها في المساء. مشت مع أفكارها إلى البيت. لكنَّها توقَّفت فجأةً وقرَّرت زيارة أمّ عادل. لا شكَّ أنَّ عارف وعادل يعلمان شيئًا عن فريد. وفي هذا البيت فقط تسكن الحكمة.

رمقها بعض الأهالي وهي تدخل الزقاق المؤدِّي إلى بيت أمّ عادل. أكملت طريقها وهي تلعن كلّ واحد فيهم. خافت من نفسها. كم تغيَّرت واستولى على قلبها حقدٌ غريب! لم تشعر بالذنب. . . لا تلام. . . هي مثل بيتٍ بلا سقف. مرتعٌ لوطاويط أفكارها السوداء!

بيت أمّ عادل مفتوح. تناهى إلى مسمعها أغنية «الغضب الساطع آتٍ». «مرحبا. . . أمّ عادل، في حدا هون؟»

أطلَّت ليلى من إحدى الغرف: «أهلين. . . تفضَّلي. أمِّي بالجنينة. . . دقيقة لناديها».

ـ تتعذَّبيش. . . أنا بروح لعندها.

قادتها ليلى إلى المطبخ. مرَّت من بين غرف النوم. سألتها عن عادل وعارف. «مش هون» اكتفت ليلى بالقول. وفتحت

بابًا حديديًّا يفضي إلى الحديقة.

استقامت أمّ عادل عندما سمعت صوت ليلى. حضنت مريولها، ومشت بضع خطواتٍ وهي تهمهم: أهلًا وسهلًا... وعندما وصلت إلى حيث وقفت هيلانة، تنهَّدت، وقالت لها: «قلبي عندك... واليوم كلّ النهار ببالي».

مشتا صوب الباب. «بتحبّي نقعد هون تحت الكرزة؟». «متل ما بدِّك»، ردَّت هيلانة، بس بدِّيش لا قهوة ولا شي. بدِّي...».

توقَّفت عن الكلام عندما كادت أمّ عادل تهوي وهي تجلس على حافَّة الحديقة تحت شجرة الكرز. أمسكتها من ذراعها وساعدتها. وقعت البندورة من حضنها، فسارعت هيلانة إلى التقاطها. «حطِّيهم حدِّي هون، واقعدي. احكيلي... في شي جديد؟»

ـ شو بدِّي أحكيلك... كأنِّي بكابوس! مش عارفة بشو بدِّي فكِّر... بصالح؟ بفريد؟؟ وين عادل وعارف؟ بيعرفوا شي؟

أمّ عادل تمسح عينيْها بمريولها وتهزّ رأسها. «هنِّي كمان راحوا..».

ـ بعدني جايي من عند المختار... قلِّلي... قلِّلي إنُّو رح يشوف نوَّاب المنطقة.

ـ يا طالب الدبّس من طيز النمس يحرم عليك دوقة العسل.

ـ ...

ـ مش عارفة شو بدّي قلّك يا بنتي! الله يصبِّرك ويصبِّرنا.

ـ أنا مش قادرة أفهم... ليش الكلّ عم بيقول إنُّو خطف صالح إلو علاقة بفريد أو إبراهيم؟

ـ لمَّا توقع البقرة بيكتروا سلَّاخينها... الناس ما عندهاش شي غير تلفِّق حكي. لو بدنا ندير دينتنا للعالم كنَّا هلَّق مدري وين صرنا! تسمعيش لحدا... إنت شو بقلّك قلبك؟

ـ مين ممكن يخطفو؟ وليش صالح مش حدا تاني؟ شو بدن فيه... فلَّاح بأرضه كافي الناس شرّه. ما بيأذيش حدا...

ـ شوفي يا بنتي... يلّلي عم بصير بالبلد مش قليل. قتل عالهويَّة. خي بيقتل خيُّه... السوس نخر فينا... وما فش أمل بخلاص قريب. بدِّك تكوني قويَّة. حملك كبير. ويمكن جوزك يرجع يمكن لأ... الله بيعلم شو مصير فريد وعادل وعارف. بس نحن لازم ما نستسلمش وما نتركش الخوف يعشِّش فينا... فهمتِ؟

هزَّت هيلانة رأسها. ما قالته أمّ عادل لم يرضها. لم يجب على تساؤلاتها. لكنَّه على الأقلِّ كان مختلفًا عن كلّ ما سمعته من أهل ديرزوفا. وقبل أن تغادر، أوصتها أن تبعث لها مع ليلى أيّ خبرٍ يصلها عن الشباب، عادل وعارف. خرجت وهي تستجمع ما حصدته من حضن هذه المرأة من صلابةٍ وإرادةٍ على المواجهة.

وصولها إلى البيت أعاد إليها همومًا أخرى. الأبقار، البغلة، المصاريف. كيف تستمرّ من دون غلالٍ ومحاصيل؟

فقدانها لصالح حرمها من خيرات الأرض. أمانها وكرامة ابنتها في خطر. الإيجار الشهريّ للطابق السفليّ يغطي قسط المدرسة، ومصاريف بسيطة. وقد يهاجر جارها بعد كلّ ما يحصل! لن تتعلَّم فلاحة الأرض الآن، سيستغرق وقتًا وسيُبعدها عن بيتها. لا بدَّ لها من خطَّة.

ـ اتَّصلت فادية لتتطمَّن عليكي، قالت لها عفاف عندما وصلت لتأخذ هبة وتصعد إلى البيت.

ـ سألتيها عن إبراهيم؟

ـ طبعًا... قالت إنُّو على الجبهة مع شباب الحزب. كانت متوتّرة كتير. بتطلعش أبدًا من البيت... القصف عم بيقوى. بتقول معارك دايرة من شارع لشارع. وسألت عن فريد...

ـ وما سألتش عن صالح... طبعًا... صالح فلَّاح. لشو عيشتو؟

ـ اتِّصلي فيها... مشغول بالها عليكِ.

ـ لا... المهمّ إنَّها بخير. تأخَّرت بدِّي أحلب البقرات. اسمعي صوتها، كأنَّها عم تناديني.

ـ ارجعي لبرنامجك... واتّكلي عالله.

ـ معك حقّ... مش عارفة شو أعمل بعبلة!

ـ بدِّك رأيي؟ بيعيها...

ـ بيعها؟ جنَّيتي؟ وإذا رجع صالح شو بببيعمل؟ كككككيف

بيروح ععععالحقلة؟

ـ مجرَّد اقتراح. . . بعتذر.

ـ بعد ما مرقش أسبوعيْن على غيابه. . . بيع البغلة قال. . .

أمسكت يد هبة وجرَّتها عائدةً بها إلى البيت من غير أن تنظر إلى عفاف. لم تشعر بالأسف ولا بالندم على غضبها. استغربت كيف يسارع الناس إلى إيجاد حلول، كأنَّهم يسحبونها من تحت إبطهم ويلقونها بكلِّ ثقةٍ كمن يستعرض بضاعةً أو سلعةً أمام زبائن أتوا على غفلة!

شعرت أنَّ حرارتها ترتفع وبدأت تفقد توازنها. تحتاج إلى كلِّ قواها لتفكِّر بحياتها في غياب صالح. عليها أن تواجه فرضيَّة عدم عودته. من دون أن تفقد الأمل. معادلة صعبة. . . لا يحلّها إلَّا شيءٌ واحد: السيطرة على الخوف. ولكنْ كيف؟ ها هو يدهم أيَّامها ولياليها. شتَّان ما بين الخوف من التأتأة والخوف من فقدان صالح وفريد. . . من فقدان كلّ ما تحبّ! حتى الآن، لم تكن تعلم أنَّ للخوف وجوهًا كثيرة، فهذا المقنَّع الماكر لا يغذِّيه إلَّا شيءٌ واحدٌ فقط: انكسار الإرادة.

في المساء، أطلَّ المختار من الزقاق ومعه بوفؤاد. كانت هيلانة على الشرفة جاهزة لاستقبالهما. لم تفاجأ بنبيل يصعد معهما. ولمحت أمّ فارس تقف أمام الدار وتنظر إلى بيت صالح. تجاهلتها، وجلست تستعدّ لسماع المختار الذي بدا متعبًا وهو يقول: «الله يفكّ محنتك يا خيي صالح».

ـ ططط. . . طمنِّي يا مختار.

ـ «أمّا اليقين فلا يقين وإنَّما، أقصى اجتهادي أن أظنّ وأحدسا».

نظرت هيلانة إلى نبيل كأنَّها تسأله عن الأحجية التي يقولها المختار الذي بقي واقفًا وناظرًا في البعيد، كأنَّه يستدعي أبيات الشعر من الغيم:

ـ «... ولا تصدّق بما البرهان يبطله، فتستفيد من التصديق تكذيبا».

ـ فاضت قريحة المختار على الشعر، وحِكم أبي العلاء المعرِّي، ردَّ الأستاذ نبيل.

ـ والله مش عم بلاقي كلام يعبِّر عن أفكاري.

ـ مختار ببترجاك... ناطرتك كككلّ النهار. أحكيلي شو عرفت؟ شو سمعت؟

ـ اعذريني يا بنتي. كانت جولتي متعبة وراسي عم يبرم على ألف موجة.

ناولته إبريق الماء ليشرب علَّه يدخل في صلب الموضوع ويختصر المقدِّمات. أوحت لنبيل بضيقها عندما ازدردت ريقها بانتظار أن يرتوي المختار، فيما بوفؤاد ينزّه أصابع يده على جبينه كأنَّه يكتب أسطرًا في رأسه ويمحوها!

ـ قلب هيلانة على نار يا مختار... قال نبيل، نتمنَّى أن تكون لديك أخبارٌ تهدِّئ بالها وبالنا جميعًا.

ـ من هالك لمالك لقبّاض الأرواح... ما تركناش نايب ما زرناهوش، عرَّجنا على المحافظ وعلى رؤساء البلديَّات بالمنطقة،

خبَّرناهم قصَّتنا من أوَّل وجديد. . . تركنا اسم صالح ومواصفاته. وعدونا يحقِّقوا بالموضوع ويتواصلوا مع الأحزاب. عندن لِيستة طويلة عريضة بمفقودين، اختفوا بين ليلة وضحاها.

ـ خبَّرتهم إنُّو صالح. . . فلّاح. . . مِمما إلوش علاقة لا بالأحزاب ولا بببالسياسة؟. . . كككلّ همّه الحقلة والبغلة. . . وعععيلته؟

ـ صالح كبش فدا. . . يللي خطفه بدُّوش شي منه. هدفه يخرِّب ويثير البلبلة ويشعل الفتنة بين أهل الضيعة. أو بينهم وبين أهل المنطقة.

ـ هيدي فرضيَّة جديدة يا مختار. ردَّت وهي تنظر إلى بوفؤاد راجية منه التدخُّل. الصبح قققد. . . قلت إنَّ خطفه إلو عععلاقة بإبراهيم. بببعدين قلت بفريد. . . وهلّق. . . عععم بتقول شي تاني!

اعتدل المختار في جلسته، وأجاب:

ـ كلّ الاحتمالات واردة. إبراهيم كتائبيّ، وفريد قوميّ. خطف صالح بيحطّ الحزبيْن بدائرة الاتِّهام والهدف الفتنة! الشي نفسه حصل بجرود خرما وكفار ياسمين. انخطفوا أشخاص ما دخلهنش بشيء. . . ووقعت الواقعة بين الأهل. هيدا بيتّهم هيداك. حتى عمَّت الفوضى. . .

ـ طيِّب. . . النوَّاب يللي زرتهم. اتَّصلوا بالحزبيْن، وسألوا عن صالح؟

ـ وعدونا رح يتصلوا. قلتلَّك، عندن ليسته طويلة عريضة. . .

ـ وأيمتى بيبيرّدولنا خبر؟

ـ رح نضلّ على تواصل مستمرّ معهم. هيدا أكتر شي فينا نعمله. هلَّق المهمّ أنتِ وبنتك... الأستاذ نبيل وبوفؤاد مكلَّفين منِّي يهتمُّوا بكلِّ متطلِّباتك. اسمحيلي اترككم هلَّق، تأخَّر الوقت.

وقفت لتسلِّم عليه وتشكره محاولةً إخفاء استيائها من عبارته الأخيرة التي أوحت لها أنَّ أزمتها ستطول، وأنَّ المختار اتَّفق مسبقًا مع الأستاذ نبيل وكلَّفه مهمَّة رعايتها، كأنَّها تيتَّمت من جديد. أمَّا بوفؤاد الذي بقي واقفًا ولم ينزل مع المختار، فراح يتأمَّلها كأنَّه قرأ أفكارها. اقترب منها بعدما أصبحا لوحدهما، وربَّت على كتفها، وقال:

ـ الصبر مفتاح الفرج... أنا بترككش...

ـ كلام المختار خوَّفني. وبدل ما يهدا بالي زادت هواجسي.

ـ بكرا بيذوب الثلج وبيبان المرج.

جلست تستعيد في رأسها كلام المختار. إذا كان الهدف من خطف صالح إحداث شقاق كما قال. يعني لن يعيدوه، حتى لو تحقَّق هدفهم... صالح لن يعود أبدًا!

رفعت عينيْها المرتعبتيْن إلى بوفؤاد، كأنَّها شعرت أنَّه يسمع أفكارها.

ـ إنت شو رأيك؟ مين خطف صالح؟

ـ أنا ما غطتش عيني من يومها. اليوم الوحيد يلِّلي ما رحتش عالبستان صار يلِّلي صار. يقصف عمري... لو رحت تخمين ما كنش حدا استرجى يقرِّب عليه.

ـ تلِمش حالك... مين بيعرف... لو رحت.. يمكن كككانوا خطفوك أنت كمان...

ـ ويخطفوني. فكرك أنا سائل بالدني؟!

استدار نحو الدرج وغادر، ليفاجئها فجر اليوم التالي بقدومه فيما كانت تحلب الأبقار. لم تستطع أن تمنعه من أخذ البغلة والذهاب بها إلى الحقل. وقفت تتفرَّج عليه مذهولةً. «اتركيني كفِّر عن ذنبي يا بنتي. صالح ورزقه أمانة برقبتي».

* * *

مرَّ شهر بكامله ولم يظهر فريد. أخذت مفتاح البيت ومشت باتِّجاه التلَّة. تذكَّرت ما رأته في آخر زيارةٍ لها. تأكَّد لها أنَّ الشخص الذي لمحته فوق البيت، كان عند فريد، خرج من باب المطبخ عندما وصلت هي. «أنا مش بعيد عن الناس متل ما إنت مفكَّرة»، يومها لم تفهم ما قصده أخوها. العمل الحزبيّ لا يكون في العلن، خاصَّةً إذا كان الحزب الذي ينتمي إليه مضطهدًا. حين أدارت المفتاح بالباب، اقشعرَّ بدنها. لأوَّل مرَّةٍ، تشتمّ رائحة أهلها. البيوت وفيَّةٌ لأصحابها. تنضح بروائحهم شوقًا إليهم. كلّ قطعة أثاث، كلّ جدار، كلّ باب، شاهدٌ على عمر، يتحايل على الغبار، ليحفظ عيون ولمسات من غابوا كما تغمر السُحُب وجه القمر. كرسيّ أبيها ما يزال في مكانه. جلست عليه، بدا أصغر ممَّا كان. كيف كان يتَّسع لأبيها وهي على حرجه؟ أم أنَّها هي التي كبرت؟

دخلت غرفة فريد. سريران منفصلان بمنضدة. علبة سجائر خاوية. أعقاب سجائر في منفضةٍ فخَّاريَّة. نصف زجاجة عطر. فتحت أحد الجوارير. كتاب «نشوء الأمم، أنطون سعادة». أعداد من مجلَّة «المجلَّة». كتاب «أمّ سعد، غسَّان كنفاني». صفحةٌ مطويَّةٌ من الأعلى. قرأت: «الحبوس أنواع يا ابن العمّ! أنواع! المخيَّم حبس، وبيتك حبس، والجريدة حبس، والراديو حبس، والباص والشارع وعيون الناس. أعمارنا حبس، والعشرون سنة الماضية حبس، والمختار حبس... تتكلَّم أنت على الحبوس؟ طول عمرك محبوس... أنت توهم نفسك يا ابن العمّ بأنَّ قضبان الحبس الذي تعيش فيه مزهريَّات؟ حبس، حبس، حبس. أنت نفسك حبس».

حملت الكتاب وقرَّرت أن تأخذه معها. التفتت إلى الخزانة. رأت انعكاس صورتها في مرآة. مدَّت يدها لتفتح إحدى الدرف. تذكَّرت خزانة أمّ صالح التي لولاها لبقي سرّ ورديَّة مدفونًا إلى اليوم. قمصان فريد. كنزات صوفٍ في رفٍّ أعلى. جوارب. حملت شالًا صوفيًّا شمَّته. فوقع منه مظروف. لمَّته ولم تجد عليه أيّ كلمةٍ أو عنوان. فتحته. وسحبت منه رسالةً طويت من زمان. أسطر قليلة كانت كافية لتفهم أنَّها رسالة فراقٍ بلا توقيع. حبيبةٌ مجهولة الاسم كتبت لفريد: «*أعلم أنَّك مستاءٌ منِّي. غبتَ طويلًا كأنَّك تعاقبني. لكنِّي أعلم أنَّ عندك من الرقَّة ما يضاهي عنادك. في آخر لقاء لنا، وعدتك أن أفكِّر بالأمر. أمهلتني أسبوعًا... وظلمت. كيف لي أن أحسم أمري في أسبوع وأنت عالمٌ بكلِّ شيء؟ نعم، لك الحقّ في مساعدتي على تحديد أولويَّاتي، لكن*

هل يحقّ لك اختيار التوقيت الحاسم لقراري النهائيّ؟ لماذا لا تفهم أنَّ كلّ شيءٍ في حياتي معقَّد... ليس بسيطًا كما تدَّعي... ليس سهلًا كما نخطِّط أنا وأنت عدد الأطفال الذين سننجبهم... وما ستكون أسماؤهم... وأيّ كتبٍ سنقرأ لهم... «الحياة قرار» قلت لي. معك حقّ. لكنَّ القرار إمَّا أن يكون صائبًا أو لا يكون. لا أحتمل المغامرة من أجل أن أظفر بك! سمعتك الآن وأنت تقرأ سطوري تقول في نفسك: «الحياة الحقيقيَّة لا توضع في ميزان الربح والخسارة»... منك تعلَّمت أنَّ الحرِّيَّة حملٌ ثقيلٌ تحتاج إلى نفوسٍ كبيرة... لكنِّي الآن أعترف بضعفي وجبني وخوفي... وقبل أن تقتلني أنت بغيابك، قرَّرت أنا أن أقتل هذا الحبّ الذي ما كان له أن يولد... وسأبقى طوال عمري أدفع ثمن فقدانه من حياتي. دمت حرًّا... منِّي».

هيلانة أمام سرٍّ آخر جديد! لم تفهم من الرسالة إلَّا أنَّ فريد فقد حبًّا غاليًا على قلبه قبل وقتٍ طويلٍ من غيابه. وعلى الرَّغم من أنَّ الرسالة غير مؤرَّخة إلَّا أنَّ حالة الورق تشي بزمنٍ بعيد. أعادت هيلانة الرسالة إلى المظروف وغمرته بالشال... وقبل أن تغلق الخزانة لمحت علبةً معدنيَّةً مرسوم عليها سكاكر. ابتسمت. كم عشقت هذه السكاكر في طفولتها. حملتها عن الرفّ. كانت ثقيلة. ثبَّتت أظافرها على حافَّة الغطاء المعدنيّ وسحبته إلى أعلى. تطايرت صور ووقعت على الأرض. لملمتها. وتقدَّمت بضع خطى لتجلس على السرير. صور عرس فادية. صورة والدها في بذلة الدرك. صور فريد يحمل بندقيَّة صيد. أفرغت العلبة فوق السرير لتنفلش الصور أمامها. عيناها لا تكفيان لتتأمَّلها جميعها.

كانت تعرف أنَّها تبحث عن صورةٍ واحدة فقط. صورة امَّحت من ذاكرتها. مرَّرت يدها على الصور كأنَّها تفلش أوراق النعناع وتباعد في ما بينها. لمحت ورقةً بيضاء مطويَّة. فتحتها فسقطت منها صورة. ها هي. أمّها. تحمل طفلة. ليست هي. على خدِّ الطفلة شامة. إنَّها فادية. نظرت إلى الورقة. شهادة وفاة. قفزت عن الاسم الكامل: فاتن خليل معلوف، لتقرأ سبب الوفاة. الخطّ غير واضح. تبحلق في الكلمات، دقَّات قلبها تتصاعد إلى حلقها. وقعت في البئر. اختناق. هيلانة تختنق. الشهادة تهوي من يدها. ترفعها إلى عينيْها من جديد، تحملق أكثر. وقعت في البئر... اختناق. وكما تقصف العاصفة أبوابًا عتيقة وتشرِّعها على مصراعيْها، رأت هيلانة نفسها طفلةً في السادسة من عمرها تبكي أمام البئر. مركبٌ ورقيٌّ يطفو على سطح الماء ويبتعد إلى الحافَّة الأخرى. تقترب أمّها، تقرفص وتمدّ يدها لتمسك به. تحني جسمها إلى الأمام. تلامس أطراف أصابعها المركب الورقيّ لكنَّه يبتعد من جديد، تحاول التقاطه فتنزلق وتهوي في البئر.

ترمي شهادة الوفاة بعيدًا كأنَّها ترمي كلّ ما تذكَّرته للتوّ... وتشهق باكية. «أنا قتلت أمِّي. قتلت أمِّي»، تردِّد غارقة في دموعها فوق الصور ـ فوق وجوه من تحبّ ومن نسيت. فجأةً، تجمع الصور عشوائيًّا وتُعيدها إلى العلبة. تحملها وتخرج من البيت. تنزل التلَّة بسرعة البرق. تركض باتِّجاه القرية، ظلّها يطاردها وقلبها يهرول أمامها. كلّ من صادفها لم يستطع إيقافها عن الركض. تصل إلى زقاق البيت تنعطف إلى اليسار نحو بيت خالتها إلماز.

ـ بسببي ماتت أمِّي! صرخت. غرقت بسببي. أنا قتلتها. . .

تقف إلماز كأنَّ قدمها المشلولة شُفيْت فجأةً. تمسك هيلانة من ذراعيْها وتضمّها إلى صدرها، إمَّا لتكتم صراخها الذي ملأ الحيّ أو لتتركها تبكي حتى تنشف دموعها.

لكنَّ هيلانة تقاوم عناق خالتها، وتصرخ من جديد:

ـ شفتها عم توقع بالبير. . . ما صرختش. بقيت ناطرة تطلع من الميّ. كيف طلَّعوها من البير؟ منشان هيك غطَّى بيِّي البير؟ منشان هيك هدمه بعدين؟

ـ اهدي. . . اهدي.

ـ ما تقوليليش اهدي! بكرَهْ هالكلمة. بسمعها من لمَّا كان كان عمري ستّ سنين! كككيف اهدا وأنا قـ. . ت. . ل. . . ت أمِّي!

تنهار على الأرض وتغيب عن الوعي.

عندما فتحت عينيْها، رأت مريم أمامها تبكي وتزمجر. خالتها إلى جانبها على الكنبة. طعم ماء الزهر في فمها.

ترفع هيلانة رأسها محاولةً الجلوس. تجول بعينيْها في الغرفة باحثةً عن العلبة وشهادة الوفاة. «ضبيتها جوّا»، قالت إلماز وهي تربِّت على يدها.

ـ قدِّيش الساعة؟

ـ عشرة.

ـ الصبح؟ يا دلِّلي تأخَّرت. وهمَّت بالنهوض.

شعرت بدوارٍ وكادت أن تهوي، لكنَّ مريم أسندتها وهي تنظر إليها بقلق. عادت وجلست. «اعطيني العلبة والورقة».

ـ حبيبتي... يلّلي قلتيه مش صحيح. مش إنت السبب. ذاكرتك عم بتغشّك. أمّك كانت مريضة. الدوخة قصفت عمرها.

ـ خالتي... ذاكرتي ما بعمرها كانت قويَّة متل اليوم. اليوم شفت كلّ شي كأنَّه عم بيحصل قدَّام عيوني. كنت عم ببكي بدِّي شختورتي... نخِّت أمِّي لتجيبها وغرقت...

ـ لمَّا لاقوها كانت الشختورة بإيدك إنتِ، مش بالبير. سحبتها من المي قبل ما توقع. هيدا التشخيص مش من عندي. هيك قال الحكيم وهيك شاف بيِّك والكلِ...

ـ الحكيم؟ يللي وصَّاني اشرب زوفا؟!

ـ أيّ زوفا...؟

ـ ... أعطيني العلبة. لازم روح.

ـ وعديني تشيلي كلّ هالأفكار الغلط من راسك. ما بتوثقي فيِّي؟

ـ جاوبيني على سؤال واحد بس: بلِّشت تأتئ من يومها؟

ـ بعرفش يا حبيبتي. نشكر الله إنَّك ما فكَّرت ترمي حالك وراها! كنَّا رح نكون بمصيبتين بدل الواحدة! يلِّلي بيهمّني هلَّق إنَّك ما تلوميش حالك. مش إنت السبب... بالعكس عانيتِ كتير!!

ـ لأنِّي مذنبة... لأنِّي بعرف إنِّي... قققققق. قتلتها!

ـ إنت بدِّك تصدِّقي هالشي لأنَّ موتها كان كتير قوي عليكِ. ولا شي رح يقنعك ليش راحت إلَّا إنَّك إنتِ السبب...

ـ مش عم بفهم عليكِ خالتي... أنا السبب... لهيك بيّي غغ... غ... غطَّى سطح البير... بعدين هدمه...

ـ تصوَّري تقول هبة إنُّو صالح انخطف بسببها؟ لأنَّه راح عالحقلة ليأمنلها أكل وشرب ومدرسة.

ـ خالتي... هيدا المتل ما بينطبقش على حالتي أبدًا... أنا كنت هونيك. حدّ البير... وما عملتش شي.

ـ الحمد لله إنَّك ما عملتيش شي.

ـ كان لازم أصرخ... بركي حدا بيجي بيخلِّصها.

ـ مين؟ فادية وفريد بالمدرسة. بيِّك بشغله. بيتكم على تلَّة معزولة. لمين بدِّك تصرخي... بالعكس كنتِ عاقلة كتير. وما نزلتيش وراها...

ـ وليش ما كنتش بالمدرسة؟

ـ كان عليك حرارة يومها. زلاعيمك ملتهبين.

ـ غريب... تذكَّرت الحادثة ومش قادرة اتـ... اتـ... اتذكَّر شو صار بعدين.

ـ جابوكِ لهون. عشت عندي شهرْين أو أكتر.

الآن فقط، فهمت هيلانة لماذا بيت إلماز أكثر ألفةً من بيت أهلها. التفتت إلى الغرفة قرب المطبخ. هناك كانت تنام وتصحو في الليل لتشرب الماء باردًا من الصنبور. كانت من اللحظات

الممتعة في لياليها عندما يبلِّل الماء قميص نومها. «هالكنبيات كان عليها كروشِّيه متل يلِّلي عندي بالبيت»، قالت.

ـ علَّمتك الكروشيه لتنسي.

ـ وما طلبتش ارجع عَ بيتنا؟

ـ كنت تروبصي... مرَّة طلعتِ بالليل ومشيتِ عالساحة. ما عدتش بذكر مين شافك وردِّك لهون!

نهضت لتغادر، طالبةً العلبة من جديد. دخلت إلماز لتجلبها. كانت مريم تحدِّق بها كأنَّها فهمت كلّ شيء. مدَّت هيلانة يدها لتداعب وجهها وتمسح دمعةً توقَّفت على خدِّها القرمزيّ. «وإنتِ؟ أيّ صدمةٍ خلّتك خرسا؟» تمتمت...

أخذت العلبة من خالتها وخرجت لتعود إلى البيت. الماضي انقشع أمامها كنهارٍ مشمسٍ في أيَّار. عندما اقتربت من بيتها، شعرت كأنَّ هذا الماضي خلع للتوّ قميصه الأسود، وألبسه للقادم من الأيَّام.

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

شهرًا بعد شهر، ضاقت الحال بهيلانة. بوفؤاد كلَّف خليل، أحد أبنائه الخمسة، الاعتناء بمحاصيل ابن عمّه صالح وفلاحة الحقل. لكنَّ المواسم كانت ضعيفة. «الأرض حردانة. مشتاقة إلى شوكتَيْ صالح»، ردَّدت في نفسها كلَّما استرسل خليل في التعليل والتبرير. عرفت هيلانة أنَّ المطر سيكون شحيحًا هذا العام، لكنَّها لم تتوقَّع من أهل ديرزوفا أن يقيموا احتفال عيد السيِّدة كأنَّ شيئًا لم يكن. «الحياة بتكمِّل»، قالت لها عفاف عندما لاحظت استياءها من انشغال الجميع في التحضير لسهرةٍ عارمة. في تلك الليلة، كان صوت الطبلة يقرع في قلب هيلانة. جلست على الأرجوحة وحدها طوال الليل. طيف صالح يظهر ويغيب متراقصًا في الهواء. من يمسك بطرفِ الدبكة الآن؟ وغمرت الدموع عينيْها حين رأت أصابعها مصبوغة بلون التوت. من ضحَّى بحياة صالح؟ ولماذا؟ هل أرادوه قربانًا تكفيرًا عن ذنوبهم؟ «كبش

محرقة» الذي بدأ يلتصق باسم صالح كلَّما لاكت الألسن قصصًا عن اختفائه... راح يحتلّ أفكارها، ويذكِّرها بأساطير قرأتها عن الأضاحي البشريَّة في عصور الكون الأوَّل. لم يهدأ ليل عيد السيِّدة إلَّا وكانت هيلانة خائرة القوى والأمل.

أخبار احتدام المعارك وتزايد عمليَّات الخطف كانت تصلها من كلِّ مكان. من اتِّصالات فادية، من التلفزيون في بيت نبيل، من الترانزستور الذي جلبه فريد هديَّةً لهبة يوم تعميدها. جنازات كثيرة شهدتها ديرزوفا لشبابٍ قتلوا في المعارك. المختار أصبح قاضي صلح بين عائلات القرية التي زادت انقسامًا بفعل انتماء أبنائها إلى أحزابٍ متصارعة. عفاف غرقت في حدادٍ طويل بعد موت أمّها، وما عادت تتحدَّث إلَّا عن فقدانها لها قبل موتها بكثير. «شو الإنسان من دون ذاكرته؟»، قالت لهيلانة ذات مساء من أيلول البارد. سهرتا معًا على الشرفة. كانت هبة مريضة. ولم تشأ عفاف أن تنام قبل الاطمئنان عليها. «أمِّي ماتت قبل ما تموت، ما عادت تعرفنا، نسيت كيف تأكل... كيف بتعاقب الحياة ملاك متل الأمّ؟» في تلك الليلة، أخرجت هيلانة علبة السكاكر، وفلشت الصور أمام عفاف، وأرتها شهادة الوفاة.

ـ ععععع... عاقبت حالي... احتميت بعاهتي لحتى أنسى ذنبي.

ـ طفلة شافت أمّها عم تغرق قدَّامها مش ممكن ما تفقدش عقلها. إنتِ بطلة يا هيلانة.

ـ ومين قلِّك إنُّه عقلي معي؟ إنتِ قلتيها، «شو الإنسان بلا

ذاكرة؟»، عشت بهالبيت كأنّي ما عرفت غيره، صالح احتلّ كلّ ذاكرتي ليحميني من ذكرياتي.

ـ كان ممكن وقع الصدمة يدمِّرك!

ـ في دمار أفظع من عاهتي؟

ـ طفلة غيرك كانت خرست بالمرَّة! إنتِ قويَّة.

ـ دخيلك عفاف... أيّ قويَّة؟

ـ اتطلَّعي حواليكِ. هيدا البيت، هيدي العيلة، حبّك لصالح، اهتمامك ببوصالح وأمّ صالح، تربيتك لأحلى بنت بالعالم. إنتِ أمّ الكلّ. حتى إلي أنا... كسرتِ القاعدة يلِّلي بتقول «فاقد الشيء لا يعطيه»، قلبك مليان حنان... حنان فقدتيه إنت وطفلة. عندك قوَّة مش عارفتيها. بتعرفي شو هيِّي؟ الصدق.

ـ على سيرة الصدق، بتعرفي إنُّو قبل ما يختفي صالح بليلة، خبَّرني كلّ شيء عن ورديَّة؟ شو صرت خاف من لحظات الصدق. كأنَّه منحسّ أنّه رح نفلّ... ومنقول كلّ شي، لحتى نروح وضميرنا مرتاح...

ـ فقدتِ الأمل إنُّو يرجع؟

ـ الأمل عندو وجّ بكرهه.. لمَّا نخبِّي فيه عجزنا.

لم تستغرب هيلانة النعاس المفاجئ الذي أصاب عفاف بعد كلامها عن الأمل. عندما تحدَّثت عن قوَّة الصدق من دون أن تعلم بالكلام الذي غيَّر وجه نبيل وكلامه وعينيْه، كشفت عن قناع الأمل الذي تخدع به نفسها لتستمرّ حياتها مع رجلٍ يغازل كلّ النساء عداها. في تلك السهرة، استفزَّتها عفاف بتعليقاتها عن

الحرب الدائرة في لبنان. حاولت أن تشرح لها كيف أنَّ بعض رجال ديرزوفا الذين قبلوا بفسادٍ يعشِّش في منازلهم، هم أوَّل من حمل السلاح في وجه عدوٍّ ابتكروه ليبرِّروا ضعفهم في مواجهة أنفسهم. قالت لها: «إذا ما منغربل قمحنا بإيدينا، رح نقول إنُّو الزوان اندسّ فيه لقتلنا». أدركت وهي تتكلَّم أنَّ بحثها عن مبرِّرات للتأتأة، سواءٌ في ذاكرتها المفقودة أو في سخرية الآخرين لم يفضِ إلَّا إلى تغذية عدائها لنفسها. «حبس، حبس، حبس، أنت نفسك حبس».

الشتاء جاء بلون الدم. المجازر عمَّت لبنان. رائحة الموت في كلِّ مكان. لم يأتها المختار بجديدٍ من نوَّاب المنطقة. قائمة المفقودين أطول من قائمة القتلى. أو لعلَّ المختار لم يقصد يومًا النوَّاب! لماذا يزعجهم بخطف فلَّاح لا قيمة له في حساباتهم؟! كلّ الوعود لم تُرجع لها صالح. لكنَّ بوفؤاد الذي يزورها من وقتٍ لآخر، أفضى لها بسرٍّ كتمه طوال تلك الفترة، فتأكَّد لها أنَّه يستعدّ للرحيل عن هذه الدنيا.

كان الوقت غروبًا حين سمعت صوت عكَّازه على الدرج. أزال الوشاح عن وجهه، وجلس قرب الموقد في المطبخ. ذكَّرتها ملامحه بأخيه بوصالح قبل ليلةٍ من رحيله. . . الشبه بينهما لم يكن جليًّا من قبل. كأنَّ الموت يقترب لابسًا وجوهًا أليفة، لينذر الأحياء بالغياب الوشيك لمحبِّيهم. بوفؤاد يفرك يديْه ويبسطهما فوق سطح الموقد مرَّةً بعد أخرى. «عمِّي بفؤاد بوجّك حكي». . .

ـ بعرفش يا بنتي إذا يللي عم فكِّر فيه صحّ أو تخريفات ختيار! صرلي يومين ما نمتش... كأنْ في شي عم بيلكشني ويقلِّلي «يا بوفؤاد إحكي»...

ـ طيِّب إحكي...

وقف بوفؤاد واتَّجه إلى باب المطبخ المفضي إلى الحديقة. توقَّف وراح يطرق عكَّازه بالأرض، وبدأ يتكلَّم مُديرًا ظهره لهيلانة.

ـ الحقّ عليّ ما عملتش شي. .ما ساعدتوش... وما خلَّيتوش يكمِّل بمشروعو... خفت عليه، وحسِّيت إنُّو فش نتيجة من كلّ حربصتو.

هيلانة تتململ في مقعدها. المقدِّمات حيلة الخاطئين! «عمِّي بوفؤاد... ارجع لحدِّي. مش عم بسمعك منيح».

بقي واقفًا في مكانه كأنَّه لم يصدِّقها، فصوته كان عاليًا ككلّ أصوات الفلَّاحين في ديرزوفا.

ـ تخمين قصَّة المجارير هي السبب، دمدم.

وقفت هيلانة واتَّجهت صوبه، فاستدار نحوها. كانت دمعته عالقةً بين تجاعيد عينه. وضعت يدها على كتفه. تحرَّك متردِّدًا ومشى معها ليجلس قرب الموقد زافرًا أنفاسه المتعبة، مرخيًا رأسه إلى الأسفل، ومحدِّقًا في النار قائلًا:

ـ كلَّما نزلنا عالحقول كنَّا نشمّ ريحة بتقرِّف. ريحة خرا أجلِّ السامعين... ومرَّة شاف مصارين بقر مكبوبة بالنبع. خِوِت وجنّ... حكي مع اللحام وهدَّده يشكيه للمختار. وحكي

للمختار أكتر من مرَّة. ودقّ الميّ ميّ... وبتعرفي لمَّا الناس تنزل سَيَران عالنبع بيتركوا كلّ وسخهم هونيك. قلتلُّو يا ابني ما حدنش رح يردّ عليك... لا المختار بيمون ع رئيس البلديَّة، ولا رئيس البلديَّة بيمون عالمحافظ، ولا المحافظ بيمون عالدولة... ولا الناس رح يصحى ضميرها! ما بنسى كيف كان عم بيكرفت ويسبّ... وأنا قلُّلو حاج تبالغ. بدهاش هالقدّ... الأرض بتنضِّف حالها. بكرا بتشتِّي الدنيا وبتجرف معها كلّ هالوسخ. وكلَّما قلُّلو هيك يجنّ أكتر... ووصل لكلامي: ما حدنش ردّ عليه...

ـ ولا مرَّة خبَّرني هالقصص... همست هيلانة محدِّقة هي الأخرى بالنار كأنَّها ترى وجه صالح مشتعلًا بالغضب. يعني قصدك المختار إلو يد بخطف صالح؟! وأنا رايحة وجايي عند المختار، مفكَّرة إنُّو هو قلبه على صالح!!

ـ له يا بنتي... يمكن أنا ما توقعَّتش توصل القصَّة لهون. قلت لا بدّ عم بخرِّف... المختار ابن هالضيعة بس بيقدرش يمون ع رئيس البلديَّة، ولا رئيس البلديَّة بيمون عالمحافظ ولا المحافظ، بيمون عالدولة...

ـ بسّ القصَّة عن جدّ بدهاش هالقدّ... يعني. كانوا بيقدروا يصلَّحوا المواسير شي يوم، ويحطُّوا لافتة ممنوع رمي النفايات...

حين وقفت هيلانة واتَّجهت صوب المجلى، أرادت أن تغسل مع الصحون كلّ الهواجس التي راحت تتجمَّع في رأسها الصغير.

وعاودتها جلساتها مع المختار الذي بقي مصرًّا على ربط خطف صالح بقرابته لفريد وإبراهيم. وكان شبه متأكِّدٍ بأنَّ ما يحصل في بيروت يرتدّ على ديرزوفا. وراح الجميع يتداول روايته، ويضيفون عليها من عندهم كلٌّ بحسب هواجسه الخاصَّة: «أهل بقاع نبعا عم ينتقموا منَّا!» كما ردَّدت لها عفاف نقلًا عن نساء يزرنها... ومثل كلّ ما يحصل في ديرزوفا، انضمّ اختفاء صالح إلى ملفّ الأحداث التي يريدها الجميع أن تبقى غامضةً لسببٍ تجهله هيلانة حتى اليوم. الجميع يريد لروايته أن تنتصر على سواها. تذكَّرت ما قاله لها صالح مرَّة: «بدل ما نصلِّح الخلل، منفتِّش على شمَّاعة..» يومها لم تدقِّق كثيرًا في كلامه. فحديثه كان عن الفلَّاحين الذين بدأوا يستخدمون الموادّ الكيماويَّة في الزراعة... لعلَّها مثل الآخرين اعتبرته يبالغ في عشقه للأرض!!

الآن فقط، فهمت أنَّ صالح كان وحيدًا في معركته. فتلك القدسيَّة التي تعاطى فيها مع الأرض همَّشته هو الآخر.

زيارة بوفؤاد لم تكن الأخيرة كما توقَّعت هيلانة. كأنَّ هذا العجوز راح يستمهل الموت معاقبًا نفسه بحياةٍ مسكونةٍ بالندم، أو أنَّه يريد لروايةٍ أخرى أن تولد لتمحو هواجسه وذنبه.

* * *

بقاء إبراهيم على جبهات القتال قاد فادية إلى المهدِّئات، فأصبحت تقضي أيَّامها في النوم. أمَّا فريد، فتحدَّث مع هيلانة مرّةً واحدة عبر هاتف جيرانها، وطمأنها أنَّه بخير بعدما انقسمت بيروت إلى منطقتيْن، باسم «القضيَّة» التي حملت ألف وجه!

لم تنجُ ديرزوفا من الانقسام. الحرب وسَّعت الشقوق بين أهلها. وذات صباح، وفيما كانت هيلانة تحلب البقرات، انطلق الرصاص في ساحة القرية. أطلَّت برأسها لترى شابًّا يخرج كالسهم من أحد البيوت مطلقًا رصاص رشَّاشه في الهواء. تجمَّع أهل القرية في لحظة. وقفوا يتأمَّلونه وهو يتكلَّم بصوتٍ عال، بين رشق رصاصٍ وآخر. تقدَّمت هيلانة لتتبيَّن المشهد. رأت أمّ عادل وابنتها ليلى تمشيان أمامه. العائلة حلَّت عليها لعنة الحرب. خُطف ابنها عادل، ولا أحد يعرف مصير عارف. أمَّا الشابّ الذي رفع رشَّاشه في وجه الأمّ وابنتها، فلم يكن إلَّا بيار الكتائبيّ. كان ساخطًا يصرخ بالناس، ويأمر أمّ عادل وليلى بإكمال طريقهما، يده على الرشَّاش وعيناه تبثَّان الرعب في كلِّ شخص ينظر إليه. اقتربت هيلانة أكثر عندما رأت أمّ فارس تبكي وتدمدم. «شو في؟» سألتها هيلانة.

ـ مجنون وحمل سلاح! آخذهن عند أمّ ضومط. قال شو؟ لازم يعتذرولها... كأنَّهم هنِّي خطفوه! شو خصّ النسوان بالحرب؟!

التفتت إلى الرجال يقفون بصمت، ويرمقون بيار من تحت أهدابهم. رؤوسهم منكَّسة. هذا حارب الفرنسيِّين، وذاك قتل الضبع، وهؤلاء منعوا سفك الدماء بين بقاع نبعا وديرزوفا... لم تَرَ المختار بينهم. عبرت الأجساد الواقفة كالتماثيل. وصلت إلى الصفِّ الأماميّ. التقت عيناها بعيون أمّ عادل وليلى. تمشيان فخورتان بتاريخٍ بطوليٍّ قديم. لن تطأطئا الرأس الآن أمام مجنونٍ وجبناء. ومن حيث لا تدري، فرَّ صوت هيلانة منها:

ـ يا بيار. . يا ابن ديرزوفا! بتقبل حدا يمشّي أمّك وأختك بالساحة هيك؟

لاعب بيار الرشَّاش في يده، وتوقَّف أمامها ليدرز هيئتها بنظراته الساخرة، متوقِّعًا أن تخاف من قرقعة السلاح في يده.

ـ ردّ على سؤالي. أنا مش حاملة سلاح. قوِّصني. مش عيب عليك تتمرجل على نسوان؟

ـ روحي على بيتك أحسن ما تمشي معهن.

تقدَّمت هيلانة ووقفت إلى جانب أمّ عادل، وقالت له: «خدني أنا كمان». في تلك اللحظة، توقَّعت أن تتعالى أصوات الرجال لتضع حدًّا لكلِّ هذا الجنون. لكنَّ الأنفاس كلّها انقطعت فجأةً. وراح بيار يدور حول هيلانة ملوِّحًا بالرشَّاش. نفضت جسمها وانتصبت كمسطرة، رفعت رأسها وأشاحت بنظرها عنه. رأت نبيل على مرمى بصرها يومئ لها بأن تعود إلى البيت. شعرت بيدٍ تمتدّ إليها وتسحبها من ذراعها. كانت أمّ فارس ترتعش وهي تقول لها: «بدِّك تموتي؟ شو عم تعملي يا خوتا؟ اوقفي هون». أفلتت من يد أمّ فارس، وعادت لتمشي مع أمّ عادل وليلى أمام بيار. «يا بنتي اتركينا ندبِّر حالنا معه، همست لها أمّ عادل. نحسبها زيارة لأمّ ضومط».

ـ إجري على إجركن.

ـ انضبِّي إنت على جنب أحلى ما يتِّم بنتك! صرخ بها بيار.

ـ ارفع سلاحك على عدوِّك الحقيقيّ. كل عمرنا أهل بديرزوفا! أمّ ضومط وأمّ عادل وأمَّك بيصلُّوا بالكنيسة نفسها.

بيشربوا من الميّ نفسها... استحي على دمّك... شو بدُّن يقولوا عنَّا بالضيع التانية؟

خرطش بيار الرشَّاش ليستعد لإطلاق الرصاص. تعالت صيحات النسوة. فيما بقي الرجال واقفين كالشخوص، إلى أن وصلت سيَّارة المختار واخترقت الجمع. ولمَّا نزل منها متَّجهًا بوجوم نحو بيار. أنزل الأخير رشَّاشه، فسارعت النسوة إلى إحاطة أمّ عادل وليلى وإبعادهما عنه. مشت هيلانة مع النسوة إلى بيت أمّ عادل غير واثقةٍ من أنَّ المختار سيتصرَّف كما يلزم مع بيار وينهي المهزلة.

حين دخلت إلى بيت أمّ عادل، شعرت بقدميْها ترتجفان... رجفة الغضب لا الخوف. رجفة الخذلان من قريةٍ بكاملها، لم تقف ندًّا لأرعن يحمل السلاح. رجفة اليأس من ضجيجٍ أعلى من صوت الرصاص، ضجيج النسوة والرجال عندما يأتي كلامهم وسلوكهم متأخِّرًا أو بلا فائدة على الإطلاق!

أمّ عادل تجلس على كنبتها، تحت صورة عادل وعارف، قدماها منتفختان، وكلّ أحزان الدنيا مفلوشة على ثوبها الأسود الطويل، فيما النسوة من حولها يتبارزن على تقديم كوب ماءٍ أو تمسيد يدي «المرأة ـ الجبل»، وكلّ حركةٍ تترافق مع إطلاق اللعنات على «شيطانٍ لعب بعقول الشباب».

هيلانة تنظر إلى كلِّ وجهٍ من وجوه النسوة. كلّ وجهٍ كان يحفِّزها على الهرولة والاختباء. كلّ وجهٍ كان مرآةً لشيطانٍ لعب بعقلها طويلًا، وأوهمها بالعجز. الآن، الوجوه نفسها ترمقها كمن

يلحظ عبور شهب. وحين تقدَّمت منها عفاف وهمست لها: «آه يا جارتنا يا بطلة إنتِ... شفتِ حالك كيف حكيتِ؟! وين راحت كلّ التأتأة؟» أجابتها: «ما لقيت إلَّا صوتي لمَّا الكلّ سَكَت». وللمرَّة الأولى، تنسحب بقرارٍ واعٍ منها: فالعجز قرار. والحرِّيَّة أيضًا قرار.

مشت في القرية. خُيِّل إليها أنَّها تختال على ساحةٍ من جليد. كلّ الشبابيك المفتوحة عيونٌ شاخصة إليها وهي تعبر كأنَّها تفرّ من فستانٍ عتيق. كأنَّ ساحرةً ألبستها ثوبًا من غيوم. رأت ظلّها أمامها يجثم فوق الوحش الأسود. يدهسه مرَّةً مرَّتيْن وثلاث. أبطأت في خطوها لتنتشي بهذه الجريمة العادلة. رأت موتها وولادتها في معركةٍ حاسمة. شمَّت ندى مطر. وكلَّما اجتازت حفنة بيوت، علت هامتها. أصداء صوتها أمام بيار ورشَّاشه، تتسرَّب في الأزقَّة كتردُّدات رعد جديد. أهل ديرزوفا هجروا الساحات، لكنَّهم يتلصَّصون عليها من خلف الستائر ليشهدوا على رقصتها الأخيرة فوق جثَّة «هيلانة التأتوءة».

في المساء، اكتمل القمر. جلست هيلانة على شرفتها وتحت سماءٍ بلا نجوم، كتبت في دفترها الصغير: «لو تعلم كم أندم على ضياع عمري في الخوف من نفسي! وكم أتمنَّى لو أنَّك شهدت ولادتي بعدما قتلت الوحش الأسود الذي أثقل كتفيَّ طوال حياتي! كيف لوهم أن يكون أشدّ سطوةً من الحقيقة؟! نحن أعداء أنفسنا والسبب الأوَّل في شقائنا. الجهل شقاءٌ يا صالح. وحده الوعي بوَّابة الخلاص. عُدْ، أرجوك... لأعوِّضك عن سنوات غربتي في متاهات الكلام. أحتاج إلى حبّك الآن بعدما تحرَّرت

من هواجسي وطار صوتي من حبسه. عُد لأحبّك بنقاء النبع الذي من أجله حاربت، وبسببه ربَّما خُطفت! اليوم شقائق النعمان اشتدَّ عودها يا صالح. فالدم يلد دمًا في كلِّ المواسم... ما عاد الربيع يزهر. لا القمح استوى ولا النبع طاف. أحتاجك لنواجه معًا هذا الوحش الأسود الذي يتكاثر كزوان القمح. صار له إخوةٌ وأبناء يربضون فوق أكتاف الرجال والنساء في ديرزوفا... وأبعد، فالوطن كلّه اختُطف يا صالح. وفي غيابك، صوتي وحده لا يكفي».

ـ انتهى ـ

مكتبة
t.me/soramnqraa

من هو ذلك المارد الذي يجثم على كتفيُها؟

لماذا اختارها هذا الوحش الأسود دون غيرها في القرية؟ لماذا يشلّ أطرافها ولسانها ولا يختفي إلّا حين يأتي الرعد ويرفعها إلى حيث يمحو الضوء كلّ التباس مع العتمة.

طفلة الرعد لا تفهم من أين يستلّ أهل ديرزوفا تلك المهارة في ابتداع حكاياتٍ تقارب الأساطير، وكيف يسطو الغيب على الحقيقة، والخيال على المنطق؟ حين بدأت تسأل وتبحث عن إجابات، اكتشفت أنَّ المارد نفسه صار له إخوة وأبناء يربضون فوق أكتاف الرجال والنساء في قريتها... وأبعد.

غادة الخوري: كاتبة لبنانيَّة عملت في التحرير الصحفيّ وإعداد البرامج التلفزيونيَّة. صدرت لها رواية «يوم نامت ليلى».

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الآداب